Shero4jesus@yahoo.com
شیرو

البيزانطينية في آخر ايامها يقاسون الاهوال مع كل حزب من حزبيها اللذان كانا يعرفان بالحزب السياسي الاخضر والحزب الازرق . وكان شعار الحزبان المصريان اللذان نحن بصددهما من القماش الابيض والاحمر (١) ويقول الجبرتي أن هذان اللونان قد اثرا في شعور اصحاب كل حزب تأثيراً شديداً حتى اصبح اصحاب كل حزب يكره لون علم الحزب الاخر الى درجة لا تطاق حتى انهم ما كانوا يسمحون لاهل منازلهم باستعمال لون علم الخصم حتى ولا في الادوات المطبخية عندهم . وكبرت مسألة الاحزاب في نفوس المصريين حتى وصلت الى طبقات العمال واصحاب الصنايع الذين انقسموا ايضاً على بعضهم الى حزبين حزب يقال له حزب السعديين والآخر حزب الحرميين وصاراً يتحاربان مع بعضهما وحمل الحزب الاول منهما علم الفقارية الابيض والحزب الاخر علم القاسميه الاحمر . وابتدأ العراك اولاً ما بين قاسم بك الذي كان شيخ البلد وقتئذ (أو محافظ القاهرة) وذو الفقار بك الذي كان مزاحماً له على اخذ هذا المركز منه وكانا كلاهما من الشركس ومن نسل رجل من امراء المماليك

(١) كان علم الفقارية ابيض اللون ومزاريقه برمانه وعلم القاسميه احمر ومزاريقه بجلبه . وكان لكل من هاتين الطائفتين صفات مختصه بها فالفقارية كانت توصف بالكثرة والكرم والقاسمية بكثرة المال والبخل وبعضهم يقول أن هذين الحزبين ينسبان الى قاسم بك الدفتردار وذوى الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ هـ

المشهورين يدعى سودون كان عاتياً في عهد السلطان سليم الفاتح وحجر على نفسه داخل منزله وظل فيه كمسجوناً باقي ايامه على ما رواه المؤرخون كي لا يعترف بالسلطان المشار اليه حاكماً على مصر . وفي اثناء السنين الاخيرة من القرن السابع عشر كان العراك والخصام قائماً على اشده بين رجال هذين الحزبين وانتهى بمذابح وسرقات ونهب واحوال يطول شرحها يراها القاريء بالتطويل في تاريخ الجبرتي .

وفي اواخر القرن السابع عشر كثر وفود الارساليات الدينية والتجارية من اوروبا الى مصر حتى اضطر الحال الى تعيين نائب عن اوروبا في العالم المصري . ولو أن هؤلاء النزلاء الاحرار الاوربيين قليلون لكنهم في الحقيقة اقوياء الجانب بقوة وتأثير الشروط الدولية حتى امكنهم التمتع بالضمان التام بين المسلمين على اموالهم وحياتهم الذي لم يكن يتمتع به احد من من المصريين انفسهم فكان هذا الامتياز سبباً لرواج تجارة الاوربيين وصناعتهم رواجاً عظيماً في مصر كما وان الفرمانات التي عبرنا عنها بالاختصار بقولنا شروط دولية تحتوي على معاهدات عظيمة الشأن معقودة بين سلاطين آل عثمان وبين ملوك دول اوربا الكبرى . واول معاهدة من هذا النوع تمت ما بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر وان المعاهدة بين المملكة الفرنساوية تمت في سنة ١٥٣٥ مسيحية

ولما اصبحت مصر جزءاً من المملكة العثمانية حوالي القرن السادس عشر كانت كل تلك المعاهدات وما تم بعدها تسري على مصر وهي البلاد

الجديدة التي ضمت الى الاملاك التركية . وقبل ايجاد هذه الامتيازات كان من المستحيل قطعياً على أي تاجر اجنبي أو ارسالية دينية أن تعيش في بلاد مصر . وفقط في عصرنا هذا اصبحت تلك الامتيازات الدولية شديدة الوطأة ومبتذله كثيراً وسبباً في تاخير نجاح البلاد المصرية

وفي اوائل القرن السادس عشر عينت كل من فرنسا وانكلترا قنصلاجنرالاً يمثلها في القاهرة وكتب المسيو دي مايه وكيل فرنسا السياسي الذي اتى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كتاباً عظيماً عن احوال مصر في اواخر القرن السابع عشر واول القرن الثامن عشر للتاريخ المسيحي. لان هذا الوكيل السياسي تعين في السنة الثلاثين من عمره نائباً عن جلالة الملك لويس في مصر اكثر من ستة عشر سنة اجتهد فيها أن يعرف عوائد واخلاق المصريين لانه كان يسر بذلك كما انه اجهد نفسه في تعليم اللغة العربية مع أن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية التي تخاطب بها الطبقات العالية من المصريين اما العربية فكانت لغة عديمة الاهمية. ويتضح لنا من كتابة المسيو دي مايه المشار اليه انه مدن القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط اي ثغور البلاد المصرية اذلم تكن محصنه في ذلك الحين بل كانت عرضة وفريسة لاي فاتح يأتيها . وقال ان البلدة الوحيدة التي لم تزل محاطه باسوارها هي المنصورة كذا كثير من بوابات مدينة القاهرة كانت باقية على عهدها لكن الاسوار التي بينها لا يعتد بها لانها كانت مهدمة واشبه بحصون خربة . وقد قدر سكان القاهرة في ايامه بنحو ٥٠٠ر٠٠٠ نفس وقال انه

لا يظن أن عدد سكان مصر لا يزيد عن ٤٠٠ر٠٠٠ نفس وكانت حدود الديار المصرية وقتئذ في جنوب مدينة ابريم حيث كانت الحامية العسكرية هناك عبارة عن خمسة وعشرين أو ثلاثين عسكرياً وكان لثغر الاسكندرية مرفأين احدهما مخصص لدخول المراكب المسيحية واما المرفأ الثاني الذي كانوا يسمونه الميناء الجديدة فكان مهدماً خرباً . ثم تكلم باستغراب عظيم عن بقايا مدينة الاسكندرية القديمة خصوصاً عن بقايا الاعمدة الجميلة التي كان لم يزل كثيراً منها قائماً بقرب الجامع الذي كان اصله كنيسة القديس اثناسيوس ثم قال أن البحر الابيض المتوسط هناك اخذ في النزول عن الارض بسرعة غريبة جداً حتى انه لاحظ أن المنزل الذي نزل فيه عند قدومه الى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كان بينه وبين مياه البحر ثلاثون خطوة فقط فلما زاره سنة ١٧١٨ وجده يبعد عن البحر بنحو سبعين خطوة وقد بنيت منازل اخرى في الارض الخالية التي وجدت بينه وبين البحر

وقال انه بخلاف المسلة التي رآها منتصبه بجهة عين شمس رأى هناك ابو الهول مغطي بالرمال وقد كسرته ايدي الناس الذين ينبشون الارض بقصد أخذ الكنوز المدفونة ويقول أن اصل حجمه يماثل حجم ابي الهول القائم بجوار اهرام الجيزة ومنحوتاً في صخر (حجر) واحد مثله . وقال أن احدى المسلات كانت لم تزل قائمة بجهة المطرية ولكن اشجار البلسم المشهورة في تلك الجهة قد هلكت بالكلية

وواضح انه من منذ ثلاثمائة سنة مضت كانت بقايا واثار القصور والمباني القديمة تشاهد اكثر من هذه الايام ولكنها صارت تهدم يومياً حتى ضاعت عن النظر

وقال المسيو دي مايه أن احد رجال الانكشارية اشترى يوماً قطعة ارض متسعة لينشيء فيها حديقة وبينما كان يهدم ربية صغيرة في تلك الارض لمساواتها بارض الحديقة اكتشف تحتها خمسة اعمدة اثرية جميلة جداً كل عامود من حجر واحد . غير أن هذا الانكشاري كان يجهل قيمة هذه الاعمدة الثمينة فلما وجدها ثقيلة اخذ يكسرها ويبيع قطعها لاستعمالها في الطواحين مع انها اجمل واثمن الاعمدة المصرية التي اكتشفت الى الآن ورغماً عن تكسيرها وضياع رسومها الجميلة كان التجار الاوربا ويين يشترون القطعة منها بمائتي ريال وتمنى كثيرون من امراء اوربا أن يشتروا هذه باثمان عالية جداً لكي يتمكنوا من تصليحها واعادة نصبها ثانياً . وقال مايه انه بعد ذلك التزم جلالة الملك أن يعجل بشراء ونقل العامود العظيم الذي كان في الاسكندرية ويدعى عامود يومبي قبل أن يكون نصيبه ما حل بهذه الاعمدة الجميلة التي عبثت بها ايدي الاتراك المتبربرين

ومن تلاوة ما كتبه المسيو دي مايه يتضح أن الحكومة في ذلك الوقت ما كانت تسمح حتى لقنصل فرنسا الجنرال أن يتوجه برجاله الى اهرام الجيزه أو اهرام سقارة لمشاهدتها الا بكل صعوبة وكانت الطريقة لنيل الاذن بذلك هو أن يكتب اولاً القنصل اخطاراً لاحد البكوات المماليك

ليرسل له هذا عادة رجالاً من قبله لحراسة القنصل والمحافظة عليه من الاشرار . ولما زار المسيو دي مايه هذه الجهات يومئذ شاهد اثار حفر كثيرة جداً في الارض الواقعة بين سقارة والجيزة حفرها العامة من المصريين والعربان للعثور على الكنوز . على أن هؤلاء العامة كانوا يعدمون لسوء الحظ كل ما يجدونه من الاثار بخلاف الذهب الذي كان هو جل مبتغاهم من الحفر مع انهم كانوا يستخرجون اثاراً اثمن منه بكثير ولكن لجهلهم المطبق كانوا يعدمونها سريعاً . وقد شاهد اشياء كثيرة منقوشة بالكتابات والرسوم الهروغليفية البديعة ومومياات متنوعة كان المصريون يحضرونها امامه من سقارة الى القاهرة ويكسرونها على زعم انهم يجدون كنوزاً ذهبية مخبوءة في داخلها . وقد كتب جنابه بدقة واعتناء عظيمين بين الفرق بين المصريين والاتراك بالنسبة لاعتبار تلك الاثار في نظر الجنسين فقال أن المصريين وخصوصاً الاقباط كانوا يميلون جداً للمحافظة على الاثار القديمة ويعتبرون العبث بها انتهاكاً لحرمة تلك الاشياء النفيسة . وقد استعمل جنابه نفوذ مركزه الرسمي وتحصل ايضاً على مساعدات كبيرة من الاقباط في المحافظة على تلك الاثار وقد شهد للاقباط بانه كان في مقدرتهم انقاذها من ايدي المسلمين التي تعبث بها على الدوام. قال وقد اضطرت الظروف مرة احد الاقباط ان يبيع تمثالا قديماً كان موجوداً عند عائلته من نحو ثمانمائة سنة وكانت الظروف التي اضطرته للبيع قهرية جداً يتوقف عليها حفظ حياته من العدم ومع ذلك

فقد ظهر عليه عند المبيع من الحزن والندم مالا يوصف ومما دل على عفة نفس ذلك القبطي وشهامته فلذلك لم يجد من يتشكى من عمله هذا للحكومة التركية ولم يدفع لها شيئاً نظير هذا المبيع . وكان هذا التمثال عبارة عن امرأة رأسها وقدميها من صنف حجر المحك الاسود وجسمها موضوع على قاعدة جميلة من الحجر الاخضر القديم الممتزج باللون الابيض وكله مصنوع صنعاً متقناً في غاية الجمال ارتفاعه خمسة اقدام وخمسة قراريط . وصاحبه القبطي اليائس قد اقسم يميناً على الانجيل امام المسيو دي مايه بان هذا التمثال تحصل عليه احد اجداده حينما كان مستخدماً مع الحاكم الذي فتح احد اهرام الجيزة ووجده بداخله وكان هذا الحاكم (وهو غالباً الافضل امير الجيوش) قد امر بتكسيره في الحال ولكن سكرتيره القبطي الذي رأه يقرب من تمثال مريم العذراء وعلم انه من صنع اسلافه تضرع الى مولاه المسلم بان يعطيه اياه نظير جعل من المال يدفعه فداء عنه فسمح له باخذه ودفع فديته مائة مجر (١) من ذهب واخذه في منزله وبقي فيه من ذاك الحين يتوارثه الاولاد والاحفاد ويتحفظ به الابن بعد الوالد كتركة عزيزة مكرمة حتى وصل الى ذلك اليائس الذي قضت عليه الظروف بمبيعه بعد أن اصبح وجود هذا التمثال عنده مهدداً لحياته وحياة عائلته فاشتراه منه ذلك الوزير الاجنبي كما ذكر

ويتضح من كتابة المسيو دي مايه انه كان يوجد في ذلك العهد

(١) المجر كان في ذلك الحين يساوي خمسة واربعين غرشاً صاغاً مصرياً

بالبلاد المصرية شيء كثير من النواويس والنوايت المنحوتة من حجر الجرانيت او الرخام الجميل وعليها كثير من الكتابة الهيروغليفية المتقنة وكان كل تابوت عبارة عن قطعة واحدة محكمة الصنع وعدد كبير منها مطروح في طرقات واحياء القاهرة المختلفة عرضة للمارة وبعضها مستعمل بصفة احواض للماء في الطرق العمومية ومنها تابوت جميل استعمل اولاً بصفة حوض عمومي وسمي (بحوض العاشقين) واخر استعمل بصفة مسقى للخيل في منزل احد الضباط الانكشارية

وقد تكلم المسيو دي مايه بالايضاح التام عن انواع الاثمار والفاكهة التي كانت توجد بمصر في ذلك الوقت فاذا هي مثل ما يوجد منها في هذه الايام تماماً ما عدا قصب السكر فانه لم يذكر عنه شيئاً وقد قال مؤكداً أن النخله الجيدة كانت تعطي محصولا لصاحبها يوازي قيمة عشرة ليرات انكليزية . ثم تكلم عن الحيوانات المختلفة التي كانت توجد ايضاً في البلاد المصرية فقال أن القط كان لم يزل محبوباً جداً عند المصريين ووصف القط المصري بان يستحق المحبة مع انه لا يحب القطط . واثبت أن القطط المصرية في سنة ١٧٠٠ لم تكن تمتاز فقط بمهارتها العظيمة في صيد الجرذان ولكن كان لها شكل جميل المنظر جداً لان شعرها كان مخططاً ومرقطاً كالنمور وما كان يخلو وجودها من اقتناص (رسلان خانه الملوكي) أي محل الوحوش الذي يشبه حديقة الحيوانات في هذه الايام . ومن المضحكات قوله (أن تلك القطط كانت لم تزل تقيم في المساكن والمستشفيات لاجل

صيد الجرذان) . وكان التمساح يوجد بكثرة بالقرب من الجيزه ولكن يندر وجوده في الدلتا وقد قتل احد الاهالي قبل مجيئه الى مصر ببضع سنوات حيواناً بحرياً عند دمياط من الحيوانات المعروفة بجاموسة البحر

امضي المسيو دي مايه زمناً ليس بالقصير يفكر في مشروع ايصال البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر الذي تم بعد ذلك بواسطة انشاء قناة السوس . وقد ظهر له سهولة انفاذ هذا المشروع العظيم ولكنه افتكر بان النفقات تزيد عن المنفعة بكثير فعدل عنه . وقد بحث ايضا عن التجارة المصريه الاجنبية وقال انها محيت بالمره من سوء ادارة الاتراك ولم تجد في البلاد تجارة تذكر الا تجارة الرقيق التي كانت لها الحظ الاوفر في الرواج والانتشار حيث كانت تركيا وبعض البلاد الاوربية ايضا تاخذ اللازم لها من العبيد بواسطة البلاد المصريه حتى نشأ عن ذلك صيرورة السودان خرابا بلقعا خاليا من السكان واصبحت قفارا بعد ما كانت عامرة بالحرث والغرس وكان العربان يصطادون السكان باساليب شتى ويأتون بها للبيع في الاسواق المصرية وكانت كل وسائط النقل محصورة في الابل . قال وكان الاتراك يجلبون الى مصر اشخاصا كثيرين من الرقيق الابيض الاوروباوي يأتي به التجار من الاقاليم التركيه . واقل ثمن كانت تباع به الرأس الواحدة من الرقيق الابيض ثمانمائة ريال فاكثر ورأى المسيو دي مايه بنفسه بنات صغيرة تباع الواحدة منهن بسعر ثمانماية وتسعماية جنيه انكليزي وكان الطلب كثيراً في مصر على الاولاد الجميلة التي

يتشرب بياض وجههم بالحمار ليربيهم الحكام المسلمين بصفة مماليك لهم وكان نادراً جداً جلب البنات والاولاد من الجنس التركي بل كان التجار يجلبونهم من اولاد المسيحيين ويدعون انهم اتراك فيشب هؤلاء الصبية على المباديء الاسلامية وقل ما كانوا يخجلون من الرق ولا يعدونه عاراً عند بلوغهم سن الرشد بل بالعكس كانوا يفتخرون بانهم اتوا البلاد عبيداً ارقاً فاصبحوا اشرافاً وسادة فيها بينما اولاد العرب الاحرار أو الاهالي المصريين الذين تحصر فيهم فقط بعض المعارف والعلوم الضرورية كانوا مهانين وينظر اليهم بعين الاحتقار ولو كانوا مسلمين

وكان الاقباط دائماً اقل جهلا واكثر معرفة من جميع انواع المصريين . ولكن المسيو دي مايه الكاثوليكي الشديد التعصب لمذهبه لم ينصفهم تماماً بوصف ما كانوا عليه من حسن الصفات وسعة الاختبار بل كان يعاكسهم في حريتهم الدينية ولا يبدي معهم اقل تساهل في شيء باعتبار انهم تابعون لكنيسة منشقة ومهرطقة في عرفه . وقد كتب يشكو بحدة وغل قائلا انه لا يوجد في كل الدنيا شعب عيد وصلب في خطائه وتمسكه بمبادئه القديمة مثل هولاء الاقباط المنشقين فان اعظم وامهر واحرق المبشرين الكاثوليك كانوا يشتغلون فيما بينهم سنين عديدة بلا فائدة ولا نتيجة تذكر !! ولكنه مع ذلك اعترف صريحاً بان الاقباط كانوا يستقبلون اولئك المبشرين بكل ادب ويحترمون غيرتهم وخدمتهم ويقابلون شفقتهم عليهم بالشكر والامتنان ومع ذلك كله

كان يستحيل بالمرة زحزحت اقل واحد منهم عن ترك مذهبه أو تغيير معتقده مطلقاً ولذلك تعزر على جميع المبشرين الكاثوليك جذب قبطي واحد للمذهب الكاثوليكي رغماً عما بذلوه في ذلك من المساعي الهائلة قال المسيو دي مابيه أن هولاء المسلمين المبشرين قصدوا مرة مباشرة توزيع صدقات على فقراء الاقباط حتى يستميلوهم الى سماع تعاليمهم فاوجدوا لهم محلا وجمعوا عدداً كبيراً من الفقراء والبائسين واخذوا يوزعون عليهم الصدقات ثم يباشرون الوعظ بينهم جباً في جذبهم الى المعتقد الكاثوليكي بلا نتيجة وتصادف تعيين رئيس جديد للارسالية الكاثوليكية بمصر فامر بمنع الصدقات عن هؤلاء الفقراء فامتنعوا عن المجيء لسماع الوعظ فلما ارسلوا يطلبونهم الى سماع الوعظ امتنعوا وقالوا (مفيش فلوس — مفيش كنيسة —) وبذلك لم يبق مع اولئك المبشرين الكاثوليك بصفة دائمة غير نفر قليل جداً ولم يعتنق مذهبهم غير الذين اخذوهم من والديهم وهم اطفال من اولاد الفقراء وربوهم من منذ نشأتهم على المذهب الكاثوليكي وبدون هذه الواسطة ما كان يمكنهم تحويل قبطي واحد عن معتقده الاصلي الارثذوكسي . ومن الغريب أن المسيو دي مابيه ورفقا في المعتقد لم يوجهوا فكرهم للطرق التي كان يمكنهم النجاح فيها من هذا القبيل لانهم لو فكروا في الاهتمام بالوعظ بين المسلمين كان يمكن لهم النجاح اكثر من نجاحهم مع الاقباط اخوانهم في الدين ! ومن المعلوم أن الغرض الحقيقي من ارسال الارساليات المشخية والرومانية الى مصر في هذه

الايام مبني على ايصال التعاليم المسيحية الى المسلمين للدين وليس لمعاكسة الاقباط في معتقدهم بصرف النظر عن أن مدارس هولاء المرسلين ملآنه من الاقباط أو المسيحيين المصريين وهولاء لايدخلونها الا بطريقة الترغيب التي تفوق كل الطرق واهمها التعليم المجاني . واما في عصر المسيو دي مابيه فان هذه طريقة ما كانت تؤثر على الاقباط ولا تحملهم مطلقاً على ترك كنيستهم الاصلية

وخلاصة ما يؤخذ من اقوال المسيو دي مابيه أن الارساليات الدينية قد جربت كل الوسائط في اغراء الاقباط على اعتناق المذهب الكاثوليكي وكلها ذهبت ادراج الرياح . واخيراً تأكد اصحابها انه لا توجد غير طريقة واحدة تمكنهم من النجاح في هذا العمل وهي انهم يتحايلون على اولاد الفقراء ويأخذونهم منذ طفوليتهم ويفصلونهم عن قومهم انفصالاً تاماً ويربونهم على مذهبهم وذكر المسيو دي مابيه أن بعضاً من هولاء الاطفال ارسلتهم احدي الارساليات وهم حديثي السن الى روميه فتعلموا هناك سنيناً طويلة وشقوا على المذهب الكاثوليكي ولكن عند عودتهم الى وطنهم ادركوا غلطهم وعادوا ثانية الى كنيستهم الارثوذكسية واستعملوا العلوم التي حصلوا عليها في رومية في تحسين حالتهم اللاهوتية وافادوا بها كنيستهم وقال ايضاً أن الاقباط علاوة على تعصبهم لمذهبهم فانهم يكرهونا حتى انهم يستعملون جملة في آخر شتائمهم أو سبابهم بقولهم في اخر الشتيمة (يا افرنجي) واذا تباحث معهم — في موضوع اعتقادهم

بوجود طبيعتين لسيدنا يسوع المسيح يستحيل عليك تفهيمهم الحقيقة . فان سألتهم قائلا ، اما كان سيدنا يسوع المسيح انسان تام ؟ ، يجيبونك ، نعم . . ومع كل ذلك لا يمكن لاي شيء في الوجود أن يغويهم ويغريهم على الاعتقاد بوجود طبيعتين للرب يسوع

وقد اظهر هذا القنصل تألماً كثيراً من عدم سهولة الحصول على الاطفال الاقباط منذ ولادتهم حتى يمكن تربيتهم على المعتقد الكاثوليكي فقال ولو أن هولاء الاقباط على العموم بؤساء وفقراء ومضغوط عليهم ومضطهدين من الحكام المسلمين لاجل دينهم ومع ذلك يستحيل اغواؤهم على التفريط في اولادهم ثم قال انه في سنة ١٦٩٩ مسيحية وصلني امر من جلالة امبراطور فرنسا بانتخاب ثلاثة من اولاد الاقباط وارسالهم حالاً الى فرنسا لكي يتعلموا فيها وشددت عليّ حكومة جلالة الامبراطور بضرورة انتخاب هؤلاء الاولاد من العائلات الطيبة وشرح بعد ذلك الطرق التي بذلها في طلب تنفيذ هذا الامر والحصول على الاولاد المطلوبين وكيف وسط في ذلك جميع الدوائر الرسمية واصحاب المقامات العالية وانتهى بقوله انه قد استحال على اغراء اقل قبطي من عائلة طيبة على التفريط في ابنه لهذا الامر النافع لمستقبله وبعد الجهد الشديد والسعي المتواصل بضع سنوات لم يمكنه الحصول على ولد واحد من عائلة بائسة ومن افقر الناس وكانت نتيجة تلك المساعي فراغ كل مدارس المرسلين من اولاد الاقباط حتى أن الذين في فقر مدقع منهم انقطعوا عن المجيء لاخذ الصدقات

والاحسانات كالعادة خشية من اخذ اولادهم بغير رضائهم وهكذا الذين كانوا يتضورون جوعاً تنحوا بالمرة عن التردد على المرسلين لهذا الامر عينه وختم المسيو دي مايه كلامه في هذا الموضوع باستغرابه الكامل من هذا الرفض قائلا انه بموجب هذه الحقائق نعرف كيف تؤكد لبابا رومية عدم صحة القول الذي قيل له بكل جرأة وعلى غير صحة أن بطريرك الاقباط سمح للمرسلين الايطاليين باخذ اولاد من الاقباط لتعليمهم في رومية

وكان البطريرك القبطي في المدة التي مكثها المسيو دي مايه في مصر الانبا يوحنا السادس عشر ومن الواضح انه لم يعترف باعمال ووجود المرسلين الاطاليين في مصر بل كان يفرض عدم وجودهم بالمرة في البلاد كما كانوا لا يعترفون به ايضا (١) . ويقول المسيو دي مايه انه عقد مخابرة رسمية بينه وبين البطريرك يوحنا بشأن المعمودية التي ادهش امرها ذلك لوكيل السياسي الفرنساوي واشار في مخابرته بضرورة تأجيل عماد الطفل

(١) يوحنا السادس عشر الملقب بيوحنا الطوخي هو الذي اعاد استعمال الرسامة والتدشين بزيت الميرون المقدس الذي كان قد بطل استعماله من مدة ٣٠٠ سنة . ويقول نيبل المؤرخ اعتماداً على تقرير برناتي الى سوكريوس ان هذا البطريرك هو الذي اصدر امرا بان اولاد الاقباط يلزم عمادهم في اليوم الثامن من ولادتهم بدل اليوم الاربعين . ولكن ذلك يخالف ما كتبه دي مايه عن هذا الموضوع بعد أن قابل البطريرك بنفسه وتباحث معه عنه

حتى تشفى والدته من النفاس وتستطيع حضور الاحتفال بتعميده في الكنيسة . وقد كان من النادر أن يمارس امر العماد مرتين في السنة كالقاعده القديمة اذ كان يحتفل بالعماد احتفالات عظيمة جداً في كل الكنائس.. ولم يبال البطريرك بغيظ وغضب قنصل جنرال فرنسا بل دافع عن عوائد كنيسته وكتب له صريحاً بايضاح يقول « اعتقد أن هذا الطقس الديني لا يمارس بالاعتبار والتقديس التام في الكنيسة الرومانية لانه لا يوافق الطريقة الجارية بين الكاثوليك الرومانيين الذين يمارسون العماد في المنازل الخصوصية عوضاً عن الكنائس » غير أن هذا السفير الفرنساوي اظهر ذات الحقد والغضب في قوله من أن الختان ايضاً قاعدة عامة عند الاقباط ثم تكلم عن عوائد الاحتفالات الغريبة عند الاقباط وهي التي لم يكن لها ذكر في تواريخ اخرى غير تاريخه فقال توجد في اقليم البهنسا الكائن على مسيرة يومين من القاهرة قرية يسميها العرب هناك بير الجرنوس (أو ابار النبوة) وللاقباط في ذلك المكان بئر مقدسة ومن تلك البئر يستطيعون أن يتنبأوا بعلو فيضان النيل سنوياً انه ذلك في ليلة معلومة من كل سنة يجتمع حولها كثير من الاقباط ويقيمون سرادقا عظيما فوق هذه البئر ثم يأتي شيخ القرية اوحاكمها وحوله خلق لا يحصى لهم عدد ويساعد في اقامة معالم الاحتفال ثم يؤتى بحبل قطني متقن الصنع معقود في نقط متوازية منه خيط ابيض وازرق ثم يدلونه في البئر حتى يمس طرفه الماء وبعده توضع مائدة على فوهة البئر يقيم عليها الاسقف

قداسا حبريا عظيماً ثم ترفع المائدة من فوق البئر ويفحص الحبل المدلى فيها فمقدار ارتفاع الماء الذي غطى الحبل يعتقدون تماماً انه هو مقدار منسوب ارتفاع النيل في تلك السنة اي انه اذا كان ماء البئر غطى مقدار ١٦ ذراعاً من طول الحبل فان ارتفاع النيل يكون ١٦ ذراعاً الخ

وبالرغم عن تحامل المسيو دي مايه على الاقباط واجحافه بهم لم يستطع أن يخفي اعجابه الظيم بمهارتهم في الاشغال . وقال ان من بين اديرتهم التي لا تحص يوجد دير يبعد عن القاهرة مسافة سبعة أو ثمانية اميال داخله ثلاث كنائس قديمة مبنية الواحدة امام الاخرى وبها ترميمات جميلة جداً حتى أن الناظر اليها لا يعتقد الا انها كنائس جديدة [1] والرهبان في تلك الكنائس يرتلون مزامير داوود النبي ليلاً ونهاراً دون انقطاع ولكن الذي يستحق الاعجاب هو نقطة تبعد عن ذلك الدير بمسافة قصيرة في الجبل على مقربة من خرائب صومعة قديمة هناك . وتلك النقطة هي منتزه من اجمل وازهى المتنزهات في العالم اجمع كما وان هناك مغارة منحوتة يميناً داخل الجبل عمقها من عشرين الى ثلاثين قدماً وعرضها اكثر من ٢٠٠ خطوه والخطوة خمسة اقدام وطولها من الغرب الى الشرق يزيد عن ثلثمائة خطوة وهذه المغارة العظيمة المنحوتة في وسط الصخر الصلب بلا اعمدة ترفع سقفها ويرى داخلها مشاهد البحر الاحمر

(١) يقول المسيو دي مايه انه راى هذه الكنائس بنفسه ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها انه لم يبارح جنوب سقاره

ويمكن لما آتي راهب أن يمشوا معاً داخلها بسهولة وفي اشد ايام قيظ الصيف الشديد يكون الهواء داخل هذا الدهليز العظيم بارداً لطيفاً ومستجباً جداً

وقد حدثت مشاغبات في عهد هذا البطريرك ببلاد الحبشة اوجدها المرسلون الكاثوليك هناك واضطرت البطريرك أن يرسم مطرانين لتلك البلاد لان اولئك الرومانيين الكاثوليك قد اوجدوا بمساعيهم الفاسدة متاعب عظيمة وقلاقل جمة بين الشعب والامبراطور ليقيموا حرباً اهلية غير انه ما جاءت سنة ١٦٨٠ حتى كان للاقباط ثلاثة مطارنة في الحبشة اولهم الاب خرستودوس وقد شاحه ملك الحبشة بسبب كاهن يدعى شنوده وثانيهم الانبشنوده الذي لم تكن قد تمت رسامته اصولياً في مصر وهذا قد شاع اطاعة لمطالب الاب مرقص الذي لم يكن تحصل على رسامة رسمية من مصر حتى سنة ١٦٩٢ مسيحية . اما فرنسا فارسلت ثلاثة وفود الى الديار الحبشية لينصبوا شباك المكائد ضد الكنيسة الوطنية الحبشية في ايام البطريرك المذكور الذي توفى سنة ١٧١٨ وكانت الارسالية الاخيرة في سنة ١٧٠٦ بعد أن حرض الملك لويس التاسع عشر اليسوعيين على ارسال طبيب يدعي دي رول الى تلك البلاد بطريق السودان ليدرس الطريق التي ينوون اختراقها في سيرهم اليها . فلما وصل دي رول [1] الى السودان اسره السودانيون ثلاثة

(١) من مطالعة كتاب امبراطور الحبشة الآتي يعلم بالتفصيل ما تم من امر

ثم قتلوه امام ملك سنار الصغير الحقير الذي يظهر انه كان ذو سيادة ونفوذ غير ثابت على ممالك السودان الجنوبية لان الممالك السودانية الشمالية كانت قد خربت من مدة وتسلط عليها عدد كثير من زعماء المسلمين واغلبهم من العرب تجار الرقيق الذين اوجدوا مظالم وفظائع في هذه المملكة

الطبيب دي رول فانه عند قدومه الى سنار حجز بها ثم أرسل رسولا لتحقيق ارادة الامبراطور في أمر هذا الطبيب وقد وصل دي رول تعليمات سرية من مقتضاها أنه اذا كان قادماً بصفة سائح للاعمال الخيرية فلا بأس من السماح له بدخول الحبشة . وأما اذا كان من اليسوعيين فلا بد من منعه المجيء الى الحبشة بكل الوسائط الممكنة مهما كانت الحالة . والكتاب الآتي مأخوذ من مجموعة المسيو دي ساسي العربية : —

من السلطان تكلا هيمانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف سجويد . كتب هذا المكتوب الملك الكلي الاحترام والامبراطور الكلي العظمة والجلال سيد الشعوب . ظل العناية الالهية بين رجاله . الكلي المجد والعزة بين الملوك والسلاطين الذي يؤمن ويعترف بديانة يسوع . الكلي القوة والجبروت بين الملوك المسيحيين . حامي حمى الايمان الذي تحت حمايته حدود الاسكندرية الذي جعل أساس العدل متساوياً بين المسلمين والنصارى . الذي من نسل داوود النبي وابنه الملك سليمان ملك اسرائيل الذي عليه وضع الرب الاله طريق الخلاص . السلطان تكلا هيمانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف سجويد . فليدم شخصه مقدساً الى الابد . وتدم مملكته السامية محفوظة في العز والعظمة الى الى الابد . وليدم رجالها وجيشها الذي لا يقهر امين

الى رفيع المقام عظيم الاحترام العالم السامي المسيو دي رول الفرنسي —

وقد اعتنق ملك سنار الديانة الاسلامية . بالرغم عن ذلك قد بقيت جماعات كثيرة من المسيحيين منتشرة في كل ارجاء السودان ولها عدة كنائس أيضاً ونفوذها الاسمي يومئذ كان متصلاً تقريباً الى حدود مصر الجنوبيه كما يتضح لك ذلك من الحادثة الاتية :— . عندما قتل الدكتور دي رول المتقدم ذكره قد اصدر المسيو دي مايبه فرماناً رسمياً في القاهرة يأمر كل الرعايا الفرنساويين النازلين في الديار المصرية أن يطردوا كل بربري أو أي رجل آخر في خدمتهم يكون من رعايا ملك سنار وان يطردوهم من بيوتهم في ظرف ثلاثة ايام وان لا يستخدموا مثل

السوري الاتي الينا في قلبنا كما يأتي بشخصه فليحفظه الله من كل عارض ويرفعه لاعلى الدرجات امين . أما بعد فان ترجمانك المدعو الياس الذي ارسلته الينا قد وصل الى بلاطنا وكان وصوله موافقاً لدينا وسمحنا له بالدخول امامنا . وقد علمنا منه انك مرسل لنا من قبل أخينا ملك فرنسا وانك حجزت في سنار . فبناء على ذلك اني اكتب الان الى السلطان بادي الذكر كي لا يحجز عليك ويسمح لك بالمجيء الى هنا . وان لا يهينك بل يعاملك بالشرف والاحترام وان لا يزعجك ولا يتعبك بل يعاملك بالحسنى والاعتبار انت وجميع من معك لانه يوجد مشابهة بينك وبيننا في الدين والايمان مثل رسولك الياس السوري . جميع الحاضرين معك بصفتهم سفراء أو تجار من قبل أخينا ملك فرنسا أو نائبه في مدينة القاهرة هكذا شددت على سلطان سنار أن يعامل كل الذين برفقتك المتحدين معنا في ذات المذهب والعقيدة وبذات النواميس وبذات الايمان . لاننا نحب الدخول في عقود الصداقة والاتحاد وفي مباحثة المباحثة مع الجميع وفقط تجنب الذين

هؤلاء القوم عندهم ومن يخالف هذا الامر يصير الزامه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثماية جنيه . وكان البرابرة في تلك الايام كما في ايامنا هذه يعتبرون أحسن الناس موافقة للخدمة المنزلية في بلاد مصر ولذلك وقع ضرر ذلك الامر الصارم الذي اصدره المسيو دي مايبه على رعايا ملك فرنسا وليس على رعايا ملك سنار ولكن ظل أمر المسيو دي مايبه هذا معمولا به في مصر ومتبعاً بين الفرنساويين فيها مدة ماية سنة

وقد وصف المسيو دي مايبه بالتطويل الظروف التي اوجبت ارتداد ثم استشهاد الاب كليمنت ركوليه القس القنصلي الفرنساوي في القاهرة والامر الذي اثر تأثيراً عظيما على الناس وقتئذ . فقال ان ابناء جلدته اتهموه بسوء التصرف في الاموال المخصصة للاعمال الخيرية والصدقات فالتزم ان يهرب ويلتجيء لقوة الحكومة التركية في القلعة ثم ابلغ

يعترفون بعقيدة ويتبعون ناموساً ضد ناموسنا وعقيدتنا مثل يوسف (١) ومن في معيته الذين طردناهم حالا من البلاد عند مجيئهم لاننا لا نحب دخول مثل هؤلاء القوم في بلادنا ولا نسمح لهم يتعدون حدود سنار كي لا يتمكنون من ايجاد النزاع والفوضى بيننا . أما عنك فقد سمحنا لك بالقدوم الينا ونؤكد لك بهذا انك سترى ترحيباً واستقبالا عظيما فكن اذن في طمان ولا تخف والعبارة الاتية مكتوبة في ذيل الكتاب عند الامضاء: — يسوع ابن مريم — آدم سجويد ابن علاف سجويد من نسل سليمان ابن داوود ملك اسرائيل

( ) يقصد بذلك المرسل اليسوعي الاب يوسف برندنت الذى كان ارسل للحبشة لتغيير عقدة أهلها وقتل قبل وصوله غندار عاصمتها

الحكام عزمه على اعتناق الديانة الاسلامية وكان ذلك في ٢٣ ابريل سنة ١٧٠٣ . فكتب المسيو دي مايه جواباً لذلك الاب شديد اللهجة ينصحه فيه بالرجوع الى صوابه ويرجوه العودة الى حضن السفارة الفرنساوية وأكد له انه سيعاقب الذين سبوه واتهموه وافتروا عليه واستحلفه بكل عزيز ومقدس عنده ان يرجع قبل ان ينتهز المسلمون فرصتهم ويحتفلوا باسلامه . وقال له يمكنك ان تعتذر بانك كنت سكراناً في طلبك الاسلام وانك ما كنت تعي ما تقول واقترح عليه انه يمكنه ايضا ان يتداخل في تخليصه من ايديهم اذا تمسك بذلك العذر

فرد عليه القسيس جواباً وجيزاً غير مقنع . ومع ذلك في يوم ٢٥ ابريل سنة ١٧٠٣ احضروه امام الباشا الوالي الذي سأله اذا اراد أن يكون كما كان نصرانياً . ولكن المسلمون ما كانوا يسمحون لمثله أن يرجع عن عزمه فامسكوه في ٢٨ منه وختنوه بالقوة واوجدوه في غرف مفروشة بالرياش الفاخرة وعينوا العبيد لخدمته وخدمته واكدوا له انهم سيزوجونه باجمل النساء طراً ولكنه لم يقبل ذلك ولما رأوه أنه القى بالعمامة التي اتوا بها اليه على الارض بكل عنف وظل مصمما على عدم اسلامه اخذوه وضربوه ضرباً مبرحاً حتى صار اقرب الى الموت منه الى الحياة ثم طرحوه في السجن . فاجتهد المسيو دي مايه غاية جهده في انقاذه من ايدي المسلمين ولم يفلح وفي يوم ٨ مايو وصله جواب من ذلك القسيس يرجوه فيه أن يتركه حتى يكفر عن غلطته بالاستشهاد . وقد اقترح احد كبار

المسلمين المتعصبين وجوب تقطيع ذلك القسيس اربا اربا . وان يفصل أعضاء جسمه مثل يده أو ارجله في ظرف ربع ساعة عن جسده وهكذا يعذب حتى يموت . ولكن الاوروباويين كانت قد قويت شوكتهم في البلاد واصبحوا لا يسمحون لاحد أن يعمل مثل هذا الصنيع مع احد ابناء جنسهم . ولو لم يكن الباشا يخاف قيام اوباش المسلمين عليه لكان عفى عن موته . على انهم قطعوا راس هذا الاب يوم ١٧ مايو سنة ١٧٠٣ وسلموا جثته الى المسيو دي مايه السفير الفرنساي فدفنها باحترام في مقبرة الخندق . ويقول المسيو دى مايه انه لهذه المناسبة وصلته تعزيات حاره واشترك معه في الحزن كل رجال الكنيسة اليونانية والقبطية وامرت الكنيستين شعبيهما بالصوم ثلاثة ايام تكريما لذلك الشهيد

وكانت علاقة المسيو دي مايه مع الاتراك اكثر وداداً وصداقة مما كانت مع الاقباط . ولكنه لم يستطع أن يخفي اعتقاده من أن الاتراك هم الذين عليهم وحدهم تقع مسئولية خراب وشقأ البلاد . فانهم من الباشا الوالي فما دونه الى اصغر موظف في خدمة الحكومة لا يهمهم الا جمع الثروة والاموال باية طريقة كانت على حساب الحكومة سواء خربت البلاد أو عمرت . ولا يراعون في ذلك حقاً او عدلاً أو امانة أو رحمة . ولم يكن يسمح الباب العالي في الاستانة لوالي مصر أن يقيم فيها اكثر من سنة مالم يقدم رشوة عظيمة للسلطان وكثيرون من الولاة افلحوا في مسعاهم بهذه الطريقة وتمتعوا ببقائهم ولاة على مصر اربعة سنوات . وكان الوالي يجتهد أن يجمع لنفسه

من الثروة اكثر من الجزية السنوية التي تدفع للسلطان . ويقول المسيو دي مايه بسباطه : وعلاوة على كل ذلك فانه اذ تفشى وبأفي البلاد مدة السنة التي يكون الوالي حاكما فيها . ففي بحر الثلاثة أو الاربعة اشهر التي يبقاها عادة الطاعون في البلاد يكون الباشا قدجمع في اثنائها ثروة عظيمة . فاذا اتفق ومات جابي اموال الحكرمة في احدى البلاد يبيع الباشا وظيفته لمن يقدم رشوة اكثر من غيره حتى انه في غالب الاحيان كانت تباع هذه الوظيفة في ظرف اسبوع لثلاثة أو اربعة من الطالبين بالنسبة لسرعة وفاة الذين يشترونها بالتعاقب بسبب تفشي الطاعون

ويقول المسيو دي مايه أيضاً ان الخمس القوات التي دون الوالي (سناجق) (القوة الحربية العظيمة) كانوا دائماً يفترسون الشعب ويمتصون دماءه . ولم يكن وقتئذ يوجد أي واحد من الاهالي له ثروة خصوصية ولو فرضنا ووجد احد له ثروة قليلة كان يتعين عليه أن يستعد للدفاع عنها سجقا وبخلاف ذلك لا يمكنه حماية عمله واشغاله وثروته الخصوصية بدون أن يضع نفسه تحت حماية اصحاب هؤلاء القوات الخمسة الذين كانوا يلقبون بالتسلسل هكذا : الاغوات المصطفين . والمساف . والسباهي . والباشجاويش . والانكشاريه . واذا اتفق أن احداً من الاهالي استأنف شكواه لمن اختاره من هؤلاء القوات من حادث وقع معه أو سرقة حصلت له فكان لا ينال هذه الا بثمن غال فان ذلك المظلم لا يكتفي بثمن الخسارة الاولى بل يطلب منه أموالاً أخرى بحجة صرفها في تحقيق قضيته الجديدة ومعاقبة عدوه . وعلاوة على

ذلك فاذا مات ذلك المسكين المحتمي بعظمة ذلك العاتي فيكون لحاميه الحق في وضع يده على كل متروكاته من مال وعقار ولا يترك لارملته وايتامه الا جزءاً قليلا من تركته . وكان لهؤلاء الطغاة حيلاً كثيرة يسلبون بها أموالا من الفرنساويين نظير تجاهلهم بالعلاقات التي كانت توجد بينهم وبين بعض النساء الوطنيات كما يقول المسيو دي مايه

ولكن عملهم هذا أصبح عبئاً ثقيلا على الفرنساويين حتى ان أصحاب المصارف المالية منهم هجر كل علاقة مع النساء . ولم يكن يوجد موظفاً تركياً من اكبر الى اصغر واحد يقبل صرف اقل شيء من ثروته التي جمعها بطرق غير محللة على ما يرقي البلاد المصرية ويزيد في اتساع نطاق تجارتها واشغالها العمومية . مع انهم كانوا يرسلون سنوياً مبالغ عظيمة لمدينة مكة وللسلطان في القسطنطينية . ولذا فان الاراضي كانت تقل مساحة المزروع منها سنويا . أما تطهير الترع ومجاري الميل فكانت مهجورة وان كانت ترمم فلا يرممونها الا بالسخرة القهرية واعمال الطرق والشوارع الخ فكانت شيئا غير معروف بالمرة والخمسة قوات المذكورة كانت تعيش من سلب ونهب الاهالي . ومع كل مظالمهم فما كانوا يحامون عن المصريين اذا هجم عليهم العرب البدو وداروا فيهم سلباً ونهباً وكان اكبر العلماء ورؤساء الدين من المسلمين معرضين ايضا كغيرهم لهذه التعديات الظالمة . وفي سنة ١٧٠٩ مسيحية وقعت حادثة عظيمة جرت فيها الدماء انهارا مدة يومين داخل الجامع الازهر لاختلاف الاراء في من يليق تعيينه لوظيفة شيخ لذلك

الجامع وكان كل من الطرفين المتخاصمين يحمل البنادق والاسلحة وكسروا أبواب وقناديل الجامع قطعاً صغيرة وجرح وقتل كثير من الطلبة وفي آخر اليوم الثاني أحضر محافظ القاهرة قوة عسكرية طردت العصبتين المتحاربتين واخرج جثث الموتى من الجامع ونفى أحد الشيوخ الذي اتضح انه زعيم الثورة وسجن ايضا اثنى عشر شخصاً الذين كان لهم اليد في اقامة ذلك الحرب داخل الجامع

الفصل التاسع والستون

استبداد البكوات المماليك

نشبت الحرب اظفارها في سنة ١٧٩٠ بين الدولة العلية وروسيا فصدرت ارادة سلطانية بسحب الجنود التركية من مصر وترك نحو ثلاثة الاف منهم لتائيد الاحتلال التركي بهذه العساكر التي كانت مكروهة جداً عند المصريين . وقد نشاء عن سفر اكثر هذه الجنود ازدياد عصابات السلب والنهب في القاهرة وضواحيها وزيادة الشغب بين الاهالي وتمردهم على الحكومة وخاصة بالظر لفساد الاحكام ومظالم الحكام حتى نشبت في البلاد حرب اهلية من نفسها السنة التالية . فنزع حاكم الصعيد بجيوشه الى القاهرة ليشترك في هذة الحرب . ووقعت معركه هائله بينه وبين الثائرين

في الفضاء الكائن بين القلعه وجامع السلطان حسن وتحول هذا الجامع الى طابيه وحصن تحصيناً منيعاً . وتحول أيضاً جامعا طولون والمؤيد الى حصون . ومما يؤسف عليه أن اعظم واشهر الجوامع في القاهرة تحولت في تلك الايام السوداء الى معاقل وحصون للحروب والكفاح بدل جعلها اماكن عباده وصلاح

غير أن حاكم الصعيد لم يفلح في قمع الثورة فدارت الدائرة عليه فهزمت جيوشه وجيوش الباشا الوالي الذى كان امراء القاهرة يريدون خلعه وقد لعبوا بمصالح البلاد يومئذ الاعيباً كثيرة محزنة . فمن ذلك انهم اطلقوا النار على منازل باقي الامراء خصومهم فامتد لهيبها الى منازل السكان المسالمين ودكاكينهم وهكذا احرقوا جزءاً عظيماً من القاهرة وباقي المنازل التى سلمت من الحريق نهبها وسلبها عساكر امراء . فصار كل من السكان يجتهد في الهرب من المدينة بحياته فتركت مرسحاً للشقاء اياماً كثيرة لعبت فيها ايدي الجند . والذين تجلدوا وبقوا في المدينة بقصد حماية ممتلكاتهم سقطوا في مخالب اعداء اخرين قاهرين جبارين هم العربان البدو الذين استدعاهم الامراء الفقاريون لاعادة سلطتهم حيث انتشر هولاء البدو في انحاء المدينة وصاروا يسرقون كل ماتصل اليه ايديهم ويقطعون مجاري المياه عن السكان حتى صيروهم على وشك الموت من شدة الظماء

ومع استدعاء البدو الى داخلية البلاد لم يبطل النزاع والخصام من بين الاهالي والامراء في القاهرة فقط كما ولم يمكن صد غارات البدو عن

سلب أي بلد يمرون عليها فقد نهبوا مدناً كثيرة وسلبوا جميع ممتلكات اهلها خصوصاً مدينة اخميم فانهم اوصلوها للخراب التام وقتلوا معظم سكانها . وقد كانت كل مدينة مسيحية تقريباً معرضة للخراب اكثر من غيرها وهذا هو السبب في قتل اكثر سكان اخميم وخراب غيرها من المدن الاخرى التي كانت مأهولة بالاقباط بهذا الشكل المريع . وفي اواخر ايام الفتنة وقعت معركة حربية كبرى قرب قصر النيل قتل فيها الامير عواظ (١) رئيس حزب الامرأ القاسميين . وكيفية قتله أن حاكم الصعيد الذي كان يقود الجيوش لمحاربة الامراء وضع مكمنا خلف دعامة قنطرة القناة الكبرى ثم تظاهر بالانهزام والهروب من امام عساكر الامراء فتبعته فخرج الكمين من محله واسخن فيها قتلا وضرب حاكم الصعيد قوسا على عواظ بك فخر في الحال قتيلا . فانتخب حزب القاسميين ابنه اسماعيل رئيسا عليهم في الحال وكان صبيا في السادسة عشرة من عمره ومشهوراً بجماله وشجاعته . وعندئذ عقدوا هدنه مع حاكم الصعيد لمدة ثلاثة ايام . وبعدها عادت الخصومات فتجددت بين الامراء بدرجة اشد من الاولى ودامت كذلك الى أن تبدد شمل حزب الامراء القفاريه وتلاشت قواهم بالكلية واصبح الشاب اسماعيل ابن عواظ سيد البلاد

١ صحة هذا الاسم وهجائته عواض ولكن اصبح يلفظ عواظ اخذا عن اللغة التركية وقد ترجمه احد المترجمين السوريين لاحد الانكليز هوارد فغير معناه

المصرية والمتصرف فيها بامره . ثم عينت الدولة العلية والياً جديداً من قبلها على مصر ، اصبحت العادة يومئذ أن تعيين الولاة من القسطنطينية يتم مرة في كل ثلاث عشرة سنة وكان تعيينهم رسمياً فقط بينما كانت اعمال البلاد في يد اسماعيل بك حاكمها الفعلي . وقد عين اسماعيل بك المشار اليه جميع اصحابه حكاماً على اقاليم مختلفة واعطاهم الوظائف العليا في القاهرة واتبع العدل ولكنه كان قاسيا مع الرعايا على السواء وطهر ضواحي المدن والبلدان من البدو الضاربين حولها . ولم يشعر مصر بو ذلك الحين بزمن ساد فيه الامن والطمأنينه كعصر اسماعيل بك . ومع كل ذلك ما كانت يده القوية وسلطته النافذة تساعدانه على تمكين السيدات المخدرات من السير في الطريق بدون حرس قوي حولهن . وقبل قتل اسماعيل بك بسنة خرج جماعة منهن في يوم شم النسيم كالعادة للنزهة في ضواحي العاصمة راكبات حميراً فقبل وصولهن الى كبري شبرا احتاط بهن جماعة من المماليك وهم بحالة سكر وعربده وسلبوهن حليهن بعد تمزيق ثيابهن . وقد وقع كل ذلك على مرأى من الضابط المعين للمحافظة على الامن في تلك الجهة ولكنه بقي ساكناً حتى جردهن هولاء المماليك القساة من جميع ملابسهن ولم يتركوا لهن ما يستترن به عورتهن ثم جاء اليهن هذا الضابط مظهراً استعداده لحراستهن من كل تعد مع انهن كن في حالة لا تطاق من الضيق والخجل حتى انهن بقين مدة يتوسلن للمارة لاعطائهن ولو قطع خرق بالية تستر عورتهن حتى يرجعن الى منازلهن . فتامل ؟؟

ومن التحقيق الذي صار في هذه المسئلة اتضح أن اولئك السيدات لم يكنّ يهوديات ولا مسيحيات كما كان يتصور الناهبون بل اتضح انهن من العائلات الشريفة وزوجات لرجال من الطبقة العليا من المسلمين. قال المؤرخ تفصيلاً لهذه الحادثة. انه لما ذهبت السيدات المشار اليهن ثاني يوم الحادثة لرفع مظلمتهن للباشا الوالي وطلبن منه رد ما فقدنه من مجوهرات والماس وغيره بمقتضى كشف قدم له منهن استحضر الباشا الضابط وعسكريين من رجاله الذين كانوا في نقطة الحادثة وهددهما بالعذاب البدني أن لم يعترفا صريحا بما تم. خوفا من العقاب الصارم اقرا بجميع ما حصل بالتمام. وقالا دفاعا عن انفسيهما أن اشتراكهما في الجريمة كان من قبيل الطاعة لضابطهما والرضوخ لاوامره العسكرية وعززا اقوالهما بان اهالي الناحية كانوا شاهدين السلب ولم يجسر احدهم على المداخلة ولكنهم لما عرفوا أن السيدات من الطبقات العليا اظهروا استعدادهم للشهادة. فقبل الباشا عذر العسكريين بعد اعترافهما بالحقيقة وسامحهما اما رئيسهما الضابط فنفاه الى ابو قير بعد أن استقطع جزءاً عظيما من راتبه بصفة عقاب له.

على اثر هذه الحادثة اصدر الباشا الوالي منشوراً اذاعه في جميع انحاء المدينة بمعاقبة كل من يتعدى على النساء اللواتي يسرن في الطرق العمومية وحدهن عقابا صارما وحذر النساء كذلك من الخروج الى خارج بوابات المدينة ومنعهن ايضا من ركوب الحمير (كذا)

وقد بذل اسماعيل بك قصاري جهده في وضع حد لعصابات السلب

والتلصص التي كان ياتيها اتباع الرؤساء العسكريين وكثيراً ما كان يرد الاشياء المسروقة والمنهوبة الى اصحابها بعد استخلاصها منهم

وفي شهر رمضان كان يدع باب منزله مفتوحا بعد غروب الشمس لكل من يريد دخوله لتناول طعام الافطار فيه ابتغاء مرضاة الله. وكان بدهش الناس بشجاعته في ترك القاهرة وذهابه لزيارة اصحابه ذوي الوظائف المختلفة في الاقاليم. مع أنه لم يكن أي امير قبله يتجاسر على مبارحة القاهرة دون أن يكون معه جيش عظيم خوفاً من القتل غدراً. وفي الواقع أن كل المماليك الامراء كان نصيبهم القتل المتتابع بطرق مختلفة ولم ينج من ذلك ايضاً اسماعيل بك اذ قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر قتله غدراً الامير ذو الفقار رئيس حزب الامراء القفارية. فتوفى عن ابنة وبعد وفاته ولد له ولدان من زوجتين ولكنهما لم يعيشا ذكرا حميدا لابيهما اكثر من بضعة اشهر. ومن اعمال اسماعيل بك انه بنى جامعين كبيرين احدهما جامع سيدي ابراهيم بدسوق والثاني جامع سيدي علي بمليج ورمم جامع الازهر بالقاهرة وقاد بنفسه قافلة الحج ست مرات الى مكة وكانت سنة قتله أي سنة ١٧٢٣ افرنكية حزناً وطنياً عند جميع المصريين. وفي سنة قتله قام رجل تركي يخطب بين المسلمين لاصلاح العقائد الاسلامية وتنقية الدين الاسلامي من العقائد الدخيلة المحيطة بالدين فاوجد شعوراً عظيماً للاصلاح الديني والتف حوله خلق كثير وصار يسمع خطبه الوف من المسلمين في جامع المؤيد. وكان يفند في خطبه العوائد الذميمة التي

الصقت في العبادة والديانة الاسلامية ويطعن على الخصوص في عبادة المشايخ وشفاعتهم ويقيم الادلة الساطعة على أن اثار أو بقايا المشايخ والاولياء لاتأتي بالعجائب البتة . فازعج مشايخ الاسلام في الازهر خطب هذا الرجل واصدروا منشوراً دينيا في الحال يحرمون فيه اتباع مبادي ذلك الزعيم الخطيب واكدوا مثبتين في منشورهم أن المشايخ و لاولياء بمكنهم اتيان العجائب بعد موتهم . وطلبوا من الحكومة معاقبة ذلك الخطيب .

فاحضر بعضهم صورة من هذا المنشور للخطيب المصلح بينما كان يخطب في الجامع . فلما اطلع عليه قال معلنا سامعيه انه يمكنه أن يقنع العلماء ويتغلب عليهم بالبرهان الساطع امام قاضي الاسلام الاكبر وطلب من سامعيه أن يكونوا في جانبه فتحمس القوم وتجمهروا صائحين بالاخلاص له فخرج من الجامع وحوله مايزيد عن الف نفس وكروا مهرولين بشغب عظيم الى بيت القاضي . فاجتهد القاضي أن يعاطلهم وهو في حالة خوف وفزع عظيمين على امل انه يصرفهم اخيراً ولكنه ما كاد يظهر الانحراف عن ميلهم حتى اهانه الرعاع وكادوا يعدمونه الحياة لو لم يتخلص منهم بكل صعوبة وهرب الى محل حرمه

وفي يوم الثلاثاء التالي اجتمع الخلق اكثر من المرة الاولى في جامع المؤيد ليسمعوا خطيبهم فلم يجدوه وذاع فيما بينهم خبر مؤداه أن القاضي منعه عن الخطابه بالقوة فهاج المحتشدون وجاهم من الاوباش وقصدوا المحكمة

الشرعية وقبضوا على القاضي بالقوة فانكر بالكلية معرفته بامر شيخهم فزوه الى الباشا الوالي الذي يظهر انه خاف أيضا وانزهل من هيجانهم فامضى لهم امراً بالتصريح لهم بما يرغبون اتباعه فحملوا شيخهم الخطيب على اعناقهم وخرجوا به منتصرين مهللين الى جامع المؤيد حيث القى عليهم خطبة حادة ومهيجة جدا . وفي هذه الاثناء كان الوالي الباشا قد ارسل الى كبار امراء الفقارية والقاسمية يخبرهم بان الاهالي اهانوه وانه سيترك البلاد ويعود للقسطنطينية

وما كان الامراء يتوانون عن التداخل في المشاجرات المماثلة لهذه بحجة قمعها والضرب على المتخاصمين فدعوا رجالهم لحمل السلاح وساروا للقبض على الخطيب وسامعيه الذين قد وصلهم خبر قدوم الامراء قبل تحركهم اليهم فلما وصل الامراء ومن معهم لم يجدوا أحداً في الجامع فزحفوا نحو قلب المدينة وهم يضربون بالعصى ويقبضون على كل من يجدونه في طريقهم وبهذا انتهت الفوضى وعاد النظام كما يقول الجبرتي . واختفى الخطيب المصلح بعد هذا وقال بعضهم انه قتل وأخرون انه هرب من الديار المصرية .

وفي أوائل سنة ١٣٤ هجرية تنبأ أحد العرافين الاقباط واسمه غير معروف بان العالم سينقضي بعد يومين فانتشرت نبوته كالبرق بين الناس مسلمين ومسيحيين . وانتشار هذه النبوة في القاهرة كان بقوة عظيمة وبسرعة فائقة قلما تعرف عند الشرقيين (١) وايضا انتشرت في

(١) يظهر أن أذاعة الاخبار كانت تمارس في قديم الايام بواسطة حمام الزاجل.

كل الاقاليم ولم يبق حديث للناس الا هذه النبوة وانقلاب الدنيا وصار كل واحد يودع جاره ويستعد لمقابلة الانقلاب الرهيب وتقاطر الفقراء الى شواطىء النيل يغتسلون بمياهه ليطهروا انفسهم . وبعضهم يقيم الولائم والاعياد والمسرات وداعا للعالم وبعضهم يتركون منازلهم ويطوفون هائمين في الحقول وبعضهم يوقعون انفسهم في انزعاج لدرجة الجنون وبعضهم يمارسون التوبة عن خطاياهم ويصلون . أما الشيوخ والامراء ولو ان بعضهم بلا شك جارى القوم في رعبهم فانهم اجتهدوا بان يرجعوا الناس الى صوابهم ويحرضوهم الى العودة الى ممارسة صوالحهم واشغالهم اليومية كالمعتاد ويؤكدون لهم ان تلك النبوة كاذبة بلا مراء فلم ينجحوا وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وما كان جواب الناس لهم وهم في غاية الاندهاش الا ان النبوة حقيقية بدليل انها صادرة عن اليهود والاقباط. وكان المسلمون معتقدون بنوع أخص ان الاقباط لايخطئون في نبؤاتهم لانهم يذكرون الظواهر الفلكية قبل حدوثها . ولهذا كان العامة لايترددون في خوف هذا النبوة بل يأتون بالادلة على صدقها من نبوات الاقباط في سالف الازمان . ولكن المؤرخ لم يذكر نوع هذه النبوات التي أوردوها . وأخيراً قبضوا على الرجل القبطي الذي نطق بالنبوة وجاءوا به امام أحد الامراء فابى انكار ماقاله والرجوع عما اذاعه وقال للامير القني في السجن لغاية يوم الجمعة فاذا لم يتم ما تنبأت به في ذلك اليوم أي يوم الجمعة يمكنك ان تذبحني

فزاد هذا الاصرار في انزعاج الناس وتولاهم اليأس لدرجة شديدة في ساعة واحدة. فلما جاء يوم الجمعه كان جميع الناس في انتظار الساعة الاخيرة كل لحظة من ذلك اليوم ولما دنت ساعة غروب شمس ذلك النهار ولم تظهر آية علامة من السماء تدل على الانقلاب حلت على أحد العلماء روح الحذق والفطنة فقال ـ ان النصارى قد سبقوا واخطأوا غير مرة فلماذا لانضيف لهم خيبة نبوتهم هذه المرة الى خيابتهم السابقة ثم قال بخشوع ان ارواح سيدي احمد البدوي وسيدي ابراهيم الدسوقي اشهر الاولياء الاطهار توسطت في تأخير خراب العالم فاجاب الله شفاعتهم وقبل بتأجيل يوم الاخرة الى أجل غير مسمي . فطمن الناس بعضهم بعضاً وباركوا انفسهم بمزيد الشكر والامتنان قائلين لبعضهم (أيها الاخوة انا لم نزل احياء) أراد الله ان يكون ذلك الحادث تجربة نافعة لنا

وكانت هذه الحادثة على ايام البطريرك انبا يوحنا السابع عشر الذي اخلف انبا بطرس السادس سنة ١٧٢٧ الذي اخلف انبا مرقس السابع .

وبعد وفاة اسماعيل بك انتكست البلاد فعادت الى حالتها الاولى من عدم استتباب الامن والسلب والنهب . والامير ذو الفقار الذي قتل اسماعيل قد ذبح هو أيضاً بعده ببضع سنين وما كان يمر شهر تقريباً الا وتسمع ان أميراً قتل أميراً آخر . وكيفية قتل الامراء بعضهم بعضاً انه كانت عندهم العادة ان يدعو الامير صاحبه الامير الاخر الذي يريد الغدر به الى وليمة هو واتباعه في منزله وبمجرد حضورهم للضيافة يعطي صاحب الدار علامة

لخدامه فيقومون حالاً بذبح الضيوف وزعيمهم . وقد حصلت حادثة محزنة من هذا النوع لا بأس من تخصيصها بالذكر هنا لهذه المناسبة : — ذلك انه في سنة ١٧٣٦ مسيحيه قد أمر الدفتردار بذبح أحد عشر من كبار المماليك الامراء في ساحة منزله بعد دعوتهم الى وليمة على مثل ماتقدم — وسبب تمثيله بهم ذلك التمثيل المريع ان كبير المقتولين كان في ذلك الحين زعيم الامراء القفاريين وقد رفض ترقية أحد الامراء القاسميين الى وظيفة سنجق . ولكن عثمان بك ذو الفقار وهو من اتباع المماليك الذي كان مدعواً لوليمة الدفتردار ضمن الاحد عشر مملوكا المقصود الغدر بهم قد تمكن من الهروب بنفسه من ايدي القاتلين الذين لما رأوا ان هذا المملوك أفلت من ايديهم خافوا ان يعود للانتقام حالا منهم بعد جمع رجاله فهربوا خائفين واختفوا في جامع السلطان حسن فابى رجال الجامع قبولهم. فتمكنوا من الدخول بوسيلة أخرى وهي انهم اشعلوا النار في باب الجامع حتى احترق ودخلوا الجامع واختفوا فيه فكانت هذه الحادثة كلها اساسا لمعارك دموية عظيمة دامت بلا انقطاع طول القرن الثامن عشر فالتزم الامراء باعادة تحويل الجوامع الى حصون وطوابي حربية ومنازل خصومهم كانت تنهب وتسلب على الدوام وكانت الشوارع دائماً ملآنة بجثث القتلى . وعلى أثر ذلك عزل الباشا الوالي من قبل تركيا وعقب خلعه تخلل هذه الحالة مدة قصيرة ساد فيها السلام في القاهرة نوعاً الا انه في ردهة هذا السلام ضربت بالوباء و اشتد لدرجة ان مات به ١١٣ شخصياً

من بيت واحد لاحد الامراء وكانت الجثث تنقل ركاماً للدفن ليلا

وفي اثناء ذلك كان قد حضر ، يتشارد بوكوك الى الديار المصرية . والامتيازات الاجنبية جعلت البلاد في حالة أمن للسائحين الاوروباويين أكثر منها للمصريين التعساء نفسهم. لان المصريين وقتئذ ولاسيما الامراء المماليك كانوا على علم تام بان قتل شخص واحد من رعايا الدول الاوروباوية قد يكون خطراً عظيما على القاتل فعلا عن عدم الفائدة من قتله . فكانوا يفضلون مقابلتهم بعذب الكلم . وكان المصريون يطربون عند ما يعلمون سهولة الغش والاحتيال على هؤلاء الاوروباويين في كل المواضيع والاحوال التي لا يلاحظونها أو يعرفونها شخصياً . وفي ذلك الحين أرسلت الحكومة الهولاندية أحد قبودانات بحريتها للسياحة في الديار المصرية ليقدم تقريراً عن تلك البلاد الى حكومته فحضر وكتب عن مصر كتاباً تاريخيا لكنه ليس ذا قيمة تاريخية تذكر . اذ عرف الضباط الترك في الحكومة المصرية وقتئذ ان الاهالي أرعبوه وصرفوا فكره عن أي قصد غير لائق يجوز ان يحدثه ولو انه سار في النيل الى ان وصل للنقطة الموجود فيها بوكوك. وقد ألف عند عودته بعض اجزاء عن تاريخ رحلته الى صعيد مصر. فيظهر انه لم يعلم ولم يدرس شيئاً عن البلاد اكثر مما يدرسه سائح هذه الايام عنها في بحر اسبوعين . أما الكتاب الذي ألفه الدكتور بوكوك عن أحوال مصر فانه ذو قيمة حقيقية . ولو أن أغلب كتابته فيما يختص بالاقباط وما هو في دائرة معلوماتهم كان يكتب بناء على أساس

الطريقة المعتادة المضرة بالمؤلفين والمؤلفات وهي ارتكانه في معرفة أحوال الاقباط على المترجمين المسلمين أو المبشرين الكاثوليك الذين يكرهون الاقباط ولا يسامحونهم لاخلاصهم لكنيستهم وبطريركهم الوطني . ولما وصل لدكتور بوكوك الى مينا الاسكندرية من أوروبا سنة ١٧٣٧ جعل أول وجهته زيارة كوساس بطريرك اليونان في رشيد. وكان وقتئذ على كرسي الكرازة المرقسية البطريرك يوحنا السابع عشر . ولكنه في طول مدة سياحته في داخلية القطر كان دائماً يتصاحب ويجتمع مع المسلمين والكاثوليك الفرنسيسكانيين الذين كانت اراسالياتهم ومراكزهم الدينية على طول نهر النيل تحت الحماية البريطانية .وزار مدينة المحلة الكبرى التي قالوا له أن فيها خمسماية نفس من الاقباط .ثم شاهد بقايا الهيكل العظيم هناك . ثم عاد للقاهرة ومكث بها يوماً ثم سافر الى الفيوم وبعدئذ سافر الى اعالي النيل . وفي عصره كان الديران الابيض والاحمر بجوار سوهاج لا يزالان معروفان عند الاقباط باسم دير انباشنوده ودير انبا بشوي. ولما وصل الى ارمنت تعجب مندهشا غاية الاندهاش من مشاهدة بقايا الكنيسة النفيسة التي كانت هناك وهي من اقدم الكنائس المصرية . ولو انه اثناء اقامته في الديار المصرية كانت حالتها هادئة ولم تقع فيها معارك ولا محاربات بين المماليك فانه لاحظ انه عادة القتل بالسم كانت متأصلة كثيراً بين كل جميع طبقات الاتراك وكانت عادة مألوفة جداً يصعب كتابة أي ملاحظة تاريخية عليها وكانت لفظة (تركي) ليست ذات معنى ولا أهمية

حتى بين الاتراك انفسهم . ولاحظ أيضاً ان كل الاقباط كانوا يعرفون القراءة والكتابة أما باقي انواع الاهالي من الامم الاخرى فقلما رأى واحداً منهم يعرف القراءة والكتابة . وذكر في تاريخه ان رجال الترك الانكشارية كان يعهد اليهم جباية ضريبة الانفس من المسيحيين الوطنيين فقط (الاقباط) وهذه الامة التعيسة قد وقعت في حالة اردأ من ذلك وهو أن احد كبار الاتراك في القسطنطينية تمكن بواسطة دفع رشاو ثقيلة للسلطان من الحصول على هذا الامتياز ولما ناله صار يحصل من هؤلاء الاقباط البؤساء اضعاف ما كان يحصله منهم الانكشارية . وساح الدكتور بوكوك أيضاً في اوروشليم وقبرص ومضى الايام الاخيرة من حياته بوظيفة اسقف ميث

ومن سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٧٤٣ مسيحية كان اقوي رجل في النفوذ في البلاد المصرية هو عثمان بك ذو الفقار . والفضيلة الوحيدة التي تدون له في التاريخ بالمدح انه ما كان يقبل الرشوة أو يميل اليها على الاطلاق . وأما باقي اعماله فكانت مثل باقي أعمال مواطنيه — وهي ميله للانتقام والخيانة وعدم الرحمة والعفة

ولما لم يعد يتحمل الشعب وخصومة مظالمه القاسية لم يقتلوه بل نفوه الى القسطنطينية فاستقبلة السلطان بالاحترام وبذل مساعيه لاعادة ممتلكاته واملاكه وامتعته التي بمنزله في مصر اليه بعد أن سلبت كما هي العادة في ما يتم لمثله عند قتله لكن لم تفلح هذه المساعي السلطانية

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية عرض أحد الباشوات المدعو محمد اليدقسي مشروع اصلاح للديار المصرية فابتدأ اصلاحه بمنع شرب الدخان منعاً قطعياً عند الاهالي . فكان يرسل ضباطه بعساكرهم ثلاث مرات يومياً يطوفون في الشواع في القاهرة وكل من يجدونه يدخن يعاقبونه عقابا صارماً . فاستدعاه السلطان بعدئذ بسنتين قبل انه لم يفلح بايجاد اصلاح يذكر غير ابطال شرب الدخان . وبعدئذ قام شيخ من العلماء واجتهد في اصلاح حال مواطنيه فصار يخطب فيما بينهم بحضور بعض الامراء ويبين لهم شرورهم وينهيهم عن الخطايا ويبين للناس الشرور التي يأتيها الامرأ فحنق هؤلاء عليه وسلطوا عليه اتباعهم لقتله . فهرب وامتنع بعدئذ عن الخطابة ضد الامراء حتى مات موتاً طبيعياً

وأعظم نقطة تاريخية مؤثرة في ذلك الحين هي الخيانات الدموية العظيمة التي تعودها الاتراك لخدمة مآربهم . ويظهر انه ما كان يوجد اي عهد أو قسم يمنعهم من اتيان هذه الفعال الذميمة . مع ان اليمين أو القسم أو العهد بالوطنية العمومية هو الرابط الوحيد الذي يوقف ويمنع اي شخص انكليزي الجنس من ارتكاب اي جريمة ضد ابن جنسه

وفي سنة ١٧٤٥ مسيحية تلقى محمد رغيب الباشا لوالي وقتئذ على مصر من قبل تركيا تعليمات سرية من السلطان بضرورة القضاء على عائلات الفاطمي والدمياطي وهما من اشد المماليك قوة وبطشاً . فسعى الباشا سراً في تنفيذ هذه التعليمات ودبر مذبحة عظيمة لكل البكوات المماليك من

تلك العشائر عند دعوتهم الى اجتماع عمومي في ديوانه بحجة النظر في شؤون البلاد . فما دعاهم لم يجب هذه الدعوة بك أو أمير بدون ان يكون مسلحاً أو غير مستعد لدفع اي غدر أو جناية مما كان جارياً في تلك الايام . وبالرغم عن هذا فانهم لم يحضروا الى الديوان حتى قطعت رقاب ثلاثة منهم أما باقيهم فدافعوا كل عن نفسه وتمكنوا من الهروب من القلعة وجمعوا اتباعهم وكروا راجعين للقلعة وقامت على أثر ذلك حرب اهلية أخرى انتهت بقتل عدة امراء وهروب الآخرين الى الصعيد . وفي سنة ١٧٤٨ تولى على مصر باشا آخر اسمه احمد ولما حضر للقاهرة اقتصر على خدمة العلم وعزم على الاستفادة بزيادة العلوم باجتماعه بالعلماء المصريين فاحاط نفسه بكل المشايخ وعلماء الكليات فاتضح له انهم لا يعرفون من العلم شيئاً وانهم اضاعوا وقتهم فقط في العلوم النحوية والحيل والخداع اللاهوتية . فهجر كل هؤلاء المشايخ والعلماء وصرفهم من حضرته وحجز عنده فقط الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر وقتئذ ليجربه اذ ربما كان نظره فيه غير صحيح وحكمه عليه بجهله كباقي المشايخ قبل التجربة قد يكون خطأ . فما طال هذا الشيخ في صحبة الباشا مدة من الزمن اختبره فيها تماما وجده لا يقل جهلا عن الذين طردهم وصار الباشا يطلب بعدئذ مكرراً من هذا الشيخ رئيس الجامع الازهر قائلاً أين اذاً العلماء المصريون الذين كنت اسمع عنهم كثيراً في تركيا . فكان الشيخ يضن عليه بتفهيمه ان الشيء القليل من العلوم والمعارف الباقية لذلك الحين في

مصر يمكن معرفتها من الاقباط . واجتهد الشيخ في البحث بلطف ولو عن رجل مسلم واحد تناسب معارفه . طالب الباشا التركي وأخيراً عثر رئيس الجامع الازهر على رجل يدعى الشيخ حسن وهو من أصل حبشي والد المؤرخ المسلم الشهير الشيخ الجبرتي والمعلم لعلم الفلك في الجامع الازهر فارشد الباشا الوالي عنه .

وفي اثناء النصف الاول من ذلك القرن كان الاقباط متروكين في حالة سلام منهم وعليهم بينما كان المسلمون في حالة مخاصمات شديدة فيما بينهم . ولم تستيقظ فنونهم اي (الاقباط) وصنائعهم من رقادها الطويل بعد تلك الصدمة العظيمة التي اصابهم بها الفاتح العثماني حينما سحقهم وكاد يمحيهم من الوجود بواسطة الخطف والسلب والنهب المتواصل ضدهم

وقد تألم الاقباط كثيراً ايضاً من اخوانهم الاقباط المسلمين بسبب سطو البدو الدائم عليهم وبسبب جيوش الامراء الطوافة في البلاد . ولم يكن يسلم من الاذى في القاهرة اي رجل يمتلك اي شيء بسيط يستحق السلب سواء كان هذا الرجل يهودياً او قبطياً

وفي سنة ١٧٣٣ م (١١٤٦ للهجرة) كان لكاشف كل اقليم بناً على فرمان صادر له من السلطان الحق في فرض ضريبة مالية على كل نفس قبطية أو يهودية من سكان اقليمه . فقسم كشاف الاقاليم الاقباط واليهود الى ثلاث درجات بطريقة موجبة للاسف بنسبة الوسائط التي يتخذونها

معهم في ارغامهم بالدفع . فقرضوا على الطبقة الاولى دفع ٤٢٠ بارة عن كل نفس . وعن الطبقة الثانية ٢٧٠ بارة وعن الثالثة ١٠٠ بارة عن كل نفس (١) . ولكن من عهد قتل الاب كليمانت لم تعد الحكومة تعرض مسيحياً للقتل بسبب دينه ولم تصدر اوامر بهدم الكنائس . وعلاوة على ذلك فان المسيحيين (الاقباط) اصبحوا بالتدريج لازمين للحكومة بحيث لا تستغني عنهم في وظائفها وذلك بالنسبة للجهل المتزايد وعدم الامانة بين بعض الطبقات من المسلمين .

وفي سنة ١٧٣١ مسيحية كان للمرسلين الكاثوليك تسعة مراكز جنوبي القاهرة وهي : — في اتينو وفي اسيوط وابو تيج وصدفا واخميم وجرجا والاقصر واصوان وحتى في دير النوبية . لاننا علمنا انه في تلك السنة ارسل البابا كليمانت الثاني عشر أوامر مشدده لرؤساء تلك الاماكن الكاثوليكية كي يبذلوا كل مساعيهم للحصول على اولاد من الاقباط وارسالهم للتعليم الديني في رومه . فالاولاد الذين امكن لهؤلاء الوكلاء الدينيين ارسالهم للتعليم في روميه كانوا من والدين كاثوليكيين ولم يتمكنوا مطلقاً من الحصول على ابن أي رجل قبطي من الكنيسة الوطنية سواء كان

(١) قيمة العملة المصرية كانت تتغير بحسب تغيير سلاطين آل عثمان ولذا يصعب جداً تعيين قيمة هذه المبالغ بالعملة الانكليزية . وقال بوكوك في تاريخه عن مصر انه في سنة وجوده فيها (سنة ١٧٣٧) كان الكيس في مصر يساوي ٢٥٠٠٠ ميدي والميدي يظهر انه يساوي ٢ ونصف بنس اي ٥ مليم

بطريق الاغراء أو التهديد ولم يقبل أي قبطي اصلي بالتسليم في ابنه بتأثير تلك الاغراآت الفارغة . وقد علمنا بحادثة مسير اولئك الاولاد عند ترحيلهم لرومية ذلك انه كان معهم في السفينة الراكبين فيها في طريقهم الى القاهرة من الوجه القبلي بعض من السياح الفرنساويين والانكليز في النيل فلما وصلت السفينة الى مدينة انسينا قيل أن السياح المذكورين نزلوا يتفرجون على خرائبها القديمة فاسرع الاقباط الكاثوليك المتوجهين الى رومية وقدموا أنفسهم للمرسل الكاثوليكي في تلك المدينة وقتئذ وحضروا الصلاة معه في كنيسته

وكتب البابا المذكور الى البطريرك القبطي يوحنا السابع عشر بواسطة الكردينال بلوجا ومرسل اخر لهما السلطة في مخابرة البطريرك القبطي باسم البابا — اذا امكنه يحسن به تسهيل الطرق اللازمة للخضوع هو وكنيسته لكنيسة رومية فكانت نتيجة تلك المخابرات بلا ثمرة كالمعتاد

ولما جلس بنديكت الرابع عشر على الكرسي البابوي بعد كليمانت — انكر كل دعوى باعتراف الكنيسة الرومانية بوجود اتحاد مع الكنيسة القبطية . وعوضاً عن أن يرسل بطريرك الاقباط رأساً عين مطراناً كاثوليكياً (وهو الاول من نوعه) واعطى له حق التشريع في الديار المصرية . واصل ذلك المطران قبطي اسمه اثناسيوس وكان تعيينه سنة ١٧٤١ واتخذ اورشليم مقراً له واستمر فيها ومنها عين كاهنا يدعى يسطس ماراغليك بصفة نائب عنه في الديار المصرية . وقد ارسل البابا بنديكت سنة ١٧٤٥ م لهذا النائب

تعليمات طويلة طالبا اتباعها وتنفيذها . وكان في ذلك الحين رفائيل الطوخي من اهالي مديرية الجيزة الذي كان أخذه الكاثوليك صبياً وعلموه في رومية قد أتم دراسته الدينية فعينه البابا أسقفاً لمدينة أرسينو حيث يظهر انه لم يسمح له البابا بالاقامة طويلا فيها [1] لانه بالذهبة الى معارفه العظيمة قد استدعاه البابا الى رومه ليساعد في تأليف بعض كتب مختلفة باللغة القبطية من ضمنها اجرومية في اللغة القبطية وكتب طقوسية للخدمة الكنائسية . وفضلا عن هذا فقد ترجم عدة كتب يونانية ولاتينية الى اللغتين القبطية والعربية .

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية أرسل ملك الحبشة الى بطريرك الاقباط يطلب منه رسم مطران جديد للاحباش بدل انبا خريستودولس الذي توفي . وكان الوفد الذي عزم على السفر الى مصر حاملا طلب ملك الحبش مؤلفاً من ثلاثة رجال . أحدهم مصري الاصل اسمه جرجس واثنان حبشيان أحدهما اسمه ليكانيوس والاخر كاهن اسمه ثيودورس

وفي ذلك الحين كانت سواحل البحر الاحمر كلها في أيدي المسلمين ولم تكن الحبشة قد استرجعت بعد أي ميناء من موانيها القديمة على ذلك

(١) في السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر كان الكاثوليك قد تمكنوا من الانتصار قليلاً في أعمالهم اذ امكنهم اغراء اسقف جرجا القبطي لاعتناق المذهب الكاثوليكي . فأصبح هذا الاسقف في حالة اضطهاد شديدة ليس من الاقباط فقط بل ومن المسلمين ايضاً فالتزم بالهروب الى روميه وأقام فيها حتى مات سنة ١٨٠٧

البحر . فلما وصل الوفد الى مصوع قبض عليهم حاكمها المسلم وسجنهم وأخذ منهم عنوة نصف أموالهم التي كانت معهم لينفقوا منها في سفرهم الى مصر وهددهم بالموت أو اعتناق الاسلام . فاختفى جرجس المصري ولا يعرف للان ما اذا كان قد قتل أو دبر طريقة هرب بها ونجا من السجن . أما ليكانيوس فبعد عذاب شديد سلم أخيراً بمطالب الحاكم واعتنق الاسلام . اما تيودوروس الكاهن الحبشي فهو الوحيد الذي اطلق لحال سبيله لان الحبشة كانت قد شعرت بما وقع لوفدها فدفعت عنه فدية للحاكم المسلم واستمر في سفره حتى وصل القاهرة سالما وحده.

ولما ابلغ الخبر للبطريرك القبطي لم يتمكن هذا من ارسال مطران جديد للحبشة الا في سنة ١٧٤٥ . ولما وصل المطران الجديد للحبشة مع الكاهن الحبشي وقع له ما وقع للوفد عند مجيئه فطرحا في السجن . ولكن تيودوروس الحبشي اجتهد في اختراع حيلة يهرب بها زميله المطران وقد تمكن فعلا من تهريبه ولكنه وقع هو في خطر الموت لاتيانه ذلك الامر على ان المقادير شاءت ان تنجيه اذ بينما كان الاستعداد جارياً لقتله ادركته فدية من ملك الحبشة فتركه حاكم مصوع ووصل الحبشة سالما .

وكانت قدم الكاثوليك قد ثبتت جيداً ذلك الحين في البلاد المصرية. ولو انهم لم يفروا كثيراً من ابناء الكنيسة القبطية للدخول في مذهبهم لكن قد تبعهم كثيرون من السوريين المقيمين في مصر وغيرهم من ابناء الكنيسة اليونانية وكانت لهم كنائس كثيرة خاصة بهم امتلات بالذين لم

يتبعوهم من قبل ولكنهم كانوا بلا شك يحسبون مرتدين عن مذهبهم الاصلي .

فلما سمع السلطان بتزايد النفوذ الاوربي في البلاد المصرية بواسطة تلك الكنائس اللاتينية جزع وقلق باله . فأمر بطريرك الكنيسة اليونانية في مصر بأن يمنع اعضاء كنيسته من الصلاة في كنائس اللاتينيين وفرض على ابناء الكنيسة اليونانية ضريبة مالية قدرها الف كيس بالتضامن اذا خالفوا ذلك الامر . فما كان من السوريين الا انهم دفعوا هذه الضريبة للسلطان واستمروا على صلواتهم في كنائس الكاثوليك . واتخذ احد امراء المصريين هذه المناسبة فرصة سانحة لمآربه فسجن أربعة من مبشري اللاتينيين وفرض عليهم دفع مبلغ عظيم من المال بصفة فدية لهم اذا أرادوا الخروج من القطر المصري

وقد كان الاقباط ممنوعين عن الحج الى أورشليم من عدة قرون فكان هذا المنع مصدر حزن دائم للمتدينين منهم . ففي سنة ١٧٥٣ م (١١٦٦ للهجرة) عزم الاقباط على تجديد المساعي في هذا السبيل واجتهدوا للحصول على غرضهم بالرشوة مهما كلفهم ذلك من المال . ومن كبار الاقباط الذين كانوا يسعون في ذلك سكرتير احد كبار الامراء فهذا تعهد بالمخابرة مع ذوى الشأن بالنيابة عن امته . وبمساعيه اقتنع شيخ الجامع الازهر بالاذن للاقباط بالحج الى أورشليم مقابل اخذ رشوة قدرها الف دينار (٧٠٠ جنيه انكليزي) اذ أصدر فتوى شرعية صرح بها للاقباط ان يحجوا ويعودوا وهم في امن وسلام بدون ان يتعرض لهم احد من

المسلمين. صدرت هذه الفتوى وبلغ الامر الى الاقباط فطار فؤادهم فرحاً وهموا بالتجهيز للحج باسرع من البرق . واتفقوا فيما بينهم على ان نقطة المقابلة التي يجتمعون فيها للسير معاً في قافلة واحدة للحج تكون في شرقي مدينة القاهرة . فكانت هذه النقطة تغص بمئات من الاقباط يومياً . وجهزوا العطايا والنذور التي سيقدمونها عند القبر المقدس واعدوا التختروانات لحمل النساء والاطفال واجروا لهم حرساً من البدو لمرافقتهم في الطريق . فانتشر خبر حج الاقباط في جميع الانحاء فاستقبله جميع المسلمين بعين الحمق والاحتقار وحنقوا على الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر لتصريحه لهم فلما رأى هذا نفسه مهاناً من المسلمين للفتوى التي اصدرها بذلك سلك طريق الرقة والملاطفة معهم فلم يفلح وبخوه على الرشوة التي اخذها فأنكر في بادىء الامر اخذه للرشوة ولو انه في الواقع اخذ علاوة على مبلغ الرشوة المتفق عليه مبلغاً آخر بصفة (بقشيش) اذ لم . فلما رأى ان انكاره للرشوة غير مقبول اتخذ له وسائط اخرى لاعادة كرامته بين المسلمين . فاستدعى طلبة الازهر وجمع خلقاً عظيماً من الاوباش وهيجهم بتحريض ديني على الاقباط الحجاج وانتهى تحريضه بامره اياهم بأن ينقضوا على قوافل الاقباط السائرين آمنين في طريقهم الى الحج. ولم يحتج هؤلاء الاوباش طبعاً الى تكرار القول او الاشارة بل قام جمع هائل منهم مسلح بالعصي والحجارة وساروا حتى انقضوا فجأة على الاقباط فضربوهم بالنبابيت والحجارة وسلبوا مؤونتهم وذخائرهم وكل ما معهم وسبوا

نساءهم. ولم تنفع بعدئذ مساعي كبار الاقباط في رد المسلوب والمنهوب او اخذ تعويض بل ذهبت كل النفقات العظيمة التي انفقها الاقباط هباءً منثوراً

الفصل السبعون

علي بك الكبير

سنة ١٧٥٥ مسيحية ١٤٧١ للشهداء و١١٦٨ للهجرة

كان الامير الذي خرج له بأس عظيم من عصابات القاتلين وهو علي بك الكبير واحد معتوقي احد الامراء الكبار وبعد موت سيده قتلاً بالطريقة المعتادة كان هو نفسه في خطر الموت الى امد غير قصير . وقد جمع ثروة طائلة حينما كان في حيازة سيده المتوفي صرفها في شراء المماليك أو اسرى الحروب ليحصن بهم نفسه وقت الهجوم عليه من الاعداء. فلما آن الوقت الذي حان هجموا عليه فعلاً وبعد معركة دموية هائلة في شوارع القاهرة هزم علي بك وفر هارباً الى الصعيد مع بعض البكوات المماليك الذين اعتصبوا معه . وبعد أن جمع من الصعيد قوة من الرجال تستحق الذكر نزل ثانياً الى القاهرة وهزم الامراء خصومه في معركة دموية عظيمة وظل يطاردهم حتى اوصلهم الى طنطا

وبوصولهم لهذه المدينة لم يكونوا في أمن لان قوة علي بك كانت

قد ازدادت فهاجت طنطا ايضاً ببطش شديد . وقد حفر اثنين من الامراء الخنادق حول المدينة تحصيناً لها ومنعاً لهجوم الاعداء عليها غير أن احد هذين الاميرين قتل والتجأ الامير الثاني الى الجامع الاحمدي مختبئاً فيه فلما انهكه الجوع واصبح على وشك الهلاك سلم نفسه للاعداء فذبحوه بعد ذلك بقليل .

ومن ذلك الحين انفرد علي بك بتولي الحكم على القطر المصري واستبد فيه مدة عشرة سنوات غير انه لم تحدث في تلك المدة قلاقل تذكر الا في سنتي ١٧٦٣ و١٧٦٥ حيث قامت ضد الامير المذكور فتنة عامة ادت الى نفيه بضعة اشهر وكانت مدة حكمه كلها رعب وفزع حيث أن جيوشه لم تكن مخلصة له والبكوات المماليك الاخرين كانوا مقاومين له من جهة اخرى ونشاء عن ذلك أن الناس كانوا يذبحون بالعشرين أو الثلاثين دفعة واحدة من الذين كان هذا الامير يشك في اخلاصهم له أو يسيء الظن في سلوكهم والخوف منهم على هلاكه ولذلك حذر على غيره من الامراء مشترى المماليك الاصاغر الذين كان البكوات يأخذون منهم رجال حروبهم ثم وضع يده على كل ممتلكات الذين نفاهم أو قتلهم واستخدم طيباً من اتباع الكنيسة اليونانية ليدس السم لخصم له لم يتمكن من الهجوم عليه وقتله علناً لكن حيلته هذه لم تفلح ايضاً .

وكان كل رجل غني سواء كان مسلما أو قبطيا معرضا في ذلك الوقت المظلم للهلاك والتعذيب والسجن حتى يسلم كل ما يملكه الى الحاكم .

ونذكر من الذين نالهم الحيف كاتبا يهوديا في جمرك بولاق مات تحت العصا والكرباج بعد ما دفع ٤٠٠٠٠ قطعة ذهبية فدية عن نفسه . وفي سنة ١٧٧٠ فرض ضريبة خصوصية على جميع سكان القطر المصري على السواء بخلاف الضرائب الاخرى الموجودة والتي ما انزل الله بها من سلطان والتي كان الناس يئنون منها ويتأوهون حيث اضطرت كل قرية أن تدفع ٢٠٠ ريال . ولم يقتنع الاقباط من المسلمين بما كان يدفعه اخوانهم الاقباط من المسيحيين بل الزموهم بدفع ١٠٠٠٠٠ « مائة الف » ريال زيادة على هذه الضريبة واليهود ٤٠٠٠٠ ريال . ورأى علي بك أن مدير الضربخانة المصرية الرجل المسلم قد جمع ثروة طائلة فنفاه واستولى على جميع ما يمتلكه حتى ملابسه واسلحته وكتبه

واجتهد السلطان اكثر من مرة أن يغتال حياة ذلك الامير القوي فارسل في عام ١٧٦٨ امراً الى والي مصر حينئذ يطلب منه فيه رأس علي بك فشعر جواسيس علي بك بذلك وحذروه فلم يتخذ فقط الحذر بل ارسل فريقاً كمن لسفير السلطان القادم من الاستانة وقتله في مكمن واخذ منه ذلك الفرمان السلطاني وفي اليوم التالي عقد مجلساً من المماليك البكوات وقرأ عليهم هذا الفرمان ثم قال لهم واني اؤكد لكم اني اذا قتلت كما شاء السلطان لحدثت مذبحة عامة تقتلون فيها جميعاً ولهذا يجب عليكم أن لا تعترفوا قطعياً بسيادة السلطان الحالي بل انتخبوا سلطاناً غيره منكم كما كان في العهد السابق . فأمنوا جميعاً على اقواله وبعدها استدعى

الوالي وامر في الحال أن يترك الديار المصرية فسافر الوالي حالا واعلن علي بك استقلال الديار المصرية تحت سلطته . وفعل كذلك رجال سوريا مع واليهم التركي واعلنوا استقلالهم مثل علي بك وكان سلطان تركيا وقتئذ مشغولاً في حربه مع الروسيا فلم يتمكن من اتخاذ الوسائط القوية ضد سوريا ومصر . ولكنه ارسل يأمر والي دمشق بتجنيد الجيوش اللازمة لقمع العصاة في سوريا فنفذ ما امر به ولكن قام ضده الشيخ الظاهر الذي كان حاكما على عكا وقتئذ ومعه ٢٥٠٠٠ الف مقاتل علاوه على ستة الآف ارسلهم الي شمال سوريا فضرب والي دمشق وقهره . اما علي بك فقد جرد جيوشه ضد قبائل البدو الهواره الذين غزوا صعيد مصر وتسلطوا عليه وكانوا اسياداً لكل المنطقة الواقعة ما بين اسيوط واصوان بضع سنوات فقهرهم علي بك واخضعهم لسلطته وبذلك اصبحت مصر كلها من الشمال الى الجنوب خاضعة تحت سيادته ولم يكتف بذلك بل قام وهجم فجأة على رجل كان زعيماً للبدو في الجهة الغربية لشواطيء النيل وقتله هو زعماءه البالغين اربعين شخصاً . وبذلك انتهى كل ما كان يخشى منه علي بك . وبالرغم عن معاملته الشديدة للاقباط وقسوته عليهم فان الرجل الذي كان يثق باخلاصه ويعتمد عليه كان قبطياً يدعى المعلم رزق رقاه من وظيفة سكرتير الضربخانة المصرية الى مدير حساباتها . وقد كان المعلم رزق هذا على شيء من العلم وخصوصا علم الفلك الذي مهر فيه واصبح من رجاله المعدودين . وقد جاءت خبرته هذه فرصة عظيمة للمستر بروس

السائح الانكليزي الشهير الذي اخترق افريقيا الى بلاد الحبشه . ذلك أن بروس المذكور لما أن وصل الى ميناء الاسكندرية عام ١٧٦٨ اصدر المعلم رزق الاوامر اللازمة بعدم التعرض له في طريقه وبان يدخل كل ما يحمله مجانا بدون رسوم عليه فسر الرجل بهذا الجميل الذي اعتبره من حسن حظه ولما وصل القاهرة ارسل هدايا ثمينه للمعلم رزق الذي لم يقبل تلك الهدايا بل ردها مع رسول وزوده بمثلها واعطاه خطاباً لطيفاً للمستر بروس يرجوه فيه أن يزوره بعد أن يستريح من عناء السفر ليستعمل الآته الفلكية لاغراضه العلمية وقد تحصل له ايضاً على براءة حماية من علي بك بعدم التعرض له مطلقاً طول اقامته بالديار المصرية كما انه بتوصية منه تمكن ان يقضي ايامه في حصن بابليون حيث خصص له البطريرك بضع غرف تحت امرته في ذلك الحصن وبعد أن اقام بضع ايام هناك ابتدأ في سياحته فسافر الى الصعيد في باخرة نيلية . فلما أن وصل من اصوان الى الاقصر اتجه نحو القصير وسار عن طريق البحر الاحمر الى بلاد الحبشة ثم عاد من الحبشة الى مصر براً بان سار في مجاهل افريقيا حتى وصل الى اراضي السودان التي كانت في ذلك الحين مهجورة وغير مأهولة وفي حالة انحطاط شديد كما كانت كذلك دائماً . أي بعد ان قامت دولة زنجيه اسلاميه وسحقت الدولة المسيحية التي كانت تحكم البلاد من الجنوب . وبعد ان بسط ولاة ذلك الملك الزنجي مؤسس تلك الدولة وبسطوا نفوذهم على جميع الاقطار السودانية من سنار . وقد صادف ذلك السائح العظيم عقبات

شديدة في طريقه من حيث احتقار الاحباش له وعدم اهتمامهم بامره وبهمته فضلا عما ناله من الذم الشديد والقدح الذي ما بعده من مزيد ومع كل ما لاقاه فقد وقع هو ايضاً في خطأ فوق المؤمل من نبوغه ويظهر ان ذلك الخطأ لم يلاحظه عليه احد وهي انه لم يكتشف ابداً محل الكنيسة القبطية الاصلي في بلاد الحبشة

ومع أن بطريرك الاقباط كان يزوده دائماً بجوابات التوصية التي لا يستطيع بدونها السير قدماً واحداً في سياحته وهو آمناً على حياته. ومع انه كان يتكلم باخلاص ويشكر الذين ساعدوه واظهروا له العطف من ابناء تلك الكنيسة فان ما كتبه في تاريخه كله كان على الكنيسة اليونانية لانه كان يعتقد أن مرقس بطريرك الكنيسة اليونانية الارثوذكسية هو الذي تتبعه كل الديار المصرية وبلاد الحبشة ويظهر انه لم يسبق له المعرفة بان هذا البطريرك قبرصي بدليل انه لم يقض الا زمناً قصيراً من حياته الى هذه الديار المصرية

وما وصل المستر بروس من سياحته هذه الطويلة الى مصر حتى كان علي بك الكبير قد سقط من شامخ عظمته التي اقترف عدة جرائم عظيمة في سبيل الوصول اليها. على أن سقوط علي بك وهلاكه لم يرجع الى مساعي سلطان تركيا الذي كان استعد علي بك لمحاربته بعد ما بنى القلاع والاستحكامات الحربية في الاسكندرية ودمياط ولا الى انتقام احد الامراء البكوات الذين شتتهم هنا وهناك وتفاهم بل يرجع الى ما اصابه

من خيانة احد مماليكه الاخصاء المسمى محمود ابو الذهب (١) الذي كان اشتراه صغيراً ورباه مع عبيده ولما أن اشتد ساعده اعتقه ورقاه مع امثاله فشب على اخلاق سيده وطباعه كثر النزوع الى العلاء ميالا الى الخيانة. وقد رقي اولا الى وظيفة سنجق ثم عينه علي بك قائدا للجيش الذي انتصر به مراراً في سوريا والحجاز ودفعه هذا النصر وهو في سوريا الى تأليف مؤامرة من الضباط الذين اتحدوا معه على عصيان مولاه علي بك وبدلا من أن يسير مع معسكر الجيش للحرب انقطع في الطريق ورجع ثانياً الى مصر ورفض العودة الى ميدان القتال. فلما أن راى علي بك خيانة ابو الذهب ولاحظ أن الجيش كله في جانبه لم يتجاسر لمعاقبته علناً بل أصر على قتله غدراً بان امر بمحاصرة منزله ليلاً فلما شعر بذلك ابو الذهب خرج سريعاً في مقدمة اتباعه واخترق صفوف المحاصرين وفر هارباً الى الصعيد حيث اتحد في الحال مع البكوات وجيوشهم الناقمين على علي بك الذي ارسل وراءه تجريده عسكريه لمطاردته لكن رجالها جميعا خانوه واتحدوا مع رجال محمود ابو الذهب الذي كان يرشي الناس باليمين والشمال من بضع سنين ولم يعد منهم الي القاهرة الا نفر قليل من الذين ثبتوا على الولاء له واخبروه بما كان من امر رفقائهم. فجرد

١ دعي ابو الذهب لانه لما رقاه مولاه علي بك الكبير لوظيفة سنجق كانت عطاياه وانعاماته للشعب الذي يهتنه بالعملة الذهبية بعكس اقرانه الذين كانوا ينعمون على الناس بالفضة وظل طول حياته ينعم بالذهب

حملة عسكريه اخرى وظل يجند الجيوش ويرسل وراء ابو الذهب تجريده بعد الاخرى بقيادة قائد يدعى علي بك ليقابل ابو الذهب ويصالحه اما علي بك نفسه فتحصن مع باقي جيوشه عند دير البساتين الذي اخذه من الاقباط وجعله حصنا حربياً ثم بنى المعاقل والحصون والطوابي من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطيء النيل حتى اخر سفح المقطم ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الحربي العظيم بين تلك الحصون العظمية ولكن مع كل تلك الاستعدادات والاستحكامات الحربية فان ابو الذهب نزل لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانته اغلبها وانضمت الى جيوش ابو الذهب فلما راى علي بك ذلك خامره اليأس وتيقن أن اخرته قد دنت . فلما جاء الليل هجر مركزه بعد أن اسرع في جمع ذخائره وكنوزه وممتلكاته الخصوصية وامواله وفر هارباً من القاهرة الى سوريا فخل ابو الذهب دون أن يضطر لعمل حربي أو لرفع سلاح لان الاهالي وباقي الامراء والمماليك كانوا من اعوانه كما تقدم ولكن مع سنوح هذه الفرصة لابو الذهب وامتلاكه البلاد المصرية بهذه السهولة فان اول اعماله كانت سلب وحرق دير البساتين الذي كان متخذه علي بك خصمه ملجأ له . ثم دخل القاهرة دخول الفاتح القاهر وسار يقطع رأس كل رجل يشتبه في ولائه لعلي بك وامر بجمع كل العمله التي ضربها المعلم رزق من ايدي الجمهور وضرب خلافها باسمه . وبعد أن استقر على اريكته كتب لسلطان تركيا انه خلص البلاد من علي بك واكد له انه

سيظل حاكماً لها وخاضعا لسيادته وعبر عن ميله واستعداده لقبول والٍ جديد على مصر من قبل الباب العالي . ثم امر بعض البكوات المماليك بكتابة جواب لعلي بك في سوريا يرجونه فيه الرجوع الى مصر واكدوا له بانهم يخونون محمد ابو الذهب وينضمون معه حالما يعود . اما على بك فقد تجددت له قواه الحربيه في اثناء ذلك بواسطة مصدرين عظيمين وهو في سوريا اولهما انه اقام المخابرات بينه وبين دولة روسيا (ولا يخفى أن الروسيين هم الاعداء الالداء الطبيعيين للاتراك العثمانيين) فافرضته روسيا قوة الحرب والطوبجيه « المدافع وما يختص بها » ثم الذخائر الحربية وثلاثة الآف من العساكر الالبانيين . وثانيهما انه عقد محالفة جديدة مع الشيخ الظاهر والي عكا كما أن احد قواده قام بتجريدة حربية واعاد افتتاح طبريه ومدينتين على شاطيء سوريا بخلاف يافا وغزه والرمله وليدا وعاد منتصراً لعلي بك الذي تنازل عن هذه البلاد بعد افتتاحها الى الشيخ الظاهر والي عكا .

فلما وصل الى علي بك ذلك البلاغ والدعوة الكاذبة من المماليك المصريين حول حالا وجهة جيوشه الى مصر وسار بهم حتى وصل الى الصالحيه وهناك التقى بجيوش ابو الذهب فانتصر علي بك في اول معركة قامت بين الجيشين ولكن مماليكه الخائنين ظهر منهم نوع التراخي فلم يثق بحربهم وحدهم مع جيوش ابو الذهب الذي لما انس من نفسه انهزاما في المعركه الاولى وقف بين جيوشه المصرية يخطب متحمساً

ويحرضهم على الاستقتال في الحرب استقتالا وحماساً دينياً لانه كان يقول لهم أن الله لا يسمح لعلي بك الذي هجر الدين الاسلامي ودخل في محالفة مع النصارى الكفار أن ينتصر عليهم وعلاوة على هذه الخطب الحماسيه الدينية فانه تمكن بواسطة الدسائس والخدع والرشوه مع ابراهيم بك ومراد بك المساعدين العظيمين لعلي بك واتحد معهما على عصيان سيدهما والانقلاب عليه وقت الحرب والانضمام مع الجيوش المصرية . فعلاوه على الرشوه العظيمة التي اخذها مراد بك من ابو الذهب اشترط عليه ايضاً انه اذا خان علي بك وانضم معه يعطيه الست نفيسه زوجة علي بك وهي امرأة شركسية الاصل بارعة في الجمال . فقبل ابو الذهب بهذا الشرط ولما التحم الفريقان في الحرب خان البيكان علي بك وانقلبا عليه بانضمامهما الى صفوف ابو الذهب فلما راى جيش علي بك ما كان من امر مراد بك وابراهيم تقهقر وهرب ولكن استمر عشرة من المماليك الذين ظلوا على الولاء لعلي بك في الدفاع معه باستقتال عظيم حتى تغلب عليهم رجال ابو الذهب وذبحوهم عن اخرهم وجرح علي بك ايضاً جرحاً مميتاً فحملوه الى القاهرة حيث توفى فيها بعد سبعة ايام . وقيل أن ابو الذهب اوعز الاطباء الذين ارسلهم لعيادته أن لا يشفوا علي بك من جرحه

مات علي بك الكبير بعد تلك الاعمال الحربية والسياسية العظيمة ومن عظيم اعماله الاصلاحية المباني العظيمة الكثيرة العدد التي شيدها في البلاد المصرية من العشرة سنوات حكم فيها . واخص اعماله من هذا

النوع في بولاق حيث شيد سوراً عظيماً وسوقاً كبيراً جاء منظر ذلك السوق رديئاً لانه حال بين مناظر الحدائق الغناء التي كانت هناك ويقول الجبرتي انه من اقبح المباني التي شيدت . وفي النصف الاخير من ذلك العصر شيد الامير عبد الرحمن عمارات كثيرة عظيمة اذ قد بنى ورمم ثمانية عشر جامعاً كبيراً في القاهرة . منها جامع المغربلين وجامع السيده السطوحيه قرب باب الفتوح وجامع سيدنا الحسين وجامع السيده زينب ولكن هذا لم يتم بناؤه الا بعد وفاة علي بك والامير عبد الرحمن ببضع سنوات . ثم جامع السيده سكينه . واخر يدعى جامع السيده عيشه . وجامع ابو السعود الجارحي وجامع الشريفين الكردي وجامع الشيخ الحنفي وثلاث جوامع اخرى لم يتبين اسمها في التاريخ ضمن الجوامع الجديده التي تشيدت . وشيد ايضاً الامير عبد الرحمن كثيراً من المدارس والسبل « محال عمومية للشرب » هذا ما عدا الجسور والكباري والمنازل الخصوصية .

ولكن كل هذه الاعمال العظيمة لم تشفع له لدى الجبرتي المؤرخ العظيم الذي وصمه بوصمة البخل الشديد الذي لا يطاق وهي الخله التي جعلته يجمع كثيراً من الاموال بطريقة غير شرعية وهو كان المخلص الوحيد لعلي بك الكبير ولكن علي بك لما راى نفسه قوي الجانب وفي امن من بطش اعدائه ومن معاكسة حزب عبد الرحمن له قابل اخلاصه بالنفي الى الحجاز . ولكن عاد فاستدعاه من الحجاز سنة ١٧٧٦ م حيث

كان قد طال عليه مدة النفي واصبح رجلاً عجوزاً فتوفى بعد عودته للقاهرة ببضعة ايام .

ولما استتبت الاحكام والبلاد في يد محمد بك ابو الذهب استدعى كثيراً من الامراء المماليك الذين كان نقاهم علي بك وصرح لهم بالعودة لحالتهم القديمة واعطاهم امتيازاتهم التي كانت قد سلبت منهم . ولكن لم يتمتع بالقوة العظمى التي كان تتوق نفسه اليها في البلاد من بضع سنين . وفي سنة ١٧٧٥ م غزا سوريا التي كان معظمها باقياً تحت يد الشيخ الظاهر . فهجم على يافا واخذها عنوة وذبح سكانها كالغنم عن اخرهم يهودياً ومسلما ومسيحياً على السواء وسبا النساء واعطاهن فريسة باردة لعساكره ووزع عليهم ايضاً الاطفال كرقيق . فهالت هذه الفعال الدموية المفزعة كل البلاد السورية . فترك الشيخ الظاهر مدينة عكا بعد أن امر السكان باتخاذ الوسائط والشروط التي يمكنهم اتخاذها مع ابو الذهب وليس عكا فقط التي سلمت لجيوش ابو الذهب الفاتحة بل سلمت له ايضاً كل المدن الاخرى بدون مقاومة بالكلية . فارسل ابو الذهب الى رجاله في القاهرة يأمرهم بتزيين القاهرة وانارتها بالانوار احتفاً به لانتصاراته في الشام . ولكنهم بعد أن اقاموا الزينات الباهرة تلقوا اخباراً بانه مات في الشام واعتقد المصريون عقب وفاته بان موته كان لشدة فرحه بنجاحه وانتصاراته .

مات محمد بك ابو الذهب وترك مصر في يد ثلاثة من كبار المماليك

البكوات لانه من عهد أن صارت البلاد في يده الى أن مات كان الباشوات (الولاة) يحضرون ويؤبون من ولي القسطنطينية بدون سلطة ولا نفوذ لانهم لم يكونوا الا عبارة عن العوبة في يد المماليك يتلون بها عظمة السلطان العثماني ويجعلونه راضياً عن البلاد بسلطته الاسمية وجزيته السنوية . اما المماليك الثلاثة الذين تولوا البلاد فهم اسماعيل بك الذي عهد له حكم البلاد المصرية مدة غياب ابو الذهب في فتوحاته السورية . ثم ابراهيم بك محافظ القاهرة ثم برادبك الذي ارتقى الى وظيفة القائد العام للجيوش المصرية على اثر وفاة ابو الذهب وكل هولاء البكوات كانوا من خدام وعبيد علي بك الكبير وخانوا سيدهم كما تقدم واصل المملوك الاول اسماعيل بك غير معروف اما الاثنان الاخران فمن اصل شركسي .

ولم يمض وقت طويل على هولاء الثلاثة الا وقام النزاع والخصام بينهم فانشقوا على بعضهم بان اتحد مراد وابراهيم ضد اسماعيل بك وبعد مناوشات ومعارك حربية بينهم كانت نتيجة تلك المعارك وقوع التعاسة والشقاء بطرق متعددة لا تحصى على الاهالي الابرياء . ثم قامت معركة هائلة هزم فيها اسماعيل وخلا الجو للاميرين الجركسيين . فهجر اسماعيل البلاد ولكنه عاد اليها بعد بضعة شهور بعد أن جدد تواه وهجم على اعدائه فما اكتسب الا انهزاماً ساحقاً في الصحراء الواقعة على مقربة من حلوان . ثم هرب واختفى في احدى المغاور الكائنة في سفح المقطم

وظل مختبئا فيها ثلاثة ايام اما اعداؤه مراد وابراهيم فنهبا بيته وجميع ممتلكاته وقتلا جميع من في بيته وظلا ينهبان ويسلبان من الاهالي في طول البلاد وعرضها مهزأين بقوة السلطان بدليل انهما قدما اليه التقارير الضافية يثبتون فيها أن الاموال التي تستحق لمصر من الباب العالي تزيد عن الجزية السنوية التي تدفعها له وفي المدة بين عامي ١٠٧٧ و١٧٨٠ م كانت الحكومة الفرنساوية ارسلت المسيو سونيني للسياحة في البلاد المصرية وكان الغرض من بعثته هو اختبار حالة البلاد العلمية والسياسية لان الحكومة الفرنساوية كانت تفكر وقتئذ في الحملة التي ارسلتها بعدئذ بقيادة قائدها العظيم نابوليون بونابرت . ولو أن المستر سونيني كان بلا شك من فطاحل العلماء الا انه عدم خبرة وحالة اخلاقه الشخصية لا تؤهلانه للسياسة والبحث في مصر وفضلاً عن ذلك فانه كان يصدق كل شيء يقال له ولو كان الكلام مما لا يقبل التصديق سيما ما يكون ضد المصريين وعلى الخصوص الاقباط منهم . وكان ذو تحزب شديد ومغرض جداً للمماليك الظالمين المستبدين . ولو انه التزم أن يكتب في تقاريره أن هؤلاء المماليك هم المسؤلون عن خراب وتعاسة البلاد . وصرف معظم اقامته في مدينة رشيد التي كانت المدينة الوحيدة التي يتمتع فيها الاوروبيون بحرية اكثر من كل بلد اخرى في مصر . اما في القاهرة فبالكد ما استطاع أن يظهر نفسه خارج بوابة حي الفرنساويين بالنسبة لحاله المدينة المزعجه المرتبكه ثم قام في حملة من رشد الى وادي النطرون . وبعدها قام في حملة

اخرى من القاهرة الى الصعيد مسلحاً بخطاب من مراد بك . (١) وهو متنكر بصفة طبيب فبكل صعوبة بهذه الحيلة امكنه أن يواصل سيره حتى مدينة الاقصر على امل ورجاء أن يصل الى الحبشة عن طريق السودان . ولكن لما انتشبت حرب اهلية في الصعيد التزم أن يعود الى القاهرة . وذكر في تاريخه أن كل الاوروباويين في القاهرة يستخدمون البرابرة في منازلهم ما عدا الفرنساويين الذين حذرت عليهم حكومة فرنسا ذلك من عهد ما قتل المسيو دي رول سنة ١٧٠٦ م .

ولما راى السلطان عبد الحميد الذي ارتقى العرش العثماني سنة ١٧٨٤ م أن الجزيه الماليه حتى لم تسدد له من مصر القائم بامرها مراد بك قصد المداخلة في الامر والنظر في هذا التقصير . وما كان يعتني أو يلتفت الى مضايقة مصر العمرانية أو مركز نائبه على مصر الذي اصبح صفرا بل كل عنايته والتفاته هو للحصول على الجزية المالية ولذلك عزم على محاربة

(١) ذكر المسيو سونيني في تاريخه عن مصر انه بعد أن طرد اسماعيل بك منفياً احب مراد بك أن يقتل احد اصحاب اسماعيل كان قد التجأ متحصناً في القلعه فاستحضر مهندساً انكليزياً اسمه روبنيسون وطلب منه أن يحرق له القلعه فابى المهندس الانكليزي ذلك وتحجج في اعتذاره أن مثل هذا العمل يحتاج لمهاريس (آلات ساحقة) وبومب ولا يمكنه استجلاب هذه الادوات من جهة اقرب من مدينة البندقيه . فمراد بك عوضاً عن يقطع رأس هذا المهندس كما كان يظن المسيو سونيني اطلق سبيله واعطاه الف سكوين والسكوين قطعة عملة ذهبية على عصر جمهورية البندقية تساوي خمسة واربعين غرش صاغ مصري .

مصر وضربها .

ففي سنة ١٧٨٦م [١] (١٢٠٠) هـ واذا بالجيوش التركيه وصلت الى الاسكندريه بقيادة حسن باشا فلما شعر بها الاميران مراد وابرهيم بك هما الي صدها فقامت بين الفريقين معركة دموية هائلة دارت فيها الدائرة على المملوكين الذين فرا الى الصعيد وترك حسن باشا سائراً بجيشه الى القاهرة بدون مقاومة [٢] فتسليم وخضوع الاهالي الابرياء بكل ارتياح لم يخلصهم بالاسف من بواعث البؤس والتعاسة التي حاقت بهم بطرق مختلفة من جنود الجيوش التركية التي كانت تترك كل بلد تمر عليها خراباً

(١) في اوائل سنة ١٧٨٦ كان الباب العظيم لجامع السلطان حسن قد تم بناؤه وافتتح باحتفال ديني عظيم وهدمت الدكاكين والحائط التي كانت بنيت امامه وقد كان هذا الباب مبنياً من منذ خمسين سنة ولكن لما قتل الاحدى عشر اميرا من طائفة الغفارية سنة ١٧٣٦ م قد حرق القاتلين باب هذا الجامع العظيم ليختبئوا فيه من اعين المنتقمين

(٢) لما علمت الحكومة الروسية أن سلطان الدولة العلية قاصد ارسال حملة حربية الى مصر اوعزت الى قنصلها في الاسكندرية بتعليمات سرية أن يحدث محالفة مع البكوات المماليك ضد الدولة العلية . ففي الحال ابتدأ القنصل بفتح المخابرات بين مراد بك وابراهيم بك في هذا الصدد ولكن هذان المملوكان رفضا كل مداخلة اوروباوية ظناً منهما انهما كفوأ لمقاومة الدولة العلية وحدهما بعد أن يتمما استعداداتهما الحربية لكن لما وصل حسن باشا التركي بجيوشه الى الاسكندرية فجأة كانه قد سبق السيف العزل

تمماً في طريقها الى القاهرة وكان الفلاحون سعداء الحظ في تلك البلاد لانهم هم الذين يتمكنون من الهروب قبل وصول الجيش التركي الى بلادهم راضين بالنجاة بانفسهم مقابل ترك محصولاتهم وممتلكاتهم وزراعاتهم ضحية لتلك الجنود

وقد دخل حسن باشا بجيشه الى القاهرة في اول اغسطس سنة ١٧٨٦م وكانت اول اعماله مصادرة كل ممتلكات المملوكين العاصبين وبيع كل شيء لهما في المزاد العمومي حتى نساؤهما الخصوصية ثم ارسل وراءهما حملة تركية الى الصعيد . وبعد وقوع مذابح دموية عظيمة من الجانبين وخراب الصعيد كله هربا الى السودان . وعادة الحملة التركية الى القاهرة

وقد مكث حسن باشا محتلا البلاد بجنوده مدة سنة اعاد في اثنائها اسماعيل بك الى قوته الاصلية وجعله شيخ البلد . ثم حاكم عدد عظيم من المماليك المشهورين بكثرة المشاغبة في البلاد . وبذا تمتعت القاهرة بالامن في شوارعها طول مدة اقامته فيها . لكن هذه البلاد التعيسة الحظ لم تتقدم للامام الا قليلا جداً بعد هذا النظام الذي اتاه حسن باشا. فقد حل بالبلاد وقتئذ طاعون المواشي بوطئه عظيمة اذ قد تفق به كل مواشي القطر المصري تقريباً وقد زاد الحكام الطين بله على الاهالي اذ عوضاً عن أن يخففوا الضرائب مراعاة لمثل هذه الظروف قد زادوها اكثر مما كانت

وقد تألم الاقباط كثيراً وذلك كما هي العادة اذ دائماً يكون لهم القسط الاوفر من كل مصيبة تحل بالبلاد . فانه مع مشاركتهم اخوانهم المسلمين في مصايب طاعون المواشي فان حسن باشا القائد التركي اوجد لهم طريقة اضطهاد منتظمه . وانهم بعد وفاة ابو الذهب قد انقضى فصل راحتهم وهناؤهم واول ما امر به حسن باشا هو اعادة كل القوانين الخبيثة المفسدة القديمة وتنفيذها عليهم كما كانت في العصور الاولى وكان يترقب لهم بل ويبحث عن طريق ينتحل فيه سبباً لمضايقتهم وسلبهم ونهبهم . وانزل كبار الاقباط الذين ارتقوا للمناصب العالية في عصر علي بك الكبير الى وظائف صغرى جداً واضاع قوتهم ونفوذهم . ونهب منازلهم ومنازل اولادهم . واغتصب ممتلكاتهم وهدم [1] عماراتهم . وعلاوه على بعث انواع الاضطهادات القديمة من قبرها لم يكتف حسن باشا بذلك بل اوجد لهم اهانات كثيرة . منها انه اطلق منادين في الشوارع انه لا يجوز لاي قبطي أو يهودي أن يركب دابة على الاطلاق ولا يقتني له عبداً أو جاريه

(١) لم ينج من هذا الاضطهاد الا المعلم ابراهيم الجوهرى الذي كان باشكاتب المالية لانه بذكاه جعل نفسه من العموم ومحترماً في عيني المسلمين والاقباط معاً . ولما كانت احكام البلاد في يد ابراهيم بك ارتقى ثانياً الى درجة عظيمة من المقام وبتأثيره الادبي على الحكام المسلمين تمكن من السماح للبطريرك باعادة بناء الكنائس والاديرة واوهب كثير من اراضيه واملاكه للكنيسة القبطية ولما توفى مشي في جنازه ابراهيم بك احتراماً له .

ومن ذلك الحين فصاعداً لا يجوز أن يسمى احد من هذين العنصرين باسم من اسماء الانبياء أو الرسل المذكورين في التوراة وكل من يكون اسمه من هذا القبيل يلزم تغييره في الحال . فصير الاقباط الذين لهم معاملة مع المسلمين اسماؤهم باخرى . ومن ذلك الحين صار الاقباط يسمون انفسهم امام المسلمين الذين يعاشرونهم ويعاملونهم باسماء ويعرفون فيما بينهم باسماء اخرى . واما الان فاسم القبطي الاصلي اصبح علماً فقط للعائلة واعظم الاقباط اتخذوا اسماء والقابا تركيه

وقد نفذ حسن باشا بقوة بطشه هذا الامر في ايام قليلة فقط وصار يغتصب كل الجوار والعبيد الذين عند الاقباط اذ صرح لعساكره ان يهجموا على منازلهم ويطردوا بالقوة الى خارجه كل جارية او عبد يجدونه فيه ـ ولا بد ان يكون ذلك درساً طبيعياً خاصاً للاقباط ـ وجمع حسن باشا كل هذا الرقيق في فرقة عظيمة وساقهم الى القلعة حيث عرضهم للمزاد العمومي . واشترى العساكر اغلب هذا الرقيق وجعلوا القلعة سوقاً للرقيق يبيعون فيه العبد او الجارية بثمن فادح لكل من يطلب المشترى .

ثم امر حسن باشا بحصر عدد الاقباط وعدد بيوتهم وكل ممتلكاتهم وفرض عليهم ضريبة ٥٠٠ كيس نقدية يدفعونها للحكومة وزاد عليهم ضريبة الانفس مضاعفه اذ الشخص القبطي الذي كان يدفع ضريبة ديناراً عن نفسه (لا فرق بين رجل وامرأة كبير او صغير) الزمه ان

يدفع دينارين ثم الاقباط الذين كانوا مستخدمين في دوائر كل من مراد بك وابراهيم بك وهما الاميران العاصيان اللذان حضر لتأديبهما قد زاد عليهما الضريبة ضعفاً آخراً. لانه في ذلك الحين كان ذا ثروة واسعة وكل دائرة من دوائر كبار الاسلام لا يستخدم في ديوانه وحصر اشغاله وحساباته الا الاقباط لما هو مشهور عنهم من الاجتهاد والذكاء والامانة ولذلك بلغت ضريبة الاقباط الذي كانوا مستخدمين في دائرتي مراد وابراهيم ٧٥٠٠٠ خمسة وسبعين الف ريال وكان ذلك في زمن البطريرك يوحنا الثامن عشر. الذي لم ينج هو من اضطهاد حسن باشا اذ أمر هذا القائد بضبط خزينته واخذ امواله. ولكن لحسن حظ البطريرك ان السلطان ارسل في خريف سنة ١٧٨٧ م [1] يستدعي حسن باشا من مصر ليقود حمله عسكريه في الحرب بين روسيا والدولة العلية. فقام حسن باشا لاوربا وترك البلاد في يد اسماعيل بك بدون منازع له ولا معارض. لان عبدي باشا الوالي الجديد من قبل الدولة العليا كان وجرده كعدمه. وكانت

(١) في أوائل هذه السنة وقع الاقباط أيضاً في مصائب عظيمة جديدة. وذلك انه تصادف مرور عبدي باشا والي الدولة مع اسماعيل بك في حي من أحياء المدينة تصادف انه لم يمر فيه من قبل فسأل اسماعيل بك وهو راكب بجانبه ما اسم هذا الحي فما كاد اسماعيل بك يجاوبه بأن اغلب هذا الحي مأهول بالمسيحيين الا واصدر عبدي باشا امره بهدم بيوت هذا الحي في الحال فتدارك كبار الاقباط الامر قبل تنفيذ الهدم ووعدوا بدفع ٣٥٠٠٠ خمسة وثلاثين الف ريال دفع السوريون منهم سبعة عشر الفاً والباقي دفعه الاقباط

قوة اسماعيل بك في الحقيقة محصورة جداً في حد معلوم لان الاميرين مراد وابرهيم كانا لا يزالان عاصين [1] وواضعين يدهما على صعيد مصر لغاية شمال المنيا

وظلت احوال الضيقات والمرائر والشدائد العظيمة تتوارد بضعة سنين. اذ يقول الجبرتي ان في ذلك الوقت. كان دولاب الاعمال وحركة الاشغال العمومية واقفة بالمرة وكنا نشعر بتعاسة اكثر مما رأينا طول ايام حياتنا. من ذلك ان الطرق تخربت وما كان يوجد نقطة واحدة في أمن من السلب والنهب والبطش بالمارة اذ لو لم تقع تلك المصائب بواسطة الامراء المماليك يمارسها العرب البدو. وهكذا كانت الحال في جميع انحاء القطر اذ لم يكن احد يأمن على حياته او ممتلكاته. وحتى قافلة الحج الى مكة لم تنج من رجال الخطف والنهب. وكان اسماعيل بك يجتهد عبثا في تقوية مركزه باستجلاب الجنود الالبانية والرومليه من بلاد الدولة العليه فان هذه الجنود الغريبه كانت تزيد بزور جديدة في الشقاق والنزاع بين الالايات المختلفه في الجيش

(١) يقول الجبرتي في تاريخه انه في سنة ١٧٨٩ وصل لتركيا سفير هندي من قبل السلطان حيدر الهندي يطلب من سلطان العثمانيين مساعدته في حربه ضد الانكليز في الهند فقال له السلطان عبدالحميد ان يذهب الى مصر ويطلب رجال القرعة منها. ويقول الجبرتي لما حضر هذا السفير الى مصر وصار يجمع الذين يريدون التجند معه لم يتبعه كثيرون من المصريين كما كان ينتظر

وفي اوائل ربيع سنه ١٧٩١ م (١٢٠٥ هـ) اصيبت البلاد بوباء عظيم لانه كان كثير الوقوع في هذه البلاد التعيسه في بحر العصرين السابع عشر والثامن عشر. وقد مات اسماعيل بك بالوباء بين الالوف الذين ماتوا به. فبموته خلى الجو لرجوع الاميرين مراد وابراهيم الى القاهرة وكان قد اختاف الامراء الباقين بالقاهرة فيما بينهم على منهم يخلف اسماعيل في امارة البلاد. فدخل الاميران مراد وابراهيم القاهرة في يونيو أو يوليو من تلك السنه واعترف بهم الباقون والشعب انهما اسياد البلد الاصليين واصبحا حاكمي البلاد ثم رأيا ان عائليتهما هلكتا وممتلكاتهما قد بيعت ووضعا ايديهما على ممتلكات الامراء الذين ماتوا بالوبأ وتزوجا بارملاتهم وحازا عبيدهم وجواريهم. وأمرا الجنود السوريين والالبانيين الذين استحضرهم اسماعيل ان يغادروا البلاد حالاً في ظرف ثلاثة ايام.

وفي تلك السنة ايضاً لم يرتفع فيضان النيل لدرجة تذكر بالمرة فعجز محصول البلاد عجزاً عظيما وكان ذلك زيادة تعاسة وشقاء للاهالي. فصار مراد بك وابراهيم بك يطوفان شوارع المدينة ويقبضون على التجار الذين يبيعون الغلال باسعار فاحشة للاهالي تخفيفاً لاحوال المجاعة فلم يجد ذلك نفعاً لانه بعد أن يذهب الاميران الى سبيلهما من امام التاجر يعود لبيع الحبوب باسعار فاحشه جداً. اما الاميران فقد خزن لانفسهما اشواناً ملآنه بالغلال من الوجه القبلي لكن كانت هذه الغلال مخزونة في منازلهم ولا يفرطون للبيع أو للتصديق منها للاهالي الذين يموتون

جوعاً. ولذلك يقول الجبرتي سادت في طول البلاد وعرضها احوال الظلم والاستبداد وعدم العدل.

وفي سنة ١٧٩٣ هجم العرب مرة ثانية على قافلة الحج وقتلوا اغلب الحجاج ونهبوا ما يمتلكون. فقامت ثورة عامة من المصريين على الاميرين لانهما لم يقوما بايقاف ذلك العدأ فانقلب عليهما المصريون عموماً مسلحين وغير مسلحين ولم يتمكن الاميران من الخلاص من هذه الثورة الا بعد أن استكتبا كبار مشايخ الاسلام باتمام اصلاح طريق الحج وتامينه على الحجاج ووضع حد لتلك السرقات والنهب والسلب ويرسلا المرتبات المعتاده الى مكه حتى لا يعد للعرب سبيلا للاعتدى على الحجاج. ولكن بالاسف لم يدم العمل بهذا القرار الا مدة شهر فقط وعاد بعده السلب والنهب اكثر مما كان اولا. وكانت حالة مصر الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر اردأ من كل حالاتها في القرون التي تقدمت هذا القرن من بعد الفتح الروماني. اذ اندثرت صناعتها وكسدت تجارتها وانتكست حالتها الى حالة الهمج والبربرية التي ذهبت بتمدن السودان وذهبت ايضاً بارض مصر الخصبه وتمدن مصر التاريخي ولكن بفضل الاوربايين الذين كانوا فيها وقتئذ وبفضل تعضيدهم بالامتيازات الدولية التي لدولهم تمكنوا من استبقاء شرارة الحياة التجارية الضعيفه التي كانت باقيه لمصر لانهم لم يكونوا غير مرتاحين لتلك الحالة الآيلة الى الدمار. وان الفرنساويين الذين كانوا وقتئذ محلمون بغزو وفتح بلاد كل العالم نسوا أن الفرصه تمد لاحت

والوقت قد دنى في احتلال مصر

الفصل الحادي والسبعون

دخول الفرنساويين

سنة ١٧٩٨ مسيحية و١٥١٤ للشهدا و ١٢١٢ للهجرة

وصل بونابرت العظيم الى مرفأ الاسكندرية في اول يوليو سنة ١٧٩٨ بسبعة وثلاثين الفاً من رجاله ولما رسى بدراعته خارج المرفأ أرسل قارباً لداخل المنيا يستقدم فيه القصل الفرنساوي للمداولة معه قبل الابتداء في اعماله الحربية . فلما ذهب اليه القنصل اخبره انه في ٢٨ يونيو اي قبل وصوله بيومين كان الانكليز تحت قيادة نلسن هنا في مياه الاسكندرية يبحثون على أسطول الفرنساويين . ولما وجدوا انه لم يشعر بهم احد في الاسكندرية اقلعوا مسافرين ثانياً للبحث على الفرنساويين في بحر الروم . ومع ذلك مدة وقوف الاسطول الانكليزي في مياه الاسكندريه كان تمكن الاميران نلسون في الاسكندرية من مقابلة السيد محمد كريم محافظ القاهرة وحذره من الخطر القادم المحدق به من الفرنساويين . ولكن حكام مصر المسلمين لارتكانهم واثتمانهم وهي

الملة المتولدة فيهم من الجهل بتقدير الاحوال والظروف قد رفضوا كل مخالفه او مساعده من جانب الانكليز

اذ قال محافظ القاهرة ومن كان حاضراً معه في الاسكندرية من الحكام المسلمين للاميرال نلسون ان البلاد ملك السلطان فلا يمكن للفرنساويين أو غيرهم أن يمسوها بشيء . فما كان من الاميرال الانكليزي الا انه انسحب من الاسكندرية باسطوله . ثم ارسل السيد محمد كريم الى القاهرة يخبر رجالها بما كان . فقوبل هذا الخبر هناك بذات الاحتقار وعدم التصديق الذي قوبل به في الاسكندرية . وصار الامراء يتباهون معتزين بعظمتهم الفارغة جهراً امام الناس قائلين ان كل الاوربايين عموماً لا يمكنهم الوقوف امامهم لحظة واحدة في ميدان القتال وان واجهوهم في معركة لا يكون نصيبهم الا السحق فقط تحت حوافر خيولهم (خيول الامراء)

وبعد سفر نلسون بثلاثه ايام ظهر الاسطول الفرنساوي في مينا الاسكندرية لاعين الناظرين . فاندهش حاكم الاسكندرية وأرسل رسالة مستعجلة مختلفة المعنى كثيراً الى مراد بك بالقاهرة يقول له فيها (مولاي: ان الاسطول الذي اقترب لنا تماما اراه كثير العدد جداً وغير ممكن معرفة اول بوارجه الحربية من اخرها فاستحلفك بالله ونبيه أن ترسل لنا بعض رجال من جيشك .)

فلما وصلت هذه الرسالة الى مراد بك ركب وتوجه تواً الى منزل

زميله ابرهيم بك (وهو مستشفى القصر العيني الآن) واخبره بما كان فعقدا مجلساً منهما ومن رجال الحكومة . فصرفوا وقتاً طويلا في لوم واتهام بعضهم بعضا في اهمالهم لوصول الخطر لهذه الدرجة واخيراً اتفقوا على ان مراد بك يقود جيشه ويسير به متجهاً نحو الاسكندرية على شاطئ النيل الايسر ليقابل جيش الفرنساويين وابرهيم بك يحتل بولاق بجيشه ويحتفظ معه قوة عظيمة للدفاع عن القاهره اما ابو بكر باشا الطرابلسي والي الدولة العلية ارسل رسولاً سريعاً الى القسطنطينية يطلب المدد .

وفي اثناء ذلك كان مركز جميع المسيحيين في القاهرة اوروباويين ووطنيين حرجاً جداً وحياتهم في غاية الخطر . وذلك لان المسلمين اجتمعوا في ديوان الحاكم وقرروا ان اول الوسائط التي يتخذونها عند اقتراب الفرنساويين هي قتل كل مسيحي في القاهرة في مذبحة عمومية . وقليل من المسلمين الذين كانوا يعرفون سوء عاقبة هذه السياسة وصعوبة هذا العمل الفظيع في مثل هذه الظروف ولكن كان الامير ابرهيم بك اكثر تودداً للمسيحيين من زميله مراد . فوعد بالاستمرار على حمايتهم وحافظت زوجته على كثير من العائلات الاوروباوية . اما الاقباط فكان المسلمون يسبونهم ويلعنونهم كل يوم بطريقة علنية ويهددونهم بالذبح والنهب في اول فرصة . ثم هجم المسلمون على كنائسهم واديرتهم ومنازلهم بالسلاح ويقول الجبرتي انه بكلمة واحدة من الحاكم المسلم اصبحت كل البلاد المصرية في لحظة واحدة مرسحاً للسرقات والمذابح بعد ولا يحصى

ونزل بونابرت بجيوشه الى البر في الاسكندرية بدون ادنى مقاومة ولا كفاح . وتسلقت جنوده في الحال اسوار الطوابي المتهدمة وحصنتها تحصينا تاما جعلها امنع من العقاب .

اما الحكام المسلمون فظلوا داخل تلك الطوابي يقذفون النيران من فتحاتها مدة قليلة ولكنهم سلموا للفرنساويين بعد ظهر ذلك اليوم بلا شرط ولا قيد وتركوا امرهم للمنصورين عليهم يفعلون بهم ما ارادوا لكنهم ما فعلوا بهم الا خيراً .

اما السيد محمد كريم فسلم نفسه لبونابرت بعد أن تيقن بفشله وخذلانه فعينه حاكماً اهلياً للمدينة تحت امرة القائد كليبر الذي تركه بونابرت مع ثلاثة الآف عارب بصفة حامية للاسكندرية . وتأسس في الحال مجلس بلدية مؤلف من بعض الاعيان وكبار التجار وانزلت المطابع من السفن الى البر وجهزت لطبع الاعلانات والمنشورات والقوانين والاوامر باللغة العربية وهي التي كان يصدرها نابوليون بونابرت مدة اقامته في القطر المصري . وكان معنى تلك المنشورات تقريباً من معنى واحد وملخصها الحض على مساعدة المصريين المهضومي الحقوق كي يتنفسوا الصعداء وتحريض الطبقة الواطية من المصريين للقيام بمساعدة منقذيهم (الفرنساويين) من الاستبداد وجور المماليك . وبهذه المنشورات أيضاً تاكيدات عظيمة بان الفرنساويين هم في الحقيقة ونفس الامر مسلمون حقيقيون وبها ايضاً تهديدات بالعقاب الصارم الذي

يقع على من تظهر عليه اقل مخالفة أو معارضه [1] . وقد تكلم بالتفصيل التام عن هذه المنشورات الثلاث المؤرخون العظام الذين كتبوا عن الاحتلال الفرنساوى لمصر وهم المستر ريم في كتابه (مصر الفرنساوية) وعبد الرحمن الجبرتي في كتابه (تاريخ مصر في عصر الفتح العثماني) والمستر باتون في تاريخه (تاريخ الثورة المصرية)

وقد برح بونابرت مدينة الاسكندرية في ٧ يوليو من تلك السنة زاحفاً بجيشه الى الرحمانيه وقد تعب رجال جيشه جداً من العطش وشدة الحرارة طول ذلك اليوم — ولما وصل الرحمانيه ارسل الجنرال دوجوا مع اورطة من الجيش الى رشيد لحماية الاوربيين هناك الذين كانوا في خطر عظيم . وبعد وصول الجنرال المذكور لرشيد ونجاحه في مأموريته استأنف بونابرت السير بجيشه زاحفاً الى القاهرة فكانوا كلما مروا على قرية وجدوها خربة خالية من السكان الذين كانوا بمجرد شعورهم باقتراب

(١) من اعظم غلطات نابوليون في السياسة اعلانه عن نفسه انه مسلم ومصادقته للمسلمين بمجرد وصوله للديار المصرية — فانه لم يصدقه أي فرد من المسلمين في اعترافاته بالاسلام بل ادى هذا الاعتراف الى أن المسلمين مزجوا رعبهم من الفرنساويين بنوع من الاحتقار — وكان هذا الاعتراف بالاسلام من نابوليون نازعاً ثقة المسلمين خاصة في كل ما يختص بالفرنساويين وعادماً كل الثقة والامانة في عموم الافرنج وهذا الاعتقاد من المسلمين كان لنا اول مساعد ذو قيمة عظيمة في معاملتنا للشرقيين ومن اعظم زلات نابوليون ايضاً الزامه كل الخاضعين له بلبس الوردة الحريرية المثلثة الالوان .

الفرنساويين يحملون كل ما يمكنهم حمله من ذخائرهم ويهربون هائمين على وجوههم وقد صادف جيش بونابرث صعوبات والآم قاسية جداً لشدة احتياجه للمؤونة .

وتقابل الفرنساويون عند شبرابيس بمراد بك ومعه ٤٠٠٠ من المماليك الراكبين ووقعت بين الطرفين موقعه هائلة انتهت بانهزام مراد بك وانسحب متقهقراً نحو القاهرة تاركا مدافعه وذخائره الحربية في طريقه . وانتقى له موقعاً في امبابه وحصنه جيداً عند ضفة النيل وجاء ابراهيم بك امامه في الضفة الاخرى من النيل عند بولاق وبنى له حصناً حربياً منيعاً وهكذا ينتظران العدو وصده عن الدخول للمدينة .

وفي ٢١ يوليو وصل الجيش الفرنساوي الى امبابه وابتدأت المعركة العظمى في ذات اليوم بين الفرنساويين والمصريين وكانت تلك المعركة الهائلة هي القاضيه على حظ مصر — وقد ابلى المماليك في هذه المعركة بلاء حسناً ولكن رجال جيشهم كانوا غير محصورين داخل النظام العسكري بل كانوا يحاربون كلهم في جهاد بدون اتباع تعليمات قوادهم وبالاجمال فان محاربتهم كانت غير منتظمة كالاحوال الحربية من بدأ اشتباكهم مع الفرنساويين — وبعد اشتداد المعركة بين الطرفين بضع ساعات هرب مراد بك متقهقراً وتبعه من معه من المماليك ووقف بضع ثوان امام قصره في الجيزه حيث تمكن من اخذ اموالة وذخائره وكنوزه وهرب الى الوجه القبلي مسرعاً بدون انتظام . لانه علم أن المماليك الذين تركهم في

وجه الفرنساويين في امبابه قد وقعوا في مذبحة عظيمة وكثيراً منهم اغرقهم الفرنساويين في النيل ولكن اغلبهم ذبحوا كالاغنام في وسط المعركة . ولما سمع ابراهيم بك بضياع كل شيء ترك حصنه في بولاق وفر هارباً مع بكر باشا الى القاهرة .

وكان الرعب قد اخذ ماخذه في قلوب جميع سكان القاهرة وهرب من يقدر على الهروب الى الوجه القبلي وتضاعفت اجر دواب النقل التي يؤجرها القوم في حمل اموالهم وذخائرهم . وفي يوم السبت كان طيار الفارين والهاربين جارفاً جداً ولكن مع الاسف ما كاد يصل اولئك المنكودي الحظ الى بوابات المدينة الا وصادرهم العرب البدو وانقضوا عليهم انقضاض الباشق على العصفور بايعاز من ابراهيم بك الذي استدعاهم لهذا الغرض بل كانوا يسلبون الاموال والذخائر والكنوز من اصحابها ويمزقون ملابس النساء ويصيرونهن عرايا بعد من كرامة معظمهن وكان يقع ذلك حتى لنساء الطبقات العليا من المصريين وكل من يبدو منه ادنى علامة للمعارضة أو المقاومة رجلاً كان أو امرأة ذبح ذبحا اما الذي يمكنه أن يعود ثانياً الى منزله داخل المدينة فانه يعد نفسه سعيداً بنجاته من ايدي اولئك السالبين . ويقول الجبرتي (في كل تاريخ مصر لم ير السكان ليلة ارعب واكثر هولاً وفزعاً من تلك الليلة . ومن ترتعد فرائصه لسماعه بتلك الاهوال فكم تكون احواله متى شاهدها)

دخل الفرنساويون القاهرة يوم الاثنين واتخذ بونابرت له مركزاً في القصر الذي كان بناه حديثاً احد الامراء في الازبكية . واشتغل بونابرت في هذا المركز بتأسيس ديوان لحكومة القاهرة مثل الديوان الذي اسسه في الاسكندريه . وعين الجنرال ديبوي رئيس الديوان بصفة محافظ للقاهرة . وعين الجنرال بوسلين مديراً عاماً للمالية المصرية . وكان رجال ذلك الديوان مؤلفين من اثنين من كبار المشايخ من سلالة عربية مصرية وثلاث مماليك انتخبهم هذان الشيخان واثنين افرنج من مستوطني الديار المصرية قديماً . وكانت اول اوامر بونابرت لهذا الديوان فرض تحصيل ٥٠٠٠٠٠ خمسماية الف ريال من الاهالي لسد حاجيات الجيش الفرنساوي — وقد سمح لرجال جيشه بنهب منازل المماليك اما جميع المصريين الذين كانوا يخافون أن يسلبوا كالمماليك كانوا يتحصلون على بارات الحماية من بونابرت ويعلقونها على ابواب منازلهم فلا تمسها ايدي السالبين . اما الامن العام فكان عظيم جداً بدرجة لم تشاهدها مصر من اجيال مضت . وفرض بونابرت غرامات وعقابات صارمة على الاهالي الذين لا يكنسون ويرشون الشوارع ويضيئون القناديل على ابواب منازلهم . ورفع كل البوابات الخشبية الكبيرة التي كانت مستعملة من مدة جيل أو اثنين لتغلق على كل شاوع أو حارة فتجعله مستقلا عن باقي شوارع المدينة — وهو حذر عظيم من الاهالي وقت حكم المماليك — وقصد بونابرت من رفع هذه البوابات هو أن ينفذ الشوارع على

بعضها فيتمكن بذلك رجال الطوافه من الحامية الفرنساوية من اختراق كل الشوارع ليلا حفظاً الامن وتعين المسيو م . سامويل برنارد ناظراً للضربخانة المصرية واستمر صك النقود على الطريقة القديمة العاديه وعليها طغرآء السلطان العثماني الحاكم .

وبعدئذ ارسل بونابرت القوة اللازمة من جيشه للبحث على ابرهيم بك الذى هرب من امامه بمن معه من المماليك الى الوجه البحري . فاشتبكت القوتان في معركة هائلة كان النصر فيها حليف الطرفين وان كان كل منهما يطلب النصر لنفسه واخيراً فر ابرهيم بك في اغسطس الى سوريا والتجأ الى الجزار في عكا

واتفق انه في اول اغسطس رجع الاميرال نلسون الى الشواطىء المصرية مقتفياً اثر الفرنساويين — والقت بوارجه الحربية مرساتها بالقرب من خليج ابو قير — حيث كان راسيا الاسطول الفرنساوي

وفي غروب شمس ذلك اليوم ابتدأت معركة ابو قير البحرية الشهيرة وظلت حتى ظهر اليوم الثاني من اغسطس الى ان انتصر نلسون على الفرنساويين بعد ان حطم كل بوارجهم الحربية ولم يبق منها الا اربعة اصبحت اسيرة للاسطول الانكليزي

ووقع خبر انهزام الاسطول الفرنساوي وتحطيمه كالصاعقة على كل فرنساوي في مصر . وبذل بونابرت جهده ليخفف من اهمية الامر على عقول الاهالي ولما علم بان احد السوريين الذي تجرأ على قول الحقيقة عن

الاسطول عاقبه عقاباً صارماً — ولكن شعر المسلمون وعلموا رويداً رويداً بحقيقة الامر وقبل مضي شهرين على ذلك اقاموا ثورة هائلة في القاهرة . وفي الواقع ان فضائل الفرنساويين كانت ضد اميال المصريين بقدر ما كانت رذائلهم . ولذا اجتهد المصريون باغرأ وتحريض كل طبقات الامة في جميع انحاء القطر ضد الفرنساويين — اما المماليك فكانوا طبعا اعداءهم الالداء — كذا العرب والمسلمون المصريون استقبحوا امر اسلام الفرنساويين الكاذب — وتذمروا جداً من النواهي والمحذورات البيروقراطية المقضية التى لا يمكن لفرنساوي ان يحكم بخلافها — وسخطوا على الاوامر والتعليمات الصحية التي قضت بتفتيش المنازل الخصوصية حتى اماكن الحريم — وزادهم سخطا وحنقا امر الترخيص للجنود الفرنساوية بهتك اعراض النساء الوطنيات (١)

اما الاقباط فلم يستقبحوا فقط اعتراف الفرنساويين الكاذب بالاسلام بل ايضاً لم يغشوا ضمائرهم باعتقادهم امكان بقاء امة عظيمة كالامة الفرنساوية بلا دياته بالمرة كما كانت هذه حالة الفرنساويين تلك الايام . وكان الاقباط يلقبون الفاتحين بالقوة الكاثوليكية

(١) لم يدهش المصري اعجاباً في وقتنا الحاضر اكثر من كيفية سلوك جنودنا الاحتلالية في هذا الامر — وهو تقريباً الامر الوحيد الذي لاجله جميع سكان القطر المصري يمدحون الانكليز حتى انهم يقولون (انهم حتى لا يثقون بالعسكري المسلم المستقيم تثقهم بالعسكري الانكليزي)

الرومانية وهي القوة التي كانت تجتهد دائما بضياع بلادهم ووطنيتهم .

اما سبب الثورة التي قامت ضد الفرنساويين في ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٩٨ فكان الداعي فرض جزية على المنازل بالقاهرة بامر نابوليون . ذلك أن مشايخ وعلماء الازهر كلفوا تلاميذهم بدعوة جميع المسلمين الى الجامع الازهر — فلما اجتمعوا كلهم وخطب العلماء في وسطهم خطب التحريض هبوا جميعا في ثورة عامة وكان اول هجومهم على منزل الجنرال كفاريلي — ثم اقاموا المتاريس والحواجز في الشوارع وصاروا يقبضون على كل الفرنساويين المارين في الشوارع ومن ضمنهم اربعة من اعضاء المجلس العلمي الفرنساوي وحكومة بونابرت وذبحوهم جميعا عن اخرهم وبالمثل ذبحوا كثيراً من الاقباط — بهذه الطريقة — ولكن اولئك المسلمون الجهلاء الاوباش ما امكنهم التحفظ على الروابي والمتاريس الحربية التي ملأت المدينة من الشمال والشرق فانهم في اليوم الثاني صاروا ينقضون تحت المدافع الفرنساوية وصدرت الاوامر للمشايخ يطلبون منهم ارشاد الثائرين للخضوع فقابل اولئك الثائرين تلك الاوامر بالاحتقار فصدرت اوامر بونابرت بالابتداء في اطلاق القنابل

وبعد اطلاق القنابل بشدة بضع ساعات خصوصا على الجامع الازهر واحياء سيدنا الحسين تنازل عناد الشيوخ وسلموا . فدخل الفرنساويين المدينة وهدموا المعاقل والحصون والمتاريس واحتلوا الجامع الازهر وادخلوا فيه خيولهم وجعلوه كالاصطبل بل كسروا القناديل

ومحوا الايات القرآنية المنقوشة على جدران الجامع وقبضوا على كثيرين من العوام والخواص وقطعوا رؤوس كثيرين من الطبقات الوسطى وكتب بونابرت نفسه في خطاب خصوصي للجنرال رينيه انه في تلك الظروف كان كل ليلة يقطع ثلاثين راساً من اجسامها ارهابا لباقي الثائرين

وكان الجنرال ديسيه قد قام بامر بونابرت في فرقة من الجيش مقتفياً اثر مراد بك في النيل حيث كان مقيما عند الفيوم يجدد قوته الحربية فوقعت بينهما اول معركة في ٨ اكتوبر عند جهة يقال لها سدمنت الجبل بقرب مدينة بني سويف انتهت بانهزام مراد بك انهزاماً تاماً وخسر الفرنساويين ٤٠٠ قتيل وجريح . واحتل الجنرال ديسيه اقليم الفيوم وترك فيه حامية من رجاله وكر وراء مراد بك مقتفيا اثره في صعيد النيل الى أن عثر به ووقعت بينهما معركة شديدة في ٢٣ يناير سنة ١٧٩٩ هزم فيها ايضاً مراد شر هزيمة وفر هارباً ووراه الفرنساويون يطاردونه الى أن احتلوا حدود مدينة اصوان فاستمر مراد في هروبه الى أن دخل بلاد النوبة فاكتفى الفرنساويون بمطاردته لهذه النقطة ولم يتوغلوا وراءه في النوبة ولو انهم احتلوا جزيرة انس الوجود وحصنوا اصوان وعند عودتهم الى القاهرة قابلهم احد البكوات المماليك الهائمين في عرض البلاد مع كثير من من اتباعه ووقعت بين الطرفين عدة مناوشات عنيفة في مدينة طيبة (الاقصر)

وفي اثناء ذلك كان الفرنساويون مطمئنين بالمرة على ثبات مركزهم بمصر الا أن الانكليز سدوا عليهم الطريق باحتلالهم جميع الشواطي المصرية فمنعوا بذلك اي مدد يأتيهم من بلادهم وعلاوة على ذلك فان الاتراك كان يستعدون لاعادة مصر لقبضتهم بواسطة الزحف عليها من طريق سوريا فعزم بونابرت مبدئياً أن يكون بجانبهم

وحوالي اخر يناير سنة ١٧٩٩ غادر بونابرت الديار المصرية عن طريق العريش ومعه ١٥ الف جندي ولما سار الى العريش ضرب اهلها فسلموا له بعد مقاومة بضع ايام واعاد حامية المماليك الذين كانوا فيها الى القاهرة ووصلوا تلك العاصمة اسرى وتفرج عليهم كل اهلها . ثم ظل نابوليون سائراً في طريقه الى يافا فهجم عليها وامتلكها في ٥ مارس سنة ١٧٩٩ فاختبأ من حاميتها ٤٠٠٠ محارب في خان بها ثم عرضوا تسليم انفسهم اليه على شرط حفظ حياتهم والا يستمروا في المحاربة دفاعاً عن انفسهم حتى يموتوا في ساحة الوغى — فقبل الفرنساويون هذا الشرط وقدموا الاربعة الاف رجل اسرى الى بونابرت فرفض امضاء هذا الشرط الذي قبل به اركان حربه مع تفهيمهم له أنهم قبلوا ذلك الشرط تجنباً من اجراء مذبحة بلا فايدة وبعد يومين امر بونابرت بذبح الاسرى المذكورين فذبح رجاله الاربعة الاف اسيراً ذبح الانعام فكانت مجزرة هائلة تقشعر منها الابدان على شاطيء البحر . وكان هذا العمل الفظيع مشوها التاريخ بونابرت بين جميع الشعوب

وقد هدم بونابرت بعمله هذا الفظيع كل اساطير نجاحه في سوريا لان كل مسلم في بلاد سوريا سمع بحادثة يافا هذه صار يفضل أن يحارب مستقتلاً ويموت في ساحة الحرب عن أن يسلم نفسه للفرنساويين وعلاوة على ذلك فان الاربعة آلاف جثة التي تركها بونابرت على شاطيء البحر بدون دفن قد انتنت وافسدت الهواء فسببت انتشار الطاعون انتشاراً هائلا اكتسح عدد عظيم من رجال الجيش الفرنساوي .

وسار بونابرت الى عكه قاصداً فتحها عن سلم من رجال جيشه من الطاعون — ولكن صار في شدة الاندهاش لما وصلها ورأى في مياهها اسطولا انكليزيا مستعداً للدفاع عنها . فابتدأ في محاصرتها يوم ١٨ مارس سنة ١٧٩٩ ولكن ذهبت كل تدبيراته في اخذها ادراج الرياح لان السير سدني سميث ومن معه من الضباط الانكليز بذلوا كل جهدهم في الدفاع عن المدينة . ثم تقدم الجنرال سدني سميث قائداً بنفسه الجيوش الانكليزية واشتبك مع الفرنساويين وبعد نزال قليل خلص المدينة من ايديهم بعد أن استمروا في محاصرتها مدة شهر تقريباً وقد هجم الفرنساويون فجأة عليها في اليومين الاخرين من الحصار فخسروا مالا يقل عن ٧٠٠ رجل . فايقن بونابرت بذلك أن حملته على سوريه عادت بالفشل وصمم على العودة الى مصر — فارسل جواباً الى ديوان القاهرة الذي اسسه اعلن به انه لم يترك حجراً على حجر — لكن رجال القاهرة كانوا على علم تام باحوال بونابرت وما جرى له حتى أن مؤرخهم المشهور عبد الرحمن الجبرتي

ضحك كثيراً على جواب بونابرت وعدد ستة عشر سبباً كان يمكن لبونابرت أن ينتحلها عذراً لتقهقره من عكا لو كان توخى قول الحق في جوابه للمصريين

تقهقر الجيش الفرنساوي بانتظام الى يافا لكنه صادف في طريقه صعوبات هائلة — لان يافا كانت ملانة بالطاعون وزاد عدد المرضى والجرحى حتى اصبح من المستحيل على بونابرت ايجاد وسائط لنقلهم معه — واخيراً فرز عدداً عظيماً من الغير القادرين على المشي منهم وشحنهم في قوارب وامرهم بالسفر الى دمياط بحراً — وسار هو ومن معه براً الى العريش ولكن اولئك الذين تركهم في البحر لما لم يكن عندهم من الماء والمؤونة ما يكفيهم ولعدم وجود البحارة القادرين على تسيير القوارب بحراً اضطرهم اليأس أن يتجهوا نحو بواخر الاسطول الانكليزي الذي كان راجماً ايضاً من عكا الى مصر مقتفياً اثر بونابرت . فاستقبل السير سدني سميث هولاء البؤساء بكل رقة وحنو وانزلهم في بواخره الحربية على الرحب والسعة وامدهم بكل ما كانوا في حاجة اليه وارسلهم بالحرس اللازم الى دمياط

اما المرضى الذين تركهم بونابرت في يافا فقد امتلات بهم المستشفيات وقد كتبت عليهم التعاسة والشقاء . ذلك انه لما اقترب الترك بجيوشهم كانوا ولا يزالون غير قادرين على المسير فلاضطرار نابوليون الى التقدم السريع الى مصر امر رئيس اطباء الجيش ان يسم كل الجرحى ليموتو

او يخلص منهم ويفر مسرعاً الى مصر فابى الحكيمباشي تنفيذ هذا الامر بالكلية والى الآن لم يثبت لنا التاريخ ان كان مساعد الحكيمباشي نفذ امر بونابرت وسمم الجرحى الفرنساويين أو ان الاتراك ذبحوهم عن اخرهم ثاني يوم وصولهم الى يافا

وفي ١٤ يونيو دخل بونابرت القاهرة دخول الفاتح القاهر وعمل لنفسه موكباً عظيماً — بالموسيقي والاعلام — وذكر الجبرتي في تاريخه ان الجنود الفرنساويين كانوا جميعاً في غاية التعب والخوار ووجوههم يعلوها الاصفرار وهو ما تؤيده القرائن كلها

ولما دخل بونابرت القاهرة كان مراد بك قادماً اليها من الصعيد ايضاً بعد أن الف جيشاً عظيماً وقسمه الى قسمين احدهما على شاطيء النيل الشرقي والاخر على الشاطيء الغربي . بينما كانت قوات انكلترا والدولة العلية قادمة بحراً للهجوم على الفرنساويين في مصر . فأسرع بونابرت واشتبك في معركة كبرى مع المماليك وانتصر عليهم . وقد كان مراد بك عازماً على ضم جيشه الذي على شاطيء النيل الشرقي الى جيش ابراهيم بك في سوريا — فجاء انتصار نابوليون ضربة قاضية ووقع في يد الفرنساويين ٧٠٠ جمل محملة بالذخائر وكنوز المماليك الذين تفرقوا بعد هذه المعركة شذر مذر في كل جهة من البلاد .

اما القسم الثاني من جيش مراد بك الذى كان يقوده بنفسه على الشاطيء الغربي من النيل قاصداً الوصول به الى شاطيء البحر عند الاسكندرية ولكنه

لما عرف أن قوة عظيمة من الفرنساويين كامنة له في الطريق عدل عن عزمه وعاد بجيشه الى الجيزة حيث هجم عليه نابوليون نفسه بقوة من رجاله وهزمه شر هزيمة فاضطر ان يفر هاربا ثاني مرة الى الصعيد .

وفي ١٥ يوليو سنة ١٧٩٩ سمع نابوليون باقتراب الاسطول العثماني من ابو تير فقام في الحال بجيشه لملاقاته ووصل الاسكندرية في ٢٣ منه فوجد الجيش العثماني قد نزل من المراكب الى البر . وكان السير سدني سميث مرافقاً للعثمانيين باسطوله وقد نصحهم بكل انواع النصح أن يحصنوا مركزهم جيداً ضد الجيش الفرنساوي القادم بسرعة من القاهرة فلم يسمعوا نصحه فاضطر الى ارسال بعضا من جنوده ليعززوا هذا التحصين ويكونوا مثالا للجنود العثمانية فلم يات ذلك بفائدة ولم يمكنه بهذا الصنيع أن يتغلب على جمود وفتور همة العثمانيين . فلما وصل الفرنساويون بدأ الاتراك باللاهتمام لتحصين موقفهم ولكن قد سبق السيف العزل واشتبك الفرنساويون معهم حالا في معركة هائلة كان النصر فيها حليف نابوليون حيث هزم العثمانيين شر هزيمة واستولوا على معاقلهم وزخائرهم ومدافعهم وهرب كثير من الاتراك عوماً في البحر ولجأوا الى المدرعات البريطانية . اما الترك الذين كانوا داخل طابية الاسكندرية فرفضوا التسليم للفرنساويين وصرفوا وقتهم في الدفاع وبعد محاربة سبعة ايام باطلاقه المدافع خرجت الحامية من الطابية بلا سلاح وسلمت للفرنساويين وطلبت منهم الرحمة . فاسر نابوليون القبين

منها وأسكرته خمرة هذا النصر ولكنه مع الاسف لم يدم طويلاً حيث لحقه الخزلان في اليوم نفسه كما ترى . —

ذلك ان نابوليون كان قد سمع اخباراً غير حميدة عن الجمهورية الفرنساوية في نشأتها الحديثة واراد الوقوف على اخبار اكيدة يعلم منها الحقيقة ويطمئن بها على بلاده . وقد قال المسيو ريم المؤرخ ان نابوليون اتفق مع السير سدني سميث على مبادلة الاسرى . وهذه هي عبارة هذا المؤرخ الفرنساوي القلة على سوء تصرف نابوليون وتسرعه في الحكم على الامور قبل فحصها قال :

« لم يكتف السير سدني سميث الانكليزي بقبول طلب نابوليون فقط بمبادلة الاسرى بل اكرم مثوى الضباط الفرنساويين الذين اتوا له حاملين اقتراح مولاهم نابوليون وعاملهم بكل رقة وعطف وعرض عليهم ان يأخذوا كل الجرائد والمراسلات المتأخرة التي صادرها اثناء ورودها للقائد العظيم بونابرت من فرنسا لانه قال لهم انه واثق ان لا الضباط ولا خواص الفرنساويين في الجيش الفرنساوي يحزنون أو يستأون باستلامهم انباء واخبار وطنهم الذين مضى عليهم زمنا طويلا وهم متغربون عنه . قال المسيو ريم امكننا في مثل هذه الظروف ان نقول بان بونابرت شرع في قبول تقدمة كان يرجو أخذها ؟ أو من الضروري القول بان عدونا أخفى لنا خدعة حربية تحت طبقة شفقته وهي التظاهر بالعطف على رجالنا واظهار حسن نيته ؟ لماذا رغب الجنرال سدني سميث اذاً في ايصال

اخبار اوربا لنا لو لم يكن قد سبق له العلم بفاجعة فرنسا المشؤومة . وهو لم يعمي نفسه بالسرور الخبيث والانشراح الحقدي بحزننا وما يجب ان نشعر به من الاسف نحو حالة بلادنا فقط بل عرف ايضا علاوة على ما تقدم ان تلك الجرائد التي يقدمها لبونابرت ستهيج اعصابه وتوجد عنده رغبة شديدة نحو سرعة ايابه لاغاثة وطنه وبهذه الرغبة الفجائية يعتبر بونابرت نفسه سعيداً بمبارحة مصر حالا ولو بشروط صلح وتسليم »

« فيالها من سعادة لسيدني سميث حيث تمكن بدهائه بواسطة هذه الخدعة من اكتساب ما بذلت انكلترا كثيراً من القرابين والذبائح بلا جدوى لاكتسابه! أذ لو فرضنا وهجر بونابرت جيشه وخرج بمفرده لمقابلة سدني سميث لكان هذا الاخير أخذه اسيراً ومتى وقع بونابرت اسيراً فلا ريب ان الفرنساويين كانوا يغادرون الديار المصرية في الحال » . انتهى

والتعليق على هذه الحادثة لا حاجة اليه الآن لكن يمكن يقال بان الجنرال الانكليزي سيدني سميث لم يكن يتوقع تاويل وتفسير بشاشته ورقته البسيطة للفرنساويون بهذا النمط . اما الجنرال الفرنساوي فعمل ما كان ينتظره مواطنيه منه تماماً

وعلى اثر هذه الحادثة عزم نابوليون على ترك جيشه في مصر والرجوع الى اوربا لكي يمثل على مرسحها حركاته العسكرية واعماله المألوفة . وقد كان متالما من كل شيء عمله في رحلته الى الشرق اولا لفشله في

سوريا ثانياً لحالة الحكومة الاصلحية التي اسسها في مصر على بطيء ولم تكن على ذوقه في النهاية . ثم عدل عن ذلك ورجع الى القاهرة ودخلها دخول الفاتح القاهر ثانية . وفي الحال تخابر سراً مع الجنرالين برتييه وبوريين والاميرال جانتيوم واطلعهم على نواياه ثم امر الاميرال برتييه المذكور أن يجهز الاربع البوارج الحربية الباقية من جميع الاسطول الفرنساوي الذي اعدمه الانكليز دون أن يشعر بذلك الاميرال الانكليزي . ثم افهم عامله الجنرال كليبر بانه متوجها الى رشيد وعين له يوم ٢٤ اغسطس لمقابلته هناك . وبينما هو يخدع الجنرال المذكور بهذه الوعود الكاذبة كتب ايضاً الى الاميرال جونتيوم بانه سيبارح الديار المصرية يوم ٢٢ اغسطس لانه قد سمع بان اخر بارجة حربية انكليزية بارحت مياه الاسكندرية يوم ١٧ منه وهذا كل ما كان بونابرت ينتظره لمبارحة مصر .

غادر نابوليون بونابرت القاهرة في ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ الى الاسكندرية ومنها ابحر الى فرنسا . وذاع امره للجيش المعسكر بقرب رشيد فاستعد كليبر بجيشه لذلك الرحيل . ولكنه لما وصل الى رشيد عرف بالخدعة التي عملها معه نابوليون وبمجرد وصوله اليها وصله خطاباً من نابوليون يخبره فيه بانه عهد اليه بالقيادة العامة في مصر نيابة عنه ومنحه ايضاً سلطة ابرام الصلح مع سلطان تركيا اذا كان يرى ذلك مناسباً . اما كليبر فغضب جداً من هذا الامر الذي اتاه معه نابوليون وحنق

حنقاً عظيما ورجع في الحال الى القاهرة واصدر اعلاناً للجيش في ٢٦ ستمبر سنة ١٧٩٩ يعلن فيه سفر نابوليون الى فرنسا بدون ما يخبر احداً بذلك وان قوة الجيش الفرنساوي صار تخفيضها الى نصفها وان اعداء الفرنساويين اصبحوا ثلاث قوات عظمى وهي تركيا وانكلترا وروسيا وليس المماليك المصريين واشار الى الحاله التي اصبح عليها الجيش الفرنساوي وخاصة من قلة وجود الكساوي . ومع أن بونابرت كان قد حصل الضرائب من الاهالي سلفاً فانه ترك نقصاً في ميزانية الجيش نحو اثني عشر مليونا من الفرنكات .

وكان لم يزل لمراد بك قوة حربية عظيمة في الصعيد واخذت جيوش الاتراك ترد من سوريا بطريق البر علاوة على الاسطول العظيم الذي ارسلوه لدمياط . فلما راى كليبر حرج موقفه في وسط هذه الصعوبات الهائلة اعلن عزمه على مفاتحة السلطان في عقد الصلح معه

وقد هجم الجيش العثماني اول مرة على دمياط فرده الجنرال كليبر على اعقابه ولكنه عرف أن موقفه اصبح صعبا ولا رجاء له بالنجاح فابتداء بمخابرات الصلح في شهر نوفمبر اولاً على ظهر باارجة السير سدني سميث وبعد ثذ استئناف المخابرات مع الصدر الاعظم الذي كان حضر مع الجيوش التركية وعسكر بها في جهة العريش . على أن هذه المخابرات لم تنجح لان الاتراك كانوا بدؤا بالهجوم على العريش وظهر أن النصر سيكون حليفا لهم خصوصا لتمرد جنود الفرنساويون على ضباطهم في تلك

الجهة وتمنعهم عن محاربة الاتراك

على انه رغما عن ذلك كله قد نجحت مخابرات الصلح على نوع ما وامضيت معاهدة بذلك في العريش يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ تقضي بان يسمح الانكليز والعثمانيين للجيوش الفرنساوية باخلاء الديار المصرية مع المحافظة على شرفهم العسكري ومجدهم الحربي

ففرح المصريون بذلك فرحا عظيما وفرضوا على سكان القاهرة ضريبة تقدرها ثلاثة الآف كيس من الجنيهات دفعوها بسرعة ونشاط وابتهاج على سبيل المساعدة للفرنساويين لاجل سرعة رحيلهم من بر مصر

وفي اثناء ذلك وصلت رسالة الى الجنرال كليبر من الاميرال كيث القائد العام للاسطول البريطاني في البحر الابيض التوسط بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٠٠ يقول فيها انه تلقى من لندن اوامر صارمة من جلالة ملك انكلترا نفسه تقضي عليه بان لايسمح للفرنساويين بمغادرة مصر قبل أن يسلموا سلاحهم وبوارجهم ومهماتهم الحربية التي لهم في مينا الاسكندرية .

فاضطرب كل من السير سدني سميث وكليبر لانقلاب الحالة لهذه الدرجة وكتب سميث يحتج على اذلال واهانة الجيش الفرنساوي بهذه الحالة التي لايستحقها . اما كليبر فرفض رفضا باتا أن يخلي مصر بهذه الشروط . ولما ضغط عليه الصدر الاعظم بسرعة الانسحاب من القاهرة لان الوقت المعين لذلك بموجب معاهدة العريش قد انقضى . التزم أن

يستعد للقتال . وكان قد ضاعف قوة جيشه بانضمام الحامية الفرنساوية التي كانت في صعيد مصر اليه وفي ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ اشتبك مع الترك في معركة هائلة عند عين شمس بضواحي القاهرة دارة فيها الدائرة على الاتراك فانهزموا امام الفرنساويين شر هزيمة وفروا من وجه كليبر فتبعهم واخذ يطاردهم بشدة حتى اوصلهم الى الصالحية . غير انه في اثناء ذلك قامت ثورة اخرى ضد الفرنساويين في القاهرة — ذلك أن ناصف باشا القائد العام للجيش العثماني تظاهر بالهروب من امام الفرنساويين وتركهم يطاردون الصدر الاعظم ودار هو من خلفهم ورجع الى القاهرة فدخلها فاتحاً باسم السلطان وابتداء عمله فيها بذبح جميع الاقباط ونهب كل الاحياء المسيحية واستفحل شر التعصب الاسلامي بحالة فظيعة في جميع انحاء القاهرة حتى صار الاتراك والمسلمين يبحثون عن كل مسيحي فيذبحونه بلا شفقة ولا رحمة وكانوا يذبحون كل الرجال ويفضحون النساء ثم يجلدوهن عرايا ويقطعون روس الاطفال امامهن . ودامت هذه الحالة الفظيعة مدة يومين كاملين قبل أن يرجع الفرنساويون من مطاردة الصدر الاعظم وقبل أن تصل الى اهالي القاهرة انباء انتصارهم في هليو بوليس (عين شمس) فلما علم المسيحيون من الاقباط والسوريين بعودة الفرنساويون اخذوا يفرون من المدينة ويلتجون اليهم بواسطة تسلق الحيطان ونحو ذلك وكان الفرنساويين قد قطعوا طريق الدخول الى القاهرة من جهة النيل . اما ناصف باشا فلما رأى بان لا قدرة له على

مقاومتهم ولا الوقوف امامهم قد اخلى القاهرة لهم ولكن المتعصبون من المسلمين قاموا عليه ومنعوه من ذلك ولما كان عددهم مؤلفا من اكثر سكان القاهرة فلم يعد في وسعه مخالفتهم

على أن الفرنساويين احتلوا بولاق عنوة واداروا فيها السلب والذبح ومنها قصدوا القاهرة وعملوا فيها الالغام تحت ابوابها التي كانت مقفلة حتى نسفوا بعضها ودخلوا منها الى المدينة ظافرين منتصرين . ويقول الجبرتي في تاريخه أن تلك الليلة كانت اتعس وارعب الليالي التي مرت على سكان القاهرة في ذلك العصر لان الفرنساويين لم يكتفوا بالذبح والسلب والنهب بل كانوا يحملون مشاعل ملأنة بالزيت والاسبرتو ويشعلون بواسطتها كل شيء يصادفونه في طريقهم

وعلى اثر ذلك امر الجنرال كليبر باقامة زينة فاخرة في القاهرة مدة ثلاثة ايام احتفالا بدخوله اليها منتصراً على الاتراك وبمجرد دخوله امر بجمع غرامة (١) من اهالي هذه المدينة التعيسة قدرها ١٢ مليون فرنك بصفة عقاب لهم . ثم عقد محالفة مع مراد بك زعيم المماليك الذين كان جل مجيء الفرنساويين الى مصر لقصد ابادتهم من ارضها . وبموجب

(١) وعهد كليبر جمع هذه الغرامة الى احد اعيان الاقباط المدعو يعقوب الذي كان ثابتاً وحافظاً مركزه ضد ناصف باشا مدة ثلاثة ايام في منزله . وقد ذكر الجبرتي في تاريخه حالة الفقر المدقع الذي وقع فيه المسلمون بسبب هذه الغرامة بكيفية تتألم منها عواطف القارئ

تلك المعاهدة تصرح لمراد بك أن يبقى متسلطاً على بلاد الصعيد على شرط أن يمد الفرنساويين بكل مساعدة تلزم لهم ضد الاتراك

بقي الفرنساويون وجيوشهم متروكين في الديار المصرية بعد رحيل بونابرت عنها تحت قيادة قائد واحد بات في حرج وزاد موقفهم صعوبة في ظرف آخر ثم ساءت احوال ذلك القائد واصبحت ظروفه خطره محفوفة بالهلاك وقد دخلت فعلا في دور الهلاك الحقيقي واليك البيان

في يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ كان الجنرال كليبر يتمشى بعد الانتهاء من مائدة الفطور في حديقة الجنرال داماس فانقض عليه فجأة احد المسلمين المتعصبين في لباس الانكشارية وقتله فآلت القيادة العامة بعد ذلك للجنرال مينو الذي اعتنق الاسلام كما فعل قبله كثيرون من الفرنساويين امثاله استجلاباً لرضاء المسلمين واقترن بابنة احد سكان القاهرة من الطبقة الواطية

واول شيء عمله الجنرال مينو هو انه فصل الجنرالين لامس وداماس من خدمة الجيش الفرنساوي وكانا معارضان له في اعماله ثم رفت كل المسيحيين الموظفين في ديوان القاهرة الذي انشأه بونابرت من وطنيين واجانب وسلم كل الاعمال لجماعة من المسلمين استبدوا بها كثيراً ثم جعل الاحوال الشخصية المتعلقة بالميراث والزواج ونحوه خاضعة لمنطوق الشريعة الاسلامية

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٠١ لما رأى الاتراك فشلهم وعجزهم التام عن

اخراج الفرنساويين من الديار المصرية — جاء بغتة اسطول انكليزي يحمل خمسة عشر الف محارب والقى مرساه في خليج ابو قير . ولكن كان عدد هولاء الجنود من الانكليز اقل بكثير عن عدد جنود الفرنساويين لان الذين خرجوا منهم بواسطة الانكليز بعد ثذ كانوا ٢٤٠٠٠ جندياً وكان الجيش الفرنساوي قد امتاز على الجيش الانكليزي بمعرفة احوال ومواقع البلاد المصرية واعتياده على طقسها

وقد نزل الخمسة عشر الف جندي انكليزي الى البر بالرغم عن معارضة الجنرال فرايانت قائد الحامية الفرنساوية بالاسكندرية واستعدوا لمقاتلة الفرنساويين وساروا متجهين الى الاسكندرية وهناك اشتبك الفريقان في معركة هائلة دامت عدة ايام الى أن وصلت النجدة من القاهرة الى الحامية الفرنساوية فمازت هذه وخسر الانكليز ١١٠٠ رجلاً . ولكنهم بالرغم عن هذه الخسارة العظيمة ظلوا ثابتين في مركزهم حتى اتتهم النجدة من انكلترا

وعند وصول المدد للجيش الفرنساوي من القاهرة بقيادة الجنرال مينو اشتبك هذا الاخير مع الانكليز ايضاً في معركة دموية هائلة كان الظفر فيها الى الانكليز فتقهقرت الحامية الفرنساوية الى الاسكندرية بعد خسارة ١٧٠٠ رجل

على انه قد جرح في هذه الموقعة قائد الجنود الانكليزية الجنرال السير رالف ابركرومبي وابت عليه شهامته التخلف عن القتال لاجل هذا

الجرح بل استمر في حومة الوغى حتى انتهت المعركة فاصابه من ذلك ضرراً كبيراً بسبب استمرار نزيف الدم من جراحه بحالة تعزر شفائها وتوفى على الاثر فحزن عليه الانكليز حزناً عظيماً . وعهدوا بالقيادة العامة على جنودهم الى الجنرال هنستس وقد وصلته نجدة جديدة قدرها ستة الاف محارباً من الانراك والارناؤوط وكان يرأس احد فرق الارناؤوط ضابطاً تركيا بسيطاً ساعدته الاقدار بعد ذلك وصار والياً على مصر هو المرحوم محمد علي باشا الشهير

وقد استمر القتال سجالاً بين الفرنساويين من جهة والانكليز والانراك من جهة اخرى الى يوم ١٩ ابريل من تلك السنة وفيه سلمت حامية رشيد الفرنساوية سلاحها الى الجيش الانكليزي والتركي — وقد قطت هذه الجيوش خط الرجعة على الجنرال مينو الفرنساوي الذي كان معسكراً في الاسكندرية بواسطة هدم الجسر الضيق الذى كان قائماً بين ابو قير وبين اراضي بحيرة مريوط القديمة (وهي الاراضي التي لا تزال مغمورة بالمياه الى الآن) فاضطر الفرنساويون على اثر ذلك الى ترك مركزهم في الرحمانية ووصلت اخبار انكسارهم مبالغاً فيها الى القاهرة فنشاء عن ذلك حصول هياج شديد اوجب الفرنساويين الى عمل منشورات الى سكانها النساء يؤكدون لهم فيها أن الجنرال مينو سيرجع الى القاهرة قريباً مكللا بالظفر على الانكليز الذين مات منهم كثيرون بالدوسنتاريا والرمد والجوع والعطش وان كثيرون منهم فروا من

معسكرهم والتجأوا الى معسكر الفرنساويين الذين انسحبوا من دمياط بخدعة حربية ليغشوا الانجليز ويهلكوهم عن اخرهم

وفي ذلك الوقت كان الاضطهاد على الاقباط عظيماً وفي كل يوم يقتل منهم خلق كثير ولكنهم كانوا يقابلون المصائب بالصبر وكان الفناء محدقاً بهم من كل جانب فسلموا امورهم لله وعولوا على أن يقاتلوا في سبيل حفظ عرضهم ودينهم الى اخر نقطة من حياتهم . اما يعقوب احد اعيانهم الذي كان يعتبر عميدهم في ذلك الحين وهو الذي ذكرنا خبر تحصنه في منزله ثلاثة ايام ثابتاً للدفاع ضد هجمات المسلمين وقت مذبحة ناصف باشا . قد وجه كل همته في هذه الظروف الحرجة ايضاً للدفاع عن جميع اخوانه الاقباط الموجودين في القاهرة فاشتغل زمنا طويلا في تدريبهم على مقاومة أي هجوم يقع عليهم حتى يمكنهم المدافعة عن ارواحهم وممتلكاتهم ثم جند منهم فرقة عظيمة ودربهم على الحركات العسكرية وسلحهم بطريقة منظمة حسب نظام الجيش الفرنساوي نفسه وكان معظم الذين انتخبهم لهذا الغرض من اقباط الوجه القبلي وكان الجميع خاضعين لاوامر يعقوب ويقبلون تعليماته الخاصة بالدفاع عن بني جنسهم بكل فرح وابتهاج . وابتدأ يعقوب بهدم كثيراً من البيوت التي تخربت في الحوادث الاخيرة فى الاحياء التي كان يقطنها الاقباط (١) وبنى

(١) هجر الاقباط حيهم بعد ذلك الحين . وهو الموجود الان بكلوت بك وكان من ضواحي القاهرة ولم يبق من الاحياء القبطية القديمة غير اما كنهم في حارتي الروم وزويلة

من انقاض تلك الخرائب سوراً عالياً منيعاً حول الحي الذي جمع فيه كل الاقباط اخيراً وشيد فوقه الابراج القوية من داخل هذا السور وعمل للسور بوابتين عظيمين ورتب جنديين قبطيين يقفا بالتوالي على كل باب والسلاح على اكتافهما بصفة حراساً يمنعون كل غريب من الدخول ووضع لذلك نظاماً عسكرياً حسب النظام العسكري الفرنساوي كما شهد الجبرتي بذلك وقد نشأ عن هذه المساعي العظيمة والاجرآت الكبيرة التي قام بها ذلك البطل المقدام الجنرال يعقوب ان الامة القبطية قد نجت من مذبحة فظيعة تشيب من هولها الاطفال وقعت عند احتلال الاتراك للقاهرة ثانية. وقد تخرب ذلك الحي الذي استعمله يعقوب كحصن أو طابية حربية بعد تلك الايام بقليل ثم هجره الاقباط لما سمحت لهم الظروف بالخروج منه بعد اطمئنانهم على حياتهم . ويعقوب نفسه لم يعد في وسعه الاقامة في تلك الحصون بعد خروج الفرنساويين من مصر ورجوع الامر والنهي في البلاد للاتراك وحدهم فاضطر الى ترك الديار المصرية وخرج مع الجيش الفرنساوي ومعه اكثر رجال فرقته القبطية ولم يعد في وسعه الرجوع لارض اجداده خوفاً من الاستبداد فمات في فرنسا بعد مهاجرته اليها ببضع سنوات . ومن دواعي التعاسة التي توالت على مدينة القاهرة في تلك الايام انتشار الطاعون فيها بدرجة مريعة جداً مات بسببه يومئذ خمسمائة رجل من الحامية الفرنساوية وكانت وطأة الطاعون في الصعيد اكثر منها في القاهرة وافنى هذا الداء القتال خلائقاً

كثيرة وخرب بلاداً برمتها خليت من السكان بالمرة . ومن جملة الذين ذهبوا ضحية ذلك الوباء القتاك مراد بك زعيم المماليك مات به في بني سويف فالتزم ابرهيم بك وكيله ان يسلم مقاليد اموره الى الجنرال هتشنسون الفرنساوي لانه كان شيخاً هرماً ولا قدرة له على المحاربة

وفي ١٠ يونيه سنة ١٨٠١ اصدر الفرنساويون منشوراً لجميع سكان القطر المصري هذه صورته

(ليكن معلوماً لدى جميع سكان هذه الديار ان القطر المصري اصبح من جملة املاك الدولة الفرنساوية . فضعوا هذا الامر نصب أعينكم وآمنوا به اتقاء لرؤوسكم كما تؤمنون بوحدانية الله . فلا تغرون ولا تغشون انفسكم بالفاتحين القادمين فانه ليس في مقدرتهم شيئاً يأتونه ضدكم ولا ضد الفرنساويين فاولئك الانكليز هم لصوص كافرين وليس في وسعهم اتيان اي عمل غير بذر بذور الشقاق والخصام بين الشعوب وبغضها والعمل على تهييج كل امة ضد الاخرى)

وفي ١٦ يونيه حاصر القاهرة الجيش المتحد من الانكليز والترك والمماليك . وبينما هو يأهب للهجوم على القاهرة في يوم ٢٢ منه اخذ قائد الجنود الفرنساوية في فتح باب المخابرة مع قواده في امر الصلح وقد اوقفت هذه المخابرات اهوال وفظائع كثيرة كان لا بد من حصولها لو بدىء في القتال وفي ٢٦ منه انتهت المفاوضات وامضيت معاهدة بين الطرفين مفادها ان الجيش الفرنساوي يخلي مدينة القاهرة

ويبرح الديار المصرية كلها عن طريق رشيد . وما انقضى يوم ١٠ يوليو حتى اصبحت القاهرة خالية من الجيش الفرنساوي وقد حل محله الجيش الانكليزي ولما كانت الاوامر المعطاة الى الجنرال هتشنسون تقضي عليه بطرد الفرنساويين من القطر المصري بدون تعرض لمسألة ضمه الى انكلترا فلذلك قد التزم ان يسلم مدينة القاهرة الى الاتراك وسار بجيشه الى رشيد حتى يلاحظ نزول الفرنساويين منها الى البحر ويطمئن على مبارحتهم البلاد المصرية

وصل رشيد فباشر سفرية ١١ الف من العساكر الفرنساوية وثلاثة الآف من الملكيين التابعين لهم حيث انزلهم بنفسه في المراكب البحرية في تلك الميناء على أن بعض افراد الفرنساويين رغبوا البقاء من انفسهم في البلاد المصرية وتظاهروا باعتناق الدين الاسلامي حتى تطيب لهم الاقامة فراى الجنرال هتشنسن بانه لا خوف من تخلف هولاء الافراد في الديار المصرية فتركهم لشأنهم وسافر الى الاسكندرية حيث حاصر باقي الجيش الفرنساوي الذي كان لا يزال معسكراً فيها وقد كان عند هذا الجيش الوقت الكافي الذي يتمكن فيه من الاستعداد لمقاتلة الانكليز ومنعهم عن محاصرتهم ولكن الجنرال مينو تكاسل عن ذلك كثيراً حتى ضايقه الانكليز والزموه بان يمضي معهم عهداً في ٢٩ اغسطس من تلك السنة يقضي باخلاء الاسكندرية ومبارحة الديار المصرية حالاً

واراد الانكليز ضبط المجموعات العلمية والرسومات والتآليف التي اتمها اعضاء اللجنة العلمية الفرنساوية في القطر المصري وهي اللجنة التي اسسها نابوليون في القاهرة عقب احتلاله لها . ولكنهم عدلوا عن ذلك اجابة لرجاء وتوسلات العلماء الفرنساويين التي قدموها بطلب اعفاء مؤلفاتهم وذخايرهم العلمية من أن تلحق بها المصادرات الحربية

ومما لا ريب فيه أن مباحث ومجهودات اللجنة العلمية الفرنساوية التي رافقت حملة نابوليون العسكرية قد اتت بفوائد عظيمة باهرة جداً هي في الحقيقة اهم بكثير من عمل الحملة الفرنساوية نفسها التي لم تستفد منها فرنسا ولا مصر الا الخسائر الجمة والمتاعب الكبيرة والتعاسة الكبرى بلا فائدة . بينما الكتاب والعلماء الذين درسوا وبحثوا ورسموا وجمعوا والفوا اثناء تلك الحملة قد قدموا للعالم خدمات جليلة ومؤلفات نافعة هي اهم واعظم ما يقرأ في تاريخ مصر . وما عدى ذلك لا يشاهد الانسان الآن من اثار احتلال الفرنساوي لمصر الذي دام من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ غير طواحين الهوا الباقية انقاضها الى اليوم على تلال القاهرة وبعض كتابات منقوشة على الحجر ترى هنا وهناك على صخور النيل وشيء قليل من اثار قنابل المدافع ظاهرة الى الآن على جدران بعض الجوامع الكبرى في القاهرة

ولم يكن الانكليز يتوقعون خروج الفرنساويين من مصر بهذه السهولة ولذلك كانوا مستعدين لهم بقوة عسكرية كبرى من الجيوش

الهندية تبلغ ٦٠٠٠ هندياً بقيادة الجنرال برد علاوة على الجيش الانكليزي نفسه الذي كان على اهبة السفر الى مصر عند اول اشارة

اما الجنرال برد المذكور فقد جاء الى حدود مصر بالجيش الهندي بطريق البحر الاحمر ونزل في ميناء القصير وسار براً من القصير الى قنا ومن قنا سار محاذياً للنيل الى الوجه البحري وكان سكان الوجه القبلي يهللون به اثناء مروره عليهم غير انه وصل الى القاهرة متأخراً حيث تصادف وصولها اليها حال انسحاب الجيش الفرنساوي منها فاضطر هذا الجيش الهندي أن يعسكر بجزيرة الروضة عدة اسابيع ثم سافر بعد ذلك بحراً عن طريق رشيد

وقد صادف الاقباط الشدائد والاهوال اثناء الاحتلال الفرنساوي بما لا يمكن التعبير عنه . فان الفرنساويين بالرغم عن اعتناق كثيرين منهم الديانة الاسلامية قد استخدموا كثيراً من الاقباط في مصالح البلاد العالية وساووا بينهم وبين المسلمين في كل شيء الا مر الذي اوجد الحقد والغيظ والكراهة الشديدة عند المسلمين ضد الاقباط (حتى أن الجبرتي وهو في مقام المؤرخ لم يتمالك عن اظهار حقده وسخطه كما تراه مسطراً في تاريخه ولا سيما حينما يرى الاقباط يركبون الخيل ويحملون السلاح مثل المسلمين) ومن الغريب أن الاقباط كانوا داعماً اول المضطهدين سواء وقت الاضطرابات والثورات التي حصلت في بدء الاحتلال الفرنساوي أو في الثورات التي قامت ضد الفرنساويين عند احتلالهم للبلاد أو في

وقت خروجهم منها . وعند مبارحتهم مصر عم السلب والنهب والقتل فيهم بدرجة لا تطاق حتى أن مساكنهم كلها تقريباً عمها الدمار والخراب والذين سلموا منهم من الموت بعد خروج الفرنساويين بنوا لهم منازلا جديدة وكنيسة جديدة بدل التي تخرب لهم

وكان البطريرك القبطي على عهد الحملة الفرنساوية الانبا مرقس الثامن وهو من اهالي طموه بمديرية الجيزة وكان قد انتظم في سلك الرهبنة بدير انبا انطونيوس وانتخب بطريركا بالقرعة الهيكلية وبارتقاءه للعرش البطريركي غير الاساقفة اسمه الاصلي من يوحنا الى مرقس حسب عادة الكنيسة القبطية . ونأتي هنا بفلذكة من اعماله نقلا عن المصادر القبطية الاصلية . فقد ذكر المستر بتلر المؤرخ الانكليزي أن الشعب القبطي في ايامه قاسى من الضيقات والاحزان والبلايا والنوائب والنكبات والمصائب والشدايد مالا يحصى وحصل كل ذلك بنوع خصوصي في السنتين اللتين عقبتا ارتقائه الى الكرسي البطريركي ووجد مذكوراً في تاريخه العبارة الاتية « أن خلقا كثيرون من بلاد الافرنج يقال لهم الفرنساويون اتوا وامتلكوا مصر فقام ضدهم سكان القاهرة فكانت الحروب سجالا بين الطرفين مدة ثلاثة ايام فالتزم البطريرك بتغيير محل اقامته من حارة الروم الى الازبكية . ثم اتي وزير من بلاد تركيا مصحوباً بجماعة من الشعب الانكليزي وطردوا الفرنساويين من مصر . وتألم الشعب القبطي كثيراً على يد الفرنساويين فتخرب كثير من الاحياء القبطية واسبعت

خالية خاوية كالصحراء وهدمت وخربت كنائس عديدة وقاسى البطريرك ذاته مصائب عديدة وهي التي الجأته لتغيير اقامته من حارة الروم الى الازبكية حيث بنى بطركخانة عظيمة وكنيسة كبرى دعاها كنيسة ماري مرقس الانجيلي وهو اول بطريرك سكن الازبكية وكان دائماً مشغولاً ومهتماً في بنا وترميم الكنائس والادبرة التي تخربت وكان دائماً متيقظاً وساهراً على الوعظ والتبشير بين شعبه ويبذل اقصى جهده في تعليمهم اللاهوت وطريق الصلاح ليلا ونهاراً وقد رسم عدداً عظيما من الاساقفة ولما تنيح مطران الحبشة ووصله وفد مؤلف من اعيان ورهبان وكهنة تلك البلاد حاملا اليه جواب من امبراطور الحبشة يرجوه فيه تعين مطران جديد لتلك البلاد اجاب طلبهم ورسم لهم مطراناً جديداً باحتفال عظيم وأرسله مع الوفد الى الحبشه مزوداً بالدعوات والبركات وكثيراً من الكتب والمواعظ المشتمل اغلبها على مبادىء العقيدة الارثوذكسيه الصحيحه لانه سمع بهرطقه كثير من الاحباش » انتهى

اما بطريرك الاسكندريه اليوناني الذي كان معاصراً للاحتلال الفرنساوي فهو بارتنيوس من اهالي بلدة باتموس من اعمال اليونان وغالباً انه هرب من الديار المصريه اثناء ذلك الاحتلال حيث لم يعثر له على اي عمل في التاريخ يثبت وجوده فيها في ذلك الحين .

اما نائب بابا روميه وقتئذ فكان الاب متى . ومما يحسن ذكره هنا أن حالة الكاثوليك واليونان لم تكن يومئذ باحسن من حالة الاقباط الاصليين

الفصل الثاني والسبعون

محمد علي باشا

سنة ١٨٠٢ مسيحية و١٥١٨ للشهدأ و١٢١٧ للهجرة

بعد انسحاب الفرنساويين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا اميرال الاسطول العثماني لا يزال في ابي قير والاسكندرية .

ولم يترك الاتراك فرصه اعادة امتلاكهم للبلاد المصرية بدون القيام فيها كعادتهم بتقديم مذبحة دموية علامة امتلاكهم أو رجوعهم الى التسلط على كل قطر قبل رحيل الانكليز من مصر حصلت مذبحتين احداهما في الاسكندرية واخرى في الجيزة وهاتان المذبحتان قللتا عدد المماليك البكوات . ذلك أن يوسف باشا دبر لهم مكيدة مع زميله حسين قبطان باشا فاتفق الاول أن يهجم عليهم في الجيزة ويقتلهم واتفق الثاني على أن يدعو الاخرين في وليمة بابي قير باسم الجنرال هتشنسون الانكليزي لانه لو كانت الدعوى من غير الجنرال المذكور لما اجيبت . وقال قبطان باشا في دعوته ان غرضه من الاجتماع بهم في معسكره المفاوضه معهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لاصلاح حالة البلاد فاجابوا دعوته وهم في ريبة

من مقاصده على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوه خشية من ارتياب العثمانيين والانكليز في مقاصدهم . فلما وصلوا ابا قير رحب بهم حسين قبطان باشا ودعاهم الى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معاً الى الجنرال هتشنسون الانكليزي بحجة المفاوضه معه على ظهر دراعته في بعض الشؤون فركبوا حتى صاروا على مسافة من البرنخاً قارب صغير من جهة الدوارع وقال من فيه انه لديهم تحرير باسم قبطان باشا من جلالة السلطان ومخابرات اخرى مهمه وكان ذلك حيلة دبرها الباشا الذي ركب حالا ذلك القارب الصغير وسار به وبقي المماليك وحدهم فارتعبوا واذا بعدافع العثمانيين تنصب عليهم فعرفوا المكيدة ثم ابتدأ ملاحون القارب بالذبح فيهم . فالتزموا أن يلتجئوا بالانكليز لوثوقهم بهم اكثر من الاتراك الذين نكصوا بعهدهم وقد ذبح منهم الاتراك سبعة والباقين اصيبوا بجراح كبيرة والقوا بانفسهم في البحر وعاموا حتى وصلوا الى المراكب الانكليزية لان البر كان بعيداً . ويقول الجبرتي ان الانكليز اغتاظوا وحنقوا جداً على هذا الصنيع فدخلوا الاسكندرية وطردوا كل الاتراك منها ثم قفلوا كل بواباتها واشغلوا حصونها برجالهم ودعوا الاتراك للخروج لمحاربتهم فكان جواب الاتراك انه لم يسبق لهم مخاصمة مع الانكليز فلا يريدون محاربتهم وظلوا ساكنين في خيامهم . وقال الجبرتي ايضاً مثبتاً باندهاش واعجاب ان الانكليز ليس فقط اعتنوا بالبكوات المجروحين ومنهم عثمان بك البرديسي بل ايضاً دفنوا المذبوحين باحتفال

عسكري واحترام عظيم كانهم من عظماء الانكليز

اما المكيدة التي عملها يوسف باشا بمماليك القاهرة فانه ارسل فرقة تهاجمهم في الجيزة فوثب عليهم جنود الاتراك وقتلوا منهم عدداً كثيراً وحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز فحموهم رغماً عن اصرار يوسف باشا على طلبهم . وقد ادهش المصريون واعجبهم كثرة اعتدال الانكليز وحسن صنيعهم وخلوص نيتهم . وقد قال الجبرتي مستفهما لماذا يتركون البلاد للسلطان بعد وقوعها في قبضة ايديهم يأخذوها لانفسهم حالاً . واثبت الجبرتي ايضاً نتيجة مباحثه دارت بين المسلمين في هذا الموضوع فقال : انهم انتهوا في بحثهم على ان الله سبحانه وتعالى اكراماً للدين الاسلامي قد غطى على بصيرة الانكليز واعماهم عن النظر الى صالحهم الخصوصي حتى اهملوا انتهاز تلك الفرصة السانحة .

وقد وقع المسيحيون وعلى الخصوص الاقباط في آلام مرعبة هائلة من جراء تعصب الاتراك وذلك ان الجنود التركيه ابتدأت ان تتسلط عليهم فتفرقت في احيائهم وصارت تنهب وتسلب وتفتك فيهم كل آونة واخرى.

وقتل يوسف باشا ثلاثة من اكابر الاقباط بحجة انهم كانوا يساعدون الفرنساويين على الاتراك واخذت كل اموالهم وممتلكاتهم وبعد ذلك بقليل امر ايضاً بقطع رأس المعلم ملطي القبطي الذي كان رئيساً لديوان الحقانية ايام الفرنسيس فالتزم كل من يقدر على الفرار منهم ان يهرب من

القاهرة ويختفي من وجه الاتراك . وبعد ذلك أيضا اخذ الاتراك شيئاً فشيئاً يطلبون مبالغ طائلة من هذه الطائفة النصف مائة بصفة غرامه أو فدية عن انفسهم وبعد مبارحة الانكليز للمياه المصريه اصبحت احوال البلاد رديئة جداً وتاريخ الجبرتي ملآن وجه بعد وجه بتفصيل اهوال مظالم واستبداد الاتراك وقبائح وكبائر وفواحش جنودهم التي ارتكبوها ضد الاقباط خصوصا والمسحيين عموما بدون رادع ولا قصاص .

وبعد انسحاب الجنود الانكليزية بسبعة اسابيع بقت البلاد تتنازع في يد العثمانيين فرأى يوسف باشا الصدر الاعظم الذي كان في القاهرة ضرورة تولية والي عثماني على مصر فعين نكيا حسين قبطان باشا وهو شاب من مماليكه المقيمين بالقاهرة اسمه خسرو اناضولي الاصل ولما كبر تحرر وارتقاء حتى صار باشا ثم كتب الصدر الاعظم للسلطان يطلب التصديق على تعينه فجاءه الفرمان المؤذن بذلك .

وتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جماد اول سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن للباب العالي سلطة في مصر الى على اسكندرية والقاهرة وكانت باقي البلاد في يد من بقي من المماليك فناهضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن ليستطيع دفع مرتبات الجنود فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م واحاطوا بخازندار ه وحبسوه في بيته فاطلق عليهم خسرو باشا المدافع فتداخل طاهر باشا اركان حربه فاتهمه خسر باشا باتحاده مع العصاه فاغتاظ طاهر وانضم الى جانب العصاة حقيقة وهدم الاسوار فخاف خسرو باشا وهرب بجاشيته

نحو المنصورة وجمع طاهر باشا القضاة واراب الديوان فاقروه على مصر بدل خسرو باشا موقتا حتى يصادق السلطان .

وفي ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر من الجيش ما لاقاه خسرو وذلك ان اثنين من الاغوات في الجيش وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه من تاخير الرواتب فجردا سيفهما وقطعا راسه والقياه من الشباك وحرقوا سرايته . فاصبحت مصر بغير والي .

وفي هذه الفرصة امكن لذلك الرجل العظيم المغفور له محمدعلي باشا رأس العائلة الخديوية اظهار ما اختص به من البسالة والاقدام وما جعله الله فيه من الفضائل التي قدرّ له أن يبثها في هذا القطر السعيد

ولد هذا الرجل العظيم في مدينة قوله من اعمال مكدونيه غربي الروملي . ومن الحقائق المدهشة عن هذا الرجل هي انه ولد من اصل حر أي ليس من الرقيق كاصل المماليك الا انه اصبح الحاكم الاعظم في بلاد لم يحكمها الا الرقيق والمماليك من عدة اجيال . وقد اشهر هذا الرجل نفسه بمهارته في الحروب بفرقته الالبانيه التي كان جندوها ايضاً كلهم من اصل مكدوني مثله وكانوا يحبونه جداً ويتعبدون له طول حياته . وقد لاحظ بفكره الثاقب أن طريق العظمة والسلطان مفتوحان تحت قدميه فابتدأ سيره في ذلك الطريق باتحاده مع المماليك الباقين في مصر وكانوا انفسهم اقل كرهاً في نظر المصريين من الاتراك . فتمكن محمد علي بمساعدة المماليك أن يأخذ مدينة دمياط وقبض على خسرو باشا اسيراً في ١٤ ربيع

اول سنة ١٢١٨ هـ واتى به الى القاهرة وسجنه في القلعة . فلما بلغ الباب العالي ذلك ارسل والياً جديداً وهو علي باشا الجزايرلي (الطربلسي) ولكن في سنة ١٨٠٤ هجم عليه المماليك وذبحوه اثناء عودته الى سوريا .

وفي خلال ذلك عاد رئيس المماليك محمد بك الالفي من انكلترا وكان سافر اليها يطلب مساعدة دولتها وترأس المماليك واصبح ذا حزب قوى ضد محمد علي لان الالفي كان يطمح في ولاية البلاد . فالتزم القائد محمد علي أن يهاجمه فجأة قبل أن يتمكن هذا الخصم من تدابير مكيدة خطره ضده فالتزم الالفي بالهروب الى الصعيد والتجأ بالبدو .

وفي هذه الفرصة طلب قنصل انكلترا مقابلة ابراهيم بك احد المماليك وعثمان بك البرديسي زعيمهم الثاني وقال لهما انه لا يود البقاء بعد الان في هذه البلاد التي يحكمها رجال لا يعرفون يتصرفون بشؤونها وعملهم منحصر في قتل بعضهم بعضاً بمكايد وحيل لا تشكر . ثم انسحب حالا وبارح الديار المصرية قاصداً انكلترا واراد القنصل الفرنساوي أن يفعل مثله فالحوا عليه البقاء . وفي غضون ذلك فرض القائد محمد علي على الاقباط غرامة قدرها مايتان الف ريال كي يتمكن أن يصرف منها مرتبات جيوشه وامر أن خمسين الفا منها يدفعها المعلم غالي وكيل دايرة الالفي وهو قبطي كاثوليكي وثلاثين الفا يدفعها ورثة فيكتور وكيل دايرة عثمان بك البرديسي الذي مات وقتئذ وهو ايضاً قبطي كاثوليكي والباقي يدوه

الاقباط الارثوذكس الاصليين

وبعد ذلك اصبح القائد محمد علي وقد قويت شوكته لا يحترم ولا يبالي بكل الذين لا يهمهم في البلاد الا صالحهم الشخصي ولا يخاف تاثيرهم فهجم فجأة على سراي اكبر مخالفيه وهو عثمان بك البرديسي وهو شركسي واصله مملوك مراد بك فالتزم البرديسي أن يدافع متقهقراً بمماليكه وهرب الى الصحراء في جنح الليل لعدم امكانه مقاومة قوة محمد علي العظمى ثم استدعى محمد علي احمد باشا خورشد محافظ الاسكندرية واقره واليا على مصر بمصادقة المشايخ والعلماء في القاهرة الذين وافقوا دعوة محمد علي وجعلوا ايضا محمد علي قائمقاماً له وصادق السلطان على ذلك في ٢٢ محرم سنة ١٢١٩ هـ (مارس سنة ١٨٠٤ م) ومن دهاء محمد علي انه جعل كل الاموال الازمة لاصلاح البلاد على اللاهالي في عهدة خورشد باشا حتى يقع العيب عليه اذا اساً الناس في تحصيلها اما هو فوقف متحببا للشعب وسار معهم جنبا لجنب ينتقد معهم احوال المظالم والمغارم التي كان الباشا يامر بها .

وفي ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ كانت كل تدابيره ومشروعاته قد افادت في وصوله الى مبتغاه واصبح في ذلك الحين ذا بشاشة ودهاء محبوبا من الاهالي والمشايخ والعلماء حتى وسارو يتوسلون اليه بان يستلم مقاليد حكومة البلاد لانهم ملوا من معاملة خورشد باشا . غير أن محمد علي تظاهر بالامتناع وعدم الرغبة في ذلك فالحوا عليه هم ورجال الجيش ايضاً وقالوا له لا

نرضى الا بك حاكما علينا لما تتوسمه فيك من العدالة والخير فقبل رجاءهم فاحضروا له كركاً وعليه قفطان وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والبساه اياه وبعثوا الى خورشد باشا يعلمونه بعزله . ولكن لم يكن خورشد باشا مثل الذين تقدموا من الولاة سريع الانقياد لاوامر المصريين بل ظل ثابتاً واظهر العناد وقال (اني مولى من طرف السلطان واقبض راتبي من خزينة جلالته فلا أعزل بامر الفلاحين ولا انزل من القلعه الا بامر من السلطنه) ثم حصن نفسه في القلعة واستعد للدفاع

ولما كان محمد علي قد وضع أساس مشروعه على قواعد متينة لم يخف من تهديدات جورشد باشا لان تركيا كانت بعيدة عنه ومصر كلها كانت في جانبه فاستعد لمحاصرة الباشا في القلعة ونصب حولها المدافع وكتب الطرفان الى الاستانه يشتكيان وكان العلماء والمشايخ والاهالي والجند في جانب محمد علي . اوفي هذا الاثناء أطلق مدافعه من سفح المقطم على القلعة والقلعة أطلقت مدافعها على المدينة فدام ١١ حصار القلعة حتى يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ ووصل في يوم ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ الفرمان السلطاني فقرأه في بين محمد على العلماء والمشايخ والاعيان وكان بعنوان محمد على باشا والي جدة (١) سابقا ووالي مصر حالا وكان مضمون الفرمان السلطاني تولية

(١) لان السلطان فى ٢٠ صفر سنة ١٢٢٠ اى قبل توليته على مصر بشهر كان أرسل له خط شريف بتوليته على جده وألبسه خورشد باشا الفروة والقاووق المختصان بهذه الرتبة

محمد علي على ولاية مصر من ابتداء ٢٠ ربيع اول (٢١ يوليو سنة ١٨٠٥) حيث رضي بذلك اهالي مصر وعلماؤها وجيشها وان احمد خورشد باشا معزول عن مصر وانه يتوجه الى الاسكندرية ثم الى القسطنطينية

ولما كان محمد علي على جانب وافر من حسن التدبير والسياسة والعقل الراجح عرف انه بهذا التعيين لم يصل الى اعلى ما تصبو اليه نفسه ولكنه تأكد ان لاجل الوصول الى ذلك لا بد له من اتباع سياسة الحذر والتأني مع الشجاعة والاقدام . ولسوء الحظ كانت وسائط حذره من اعدائه هي الطريقة العامة التي يتخذها كل الشرقيين . ومعنى هذه الوسائط هي الخيانة والغدر ويعقبهما مذبحة عامة .

وكان المماليك منتشرين في البلاد وخصوصا في الصعيد حيث يقيم زعيمها الالفي والبرديسي وقد التف حولهما جمهور من المماليك وتعاهدا مع قبائل عظيمة من البدو . ولما علم الالفي بتولية محمد على باشا على مصر تخابر مع خورشد باشا الذي كان لم يزل في القاهرة ان يتحد معه على عزل محمد على باشا ويعيده واليا ثانيا على مصر ويخضع هو (الالفي) لسلطة الدوله العلية ويضرب بسيفها . ومن جهة اخرى خابر دولة انكلترا ووعدها انها اذا عضدت مشروعه يكون مستعدا ان يسلمها القطر المصري فعرقل قنصل فرنسا مسعاه واخذ يخابر محمد على في امر الصلح

اما محمد على فاخذ في تدبير مكيدة له ومن معه وذلك انه أوحى لاحد رجاله ان يكتب لزعيمي المماليك ان محمد على باشا قد رضي

عصالحتهما وانه يعطيهما رشوة طائلة اذا قدما الى مصر واوعز ايضاً الى عامله الذي كتب ذلك انه عند مجيئهم يدخلهم المدينة في اليوم الذي يكون فيه محمد على واتباعه مشغولين باحتفال جبر الخليج ولكي يخفي حيلته ولا يجعلهم يفهمونها اشار عليهم بضرورة دورانهم حول المدينة ودخولهم من باب النصر حتى يضطروا الى المرور قرب القلعة في طريقهم من منتصف القاهرة الى الحارة المعوجة التي اصبحت الان شارع محمد على المشهور .

فقبل المماليك وزعماؤها دعوة محمد على وفرحوا بالرشوة ولكنهم لم يعلموا انهم وقعوا في المصيدة . ووضع محمد على مكامن من رجاله الالبانيين المخلصين في الطريق وامرهم بالاستعداد لاى اشارة وحالما دخل المماليك في تلك الحارة المعوجه الضيقة انقض عليهم اولئك الالبانيين وأطلقوا عليهم الرصاص بلا رحمه

فطلب بعض قواد المماليك ان يسلموا على شرط ان يحفظوا حياتهم من الموت فتركوهم ولكنهم ذبحوهم كلهم ثاني يوم ما عدا اثنين او ثلاثة دفعوا فدية هائلة عن انفسهم ليؤجلوا ذبحهم . وبعد ذلك أرسل محمد على باشا الى بلده واستقدم عائلته منها الى البلاد المصرية واستعد على توطيد اقدامه فيها . ونجح محمد على في السنتين التاليتين لذلك في احباط مساعي الباب العالي التي توجهت الى خلعه وتمكن بوسائط اخرى تحت ستار التهديد وبواسطه رشاوي علنيه ايضاً من الحصول على فرمان من السلطان

بتثبيته على ولايه مصر في نوفمبر سنه ١٨٠٩ على شرط انه لا يتعرض للمماليك الذين صدر عفو السلطان عنهم. وفي تلك السنه مات عثمان بك البرديسى ومحمد الالفي موتا طبيعيا خلا الجو لمحمد على . ولوان الانكليز ارسلوا حمله الى مصر سنه ١٨٠٧ بحجه ان تثبيت محمد على عليها يخل بنفوذها ولكنهم لما وجدوه قوي السلطه ويعتمد عليه فى حفظ الموازنه بين الاتراك والمماليك بنظام انسحبوا بعد ان احتلوا مدينه الاسكندريه شهرا

ومن ذلك الحين حتى سنه ١٨٤٧ اخذت قوى عقله في انحطاط فآلت حكومة مصر الى ابنه ابرهيم باشا . ومحمد علي لم يحكم فقط على مصر بل ملكها لانه من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨١٠ م قام باعادة تمثيل حوادث السلب والنهب بافظع معانيها فلجأ السلطان سليمان الثاني منه واعد له مكائداً لكنه تمكن بوسائط عظيمه بسبب من التفرد بالملك حيث الغا حجج املاك الاراضي وصادر اصحابها بطرق اخرى مكنته من امتلاك كل الاراضي المصرية لنفسه واعلن من ذلك الحين فصاعداً انه المالك الوحيد لكل الاراضي المصرية وان كل حقوق الملكيه والاقطاعيه تمنح بواسطته فجأت اليه التظلمات والاستعطافات والصراخ من كل طبقات المصريين في كل بلد واقليم فلم يعبأ بها محمد علي وظل ثابت الجأش معتمداً على جيشه الهائل من رجال الارناؤط . فالتزم المصريون البؤساء أن يخضعوا كعادتهم لتلك المظالم الهائلة حيث لم يكن في وسعهم مقاومة

تلك القوة الهائلة (١)

الا انه كان لم يزل في البلاد كثير من المماليك القدماء وكان عددهم كافياً لجعل محمد علي يشعر انه للآن لم يصبح الحاكم المطلق والسيد المتصرف في كل شيء وفي كل نفس في البلاد فعزم على تطهير البلاد من هذه البقية ايضاً حتى لا يقف شيء منها في طريقه.

وفي شهر فبراير سنة ١٨١١ امر بجمع جيوشه لتوديع ابنه طوسون باشا الذي كان مسافراً الى بحيث جزيرة العرب لقمع ثورة الوهابيين الذين كان استفحل امرهم فيها ضد الدولة العلية وكانت حملة طوسون باشا هذه مؤلفة من ٤٠٠٠ محارب اعدها له والده وتعين يوم الجمعة لوداعها ووداع قائدها الى قبة العزب. ولذلك اجتمع لهذا الغرض جمهور الوجهاء والاعيان وفي جملتهم المماليك بملابسهم الفاخرة. وكان ترتيب الاحتفال يقضي بان يسير الجميع بانتظام الى القلعة وامامهم طوسون باشا لكي يلبسه والده الكسوة العسكرية هناك علامة على القاء القيادة العامة اليه في تلك الحملة وقد رافقه عدد عظيم من الجند في هذا الاحتفال

ولما احتشد جمهور الناس في القلعة يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ اول مارس سنة ١٨١١ م وكان محمد علي باشا منتظراً هناك فاستقبل الجميع

(١) قد وهب محمد علي باشا مقداراً عظيماً من تلك الممتلكات المغتصبه الى اتباعه الاتراك ولكن بقي كثيراً منها لنفسه واراضي الدومين والدايرة السنية هي جزؤ من تلك الاراضي المغتصبه من الفلاحين المصريين

في سرايته بكل ترحاب وقدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجميع وبينهم المماليك وجأت الساعة امر محمد علي باشا بمسير الموكب فسار ونزل من القلعة من المنزل الضيق الموصل لباب العزب الذي كان اصلحه محمد علي ببناء سلالم له. وكان المماليك يكتنفهم الفرسان والمشاة في اخر الموكب فلما اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق بين هذا والحوش العالي غلق الجنود الالبانيين (الارناؤوط) ابواب القلعة فجأة باوامر محمد علي باشا وهجم الالبانيون على المماليك وصاروا يذبحونهم والجيوش المنظمه تصب عليهم نار المدافع والرصاص فهلك جميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة فرنساوي الاصل وصاروا مماليكا بعد أن اسلموا ايام الحملة الفرنساوية بسبب عدم حضورهم هذا الاحتفال لدواعي مختلفة

وكان عدد المماليك الذين هلكوا في هذه الحادثة اربعمائة وستين ونجا منهم ايضا مملوكان احدهما احمد بك زوج عديله هانم بنت ابراهيم بك الكبير والثاني امين بك الذي هرب من تلك المصيده الجهنميه لما علم بالمكيدة وكان سبب هروبه حادث (١) غريب ولم يكن هولاء كل ضحايا محمد علي من المماليك فقط بل نودي في المدنية بامر محمد علي وفي سائر البلاد أن كل من يظفر باحد المماليك في أي محل يقبض عليه ويقتله

(١) المتداول على الالسنة أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة وسمع قصف المدافع همز جواده فوثب به من فوق السور الى جهة الميدان فقتل جواده وسلم هو

اينما يجده ففي بضعة ايام بعد ذلك الامر بلغ عدد المقتولين من الامراء المماليك ما ينوف عن الالف وكان بعضهم ايضاً يأتي بمن يمسكه من المماليك الى نحيا بك فيقتلهم ثم نهبت بيوت المماليك المقتولين في مصر وسلبت امتعتهم واعطيت نساؤهم للعساكر التركية الذين اطلقت لهم السراح في سلب ونهب بيوت هولاء المماليك . ومن ذلك الحين اصبح الناس قلما يسمعون باسم مملوك في مصر (١) وكان محمد علي دائما شديد الحذر بعيد النظر فنزل ثاني يوم من القلعة وامر بايقاف القتل والنهب ومنع الالبانيين من قتل المماليك الذين يجدونهم بل صاروا يجمعونهم

(١) غير الذين قتلوا هرب كثير منهم الى جنوب مصر وسكن جزء منهم في مديرية اسيوط و بعض منهم تعاطى تجارة الرقيق في السودان والبعض اقام في بلاد أخرى في الصعيد وامتلكوها وحولوها الى معاقل وحصون يأوى فيها اللصوص وقطاع الطرق . وفي سنة ١٨١٢ م سقط جماعة من المماليك ونهبوا دير الابيات وحرقوا ماية رق عليها كتابات اثرية قديمه كانت بقايا المكتبة القديمة لهذا الدير ولكن ٩٠ في المايه من المماليك ماتوا بحوادث ووقائع قبل أن يبلغوا الخامسة والثلاثين من العمر حتى في ايام عظمة سلطانهم في مصر وكانت ممتلكاتهم وبيوتهم وحريمهم وجواريهم وعبيدهم أن لم يمتلكها قاتلوهم فانها كانت تباع وتضاف اثمانها لخزينة الحكومة والقليل من نسل اولئك الذين كانت سيرة حياتهم حميدة وشريفة اطلق عليهم المصريون لقب عبد اللاوي (أي لا يصلحون لشيء) واصبحوا لا فرق بينهم والمسلمين المصريين

ويسوقونهم كالغنم الى الذبح في القلعة . وبعد نجاح الالبانيين نجاحاً تاماً في حملتهم الشاقه على الوهابيين اظهروا امارات التعب ، فقبض محمد علي على قوادهم ونفاهم حالاً من بلاد مصر وسمح لهم باخذ ما نهبوه في حملتهم . ثم نظم محمد علي باشا جيشه على الذوق الاوروبي وعين له الضباط الكثيرين من الفرنساويين لتدريب الجنود واعتنق بعض من هؤلاء الضباط الفرنساويين الديانة الاسلامية واسس مدرسة عسكرية في الخنكه وايضاً مدرسة للطوبجيه في القاهرة ومعامل تسبك المدافع واصطناع جميع حاجيات الجند بمناظرة المهندسين والمرشدين من الفرنساويين . وقد كان محمد علي باشا رجلا ذا مقدرة وقوة على القيادة ولا يشوب ارادته ومقدرته أي مانع ديني أو مبدأ اخر يعوق اغراضه فكان غير متعصباً بل الذي جعله نصب عينيه في حياته أن يكون سيد الديار المصرية ولذا قد بذل كل جهده في القضاء على كل شيء يقف في طريقه الذي يوصله لتلك الامنيه المبتغاه وكان من جل رغائبه أن يكون سيداً عادلاً طيباً ويفعل احسن ما يفعل لتحسين البلاد التي وضع فيها قدميه وبتلك المزايا يمتاز محمد على ويختلف كثيراً عن الحكام المسلمين الظالمين الذين حكموا مصر قبله ولكن مما يحسن ملاحظته انه لم يأت احد هؤلاء الحكام ما اتاه محمد على من الاستبداد في سبيل تأييد ملكه . وقد اعتنق الاسلام مثلما اعتنق كثير من كبار المستبدين في العالم الديانه المسيحية لانه عرف ان اعتناق الاسلام امراً لازما بالطبع وبحسب مقتضيات السياسة لتنفيذ مارمه

ولكن على الاجمال لم يكن مقيد نفسه بالاعتقاد في اي ديانه واذا كان يقف في طريقه رجل أو عشيرة باكملها فما كان عمله معهم الا كنسهم ببساطه من طريقه اما بطريقة الغدر أو بهجوم علني أو خلافه بحسب ما تقتضيه الظروف . وكان طبعه أن ينتخب احسن الناس امانة واستقامة لخدمته لا يلاحظ في ذلك دين أو وطنية أو جنسيه وبهذا المبدأ أحاط نفسه بكثير من الاوروباويين المسيحيين لانه شاهد ولاحظ بلا خلاف انهم اكثر نشاطا واجتهاداً واحسن تعليما وهمة فلذا كان يركن اليهم ويثق بهم اكثر من المسلمين . والغى وابطل كل القوانين الاستبداديه والاضطهاديه التي كانت موضوعه ضدهم وكان يعاقب عقوبه صارمه كل الذين يشتم منهم رائحه القيام بثورة التعصب الديني وفي ذلك الحين كان ينتخب بقدر امكانه نوابغ الارمن أو الكاثوليك أو بعض الاوروباويين المسيحيين من اجناس مختلفه ويجعلهم في خدمته لانه لاحظ بفكره الثاقب وبعيد نظره للمستقبل انه لو استخدم الاقباط الوطنيين في وظائفه ولو أن فيهم الكفاءة الا انه حاذر وقوع خطر في المستقبل منهم اذا قوية شوكتهم وازداد نفوذهم في البلاد التي لا ينسون انهم اصحابها الاصليين . ولكن كان ناظر ماليته الحقيقي هو المعلم غالي الذي كان وكيل دائرة الامير محمد بك الالفي وقد نهب بيت المعلم غالي وسلب ما فيه في تلك الايام . وكان محمد علي باشا دائما يصغى لوشي الوشاة الذين اتهموا المعلم غالي في ذنب كاذب وذلك طمعاً باموالة التي يريدون اخذها

منه فاصدر محمد علي باشا امره سنة ١٨٢١ بقتله وبعضهم يقول ان المعلم غالي جلب على نفسه هذه المصيبة لانه ارسل للسلطان تقريراً حقيقياً عن المالية المصرية . ويقول البعض الاخر انه لسبب عدم طاعته للاوامر التي صدرت له بتحصيل ضرائب من بعض القرى بالقوة وبغير طرق قانونية محلة . ولكن مهما كانت الاسباب ومهما كان ذنبه فانه كان سبباً في تخلص محمد علي منه وقد كان قتله امام ابراهيم بك بن محمد علي وطوسيا بك بن المعلم غالي نفسه بدون ادنى محاكمة أو اثبات ذنب .

وكان وزير خارجيته بوغوص بك وهو مسيحي ارمني الاصل ثم اخلفه ارتين وهو من جنسه ايضاً . ونظم بحريته مثل جيشه البري بواسطة رجال من الفرنساويين من اهل الفن . وكان الانكليز هم رجال الدولة الوحيدة التي كان محمد علي يخاف سطوتها فكان يستخدم منهم القليل جداً بقدر الامكان ولكن بحكم الضرورة التزم أن يرسل لانكلترا يطلب كثيراً من مهندسيها لاستخدامهم في اعماله .

وبعد أن سحق محمد علي قوة الوهابيين في بلاد العرب واسس قوته في مصر على اساس متين لا يمكن هدمه حول دفة انظاره الى السودان .

ومن عهد سقوط الممالك المسيحية في السودان في النصف الاخير من القرن الخامس عشر لم توجد حكومة منظمة في القسم الاعظم من السودان الكائن بين وادي حلفا وحدود الحبشة الشمالية الغربيه . وادعى

ملوك سنار الصغار العبيد جنساً والمسلمون ديناً السلطة الاسمية على النوبه من ابتداء القرن السادس عشر ولكن حقيقة الحال التي لا ريب فيها أن السودان كانت في ايدي جماعة من العرب تجار الرقيق الذين عاشوا في تلك البلاد على السلب والنهب بين سكان السودان المستقلين الذين كان بينهم قليل من المسيحيين .

ولو أن محمد علي باشا كان بلا دين ولا يعتقد بالاديان الا انه كان يعرف انها ذات اهمية عظمي في السياسة وتمكن من اعتماد مشروع حملته وتحسينها في اعين رعاياه المسلمين بان ارسل ثلاثة من علماء الاسلام مع الحملة واعطاهم التعليمات اللازمة ليس فقط ليجتهدوا ويؤثروا بتبشيرهم ووعظهم على السودانيين ليعتنقوا الاسلام بل لتفهيمهم وجعلهم يعتقدون أن الطاعة العمياء في الامور الزمنية والروحية هي بلا شك فرضاً واجب القيام به للخليفة امير المؤمنين

وفي يونيو سنة ١٨٢٠ م (شعبان سنة ١٢٢٥ هـ) بارحت الحملة القاهرة في النيل وهي خمسة الآف جندي نظامي ومعهم بعض العربان وثمانية مدافع وركبت في اسطول مؤلف من ثلاثة الاف مركب صنيره وقائدها اسماعيل باشا احد اولاد انجال محمد علي باشا وقامت على البر قوة خيالة لتلحق بتلك الحملة عند اصوان . وصادفت الحملة صعوبات قليلة في طريقها حتى وصلت دنقله وبربر وشندي بعد أن قطعت في النيل الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس وقد اخضعت كل ما مرت به من

القرى والبلدان بدون مقاومة الى أن وصلت اخيراً الى سنار حيث وجدت اثار التمدن القديم الذي زرع الاقباط (١) المصريون بذوره في تلك البلاد وانشأوا فيها كثيراً من الفنون والصنائع والمعامل بقدر ما امكنهم .

ولما وصلت حملة اسماعيل باشا الى سنار وجدت الخصام قائماً كما هي عادة الشرقيين بين اخوين يتنازعان على عرش السودان فبددت شملهما جنود الحملة بدون صعوبة . ثم جاء اسماعيل باشا بملك من السوادنيين كان مخلوعا ومسجونا واقامه على العرش بصفة نائب في حكم البلاد عن محمد على باشا وبذا انتهت مأمورية ضم البلاد السودانيه الى مملكة محمد على المصرية .

«١» المعروف عند الناس عامة ان الكنيسه المسيحيه القديمه محيت من السودان قبل القرن التاسع عشر ولو ان البلاد وقعت في تعاسة عظيمه وصارت الديانه المسيحيه لا تمارس فيها الا سراً فانه بقى فيها بعض من الاتقياء المسيحيين في بعض الاقاليم السودانيه يتحملون عسف المسلمين حتى عصرنا هذا . ولما ذهب الجنرال غوردون الى الخرطوم سنة ١٨٨٥ وجد باقيا فيها اسقف قبطي من الكنيسه المصريه وكان في ابروشيته سبعة كنائس وديرللراهبات وبعث الجنرال غوردون الاسقف بامان الى القاهره قبل سقوط مدينة الخرطوم فى ايدي الدراويش وبعد ذلك اعتزل الاسقف الخدمة الدينيه ولايعلم ماذا تم لكنائسه واقباطه على عهد المهدى .

اما اسقف الخرطوم فمات في ربيع سنة ١٨٩٧ مسيحية اثناء تأليفنا هذا التاريخ

ودام السودان معتبراً اسمياً جزءاً من املاك مصر حتى سنة ١٨٨٦ م ولكنها لم تكن ملكاً مقيداً أو سائداً فيه السلام ولو انه كان يمكن لمصر ان تنشيء فيه حكومة منظمة

ولكن ما اصاب اسماعيل باشا القائد الذي نجح في فتحها اظهر حقيقة ضعف قوة مصر على السودانيين . وتفصيل ذلك انه اثناء رجوع اسماعيل باشا بجنده عبر النيل الى شندي في البر الشرقي وتعرض لملك شندي لتقصيره جباية الاموال فاستدعي اسماعيل باشا هذا الملك واسمه نمر وقال له (عليك ان تاتيني قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب والقين من العساكر) فاستعطفه الملك ليتنازل عن القدر فقبل منه اسماعيل باشا عشرين الف ريال فضه عوضاً عن الذهب فاجابه على ما أراد لكن التمس تطويل الاجل . فضربه اسماعيل باشا بالسيف على وجهه قائلا (لا . ان كنت لا تدفع المبلغ فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء) فسكت نمر واضمر الشر وصمم على الانتقام وطيب خاطر الباشا ووعده باتمام ما يريد وفي تلك الليلة صار يرسل التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل باشا علفا للجمال انما جعله حول المعسكر كانه يريد اشعاله . وفي المساء جاء نمر ومعه جماعة من الاهالي ينفخون بالمزمار ويرقصون رقص السودانيين المعروف فطرب اسماعيل باشا وضباطه من منظرهم وزاد عدد المتفرجين من الاهالي حتى اصبح كل أهل المدينة هناك فامرهم ملكهم نمر بالهجوم فهجموا على اسماعيل باشا ورجاله بغتة واشعلوا النار

في التبن فمات اسماعيل باشا وكثيراً ممن كانوا معه بين قتل وحرق وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة . فاغتاظ أحمد بك الدفتردار الذي جاء من مصر عقب ذلك بعدد وأقسم ان ينتقم لاسماعيل باشا بقتل عشرين الفاً من السودانيين فحارب الملك نمر وهزمه وصار يقتل في السودانيين ويتفنن في اساليب القتل حتى أنفذ قسمه بتمام قتل العشرين الفاً وبذا تم افتتاح السودان

وكان ضعف الدولة العليه المتزايد واشتغالها باحوال اليونان جعلت السلطان غير قادر على التداخل في شؤون نائبه الشديد البأس محمد علي باشا في مصر . وكان اليونانيون بعد ان عاشوا زمناً تحت نير الاتراك واستعبادهم مثل المصريين قد افاقوا وقاموا يتمثلون بالمصريين وهبوا في وجه الدولة طلباً للاستقلال .

وذلك المثال لم يتجاسر المصريون على القيام بمثله (١) . واتخذ محمد علي باشا حرب اليونان مع الدولة العليه فرصة سانحة لاشغال معظم جيشه الذي كان بلا عمل بعد الحملة السودانيه فارسله لمساعدة السلطان في

(١) ولو ان عرابي باشا دبر سياسته بالارتكان على كثير من الانكليز. فانه لم يكن الاشجاعا عسكريا مقداما كالشكل الذي كان يوجد منه كثيرون لسؤ الحظ في البلاد المصرية اثناء الالف سنة الاخيرة ولو نجح في ثورته لوقعت البلاد في اعظم التعاسة ولم تقم في مصر قبل عرابي ثورة اهليه عامة عظيمة مثل ثورته من عهد القرن التاسع للميلاد

حروبه وهو اشغل نفسه في اصلاح مصر التي جعلها ملكه الخاص . وكان يرغب في تحسينها رغبة طبيعية . وكان حاد الذكاء فبالرغم عن غلطاته المرعبة التي قاده جهله بارتكابها فان احوال مصر الماديه تحسنت تحسيناً بيناً على ايامه . واصبحت في عز ورخاء . لانه اعاد زراعة القطن واحيا كثيراً من الصنائع بعد موتها تحت نير احكام الاتراك المسمه . وحفر كثيراً من الترع الجديدة واخصها ترعة المحموديه باسكندرية . وانشاء المستشفيات ومدارس طبيه بتعليمات وارشادات الفرنساويين . وايضاً صرف مبالغ طائلة في ايجاد فاوريقات ومعامل للصناعه . وقد هدم الهياكل المصرية القديمة في انحاء البلاد ليبني المعامل التي لم تستعمل كلها ابداً . واوجد الامن في ربوع البلاد المصرية . وانشاء للمدن والبنادر بوليسا منظما لحمايتها وملاحظتها وهذا أول شكل من نوعه رأته البلاد المصرية بعد اجيال طويلة . وبالنسبة لاجتهاده ونشاطه عادت طرق قوافل التجارة والبريد ثانيا بين مصر وبلاد الهند وبلاد الشرق الاخرى في اسيا وعلاوة على كل ذلك فانه أوجد مطبعة كبرى عظيمة في بولاق فكانت تطبع وتنشر الكتب المترجمة من اللغات الاجنبيه الى العربية وتبيعها باثمان بخسه جداً كي تنشر العلوم والمعارف بين المصريين . ثم اهتم بالحالة العلميه فشكل مجلسا للمعارف العمومية . فتح مدارس كثيرة لتعليم شبان القطر وكان يرسل بعضاً منهم الى أوربا لتنعيم دروسهم على مثل الارساليات العلميه فى هذه الايام وغرس كثيراً من البساتين

والاشجار في الجيزة وشبرا واوجد حديقة الازبكية ومصلحة الصحة وقسم القطر الى مديريات

ومع كل هذا النجاح فان محمد على كان لم يزل مثابراً في السير الى أخر غرضه المقصود وهو الاستقلال التام بالاسم والفعل . وفي سنة ١٨٣١ م رأى ان الوقت قد حان لتتميم هذه الامنيه . وقد كان وقتئذ الباب العالي مشغولا في ثورات استقلال الصرب وبوسنيا واليونان سراً وسياسيا كل من فرنسا وانكلتر وروسيا . فانتحل محمد على حجة ركيكة لفتح سوريا .

ففي نوفمبر سنه ١٨٣١ م ارسل ابنه ابراهيم باشا يقود حمله بريه وبحريه فوصل سوريا وأخذ غزه ويافا بدون مقاومه أما عكا فدافعت دفاعا هائلا مدة ستة شهور واخيراً سلمت فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ ثم سار ابراهيم باشا الى دمشق فاخضعها ولم تدافع الا يسيراً وبارحها الى حمص حيث كانت الجنود العثمانية تنتظره لرده عن فتح سوريا تحت قيادة محمد باشا والى طرابلس فعسكر ابراهيم باشا فى حمص يوم ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ م فهجم عليه محمد باشا فقهره ابراهيم باشا واستولى على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها ووقعت كل سوريا في قبضته . ولكنه لم يقف عند هذا الحد من النصر العجيب

بل لما تشكى والي طرابلس امر انكساره للباب العالي خاف هذا

سطوة ابراهيم باشا وارسل رشيد باشا بستة الاف من الجيوش العثمانية لايقافه عند حده . وكان مع ابراهيم باشا ثلاثة الآف من الجنود المصرية فقط فسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر سنة ١٨٣٢ م في كونيه جنوبي اسيا الصغرى وبعد حرب هائلة تغلب ابراهيم باشا على الجنود العثمانية مع انها ضعف جنوده وتقهقرت بقائدها رشيد باشا فاخترق ابراهيم باشا اسيا الصغرى وتهدد القسطنطينية بالفتح فخافت الدول العظمى التي لاتريد أن تنظر وجود دولة اسلامية جديدة مصرية قوية تقوم على انقاض الدولة العثمانية القديمة فتداخلوا في الامر وفي مقدمتهم روسيا فانفذت الى مصر البرنس موارفيف لمخاطبة محمد علي بايقاف جيشه المنتصر عن التقدم الى القسطنطينيه وهددته بالحرب أن لم يذعن فبعث الى ابنه ابراهيم باشا أن يتوقف عن المسير الى الاستانة . ثم عقدت معاهدة الصلح بين محمد علي باشا والسلطان بمساعي الدول من مقتضاها أن تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا يكون حاكماً عليها وجابياً لخراج ادنه . وتم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعده سنة ١٢٤٦ هـ (١٤ مايو سنة ١٨٣٣) ويدعي وفاق كوتاهيا .

فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وتنظيمها على النسق الذي اتبعه ابوه في مصر وجعل عاصمة ملكه انطاكيه وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وتساهل تساهلاً تاماً مع الدروز والمارونيين وسائر ملل

النصارى وصار يستخدم منهم من يليق لخدمته في مستعمرة ابيه محمد علي متخذاً خطة ابيه لا يبالي بالوطنية أو الدين . ولم يضغط الا على اليهود فقط ولكن لم يضطهدهم اضطهاداً علنيا بل لم يرفع عنهم دواعي الانحطاط (١) والضعف ولم يدافع عنهم المصائب والمضايقات التي كان المسلمون يقومون بها ضدهم وكان ابراهيم باشا سائراً بكل حكمة ودراية خشية سوء العقبى ومع ذلك لم ينج من ثوره قام بها جماعة من جبال نابلس اطفأ نارها محمد علي نفسه . وذلك بانه اوجد للمسلمين الثائرين عذراً قاموا بسببه في فواحش وكبائر هائلة ضد اليهود وكان مسيحيو الناصره وبيت لحم واورشليم سياخذون نصيبهم من بلايا هؤلاء الثائرين لولا ان دافعوا عن انفسهم حتى جأتهم النجده من مصر بامر محمد على باشا

وفي سنة ١٨٣٥ م اصاب مصر كولير دامت عدة اشهر واثرت تأثيراً مرعبا في اهلها . وكان يوجد طبيب فرنساوي يدعى كلوت (وهو كلوت بك) الذي سمي باسمه احد شوارع محمد علي الجديدة وهذا الطبيب اثار ايات الاعجاب به في نفس محمد علي باشا لتصرفه العظيم بتخفيف وطأة الكوليرا عن الاهالي فانعم عليه بلقب بك

---

(١) قيل أن مسلمي دمشق شكوا الى ابراهيم باشا من أن قباحة المسيحيين قد زادت عن الحد حتى انهم صاروا يظهرون في الشوارع راكبين الخيل فنصح ابرهيم باشا المتذمرين بكل هدوء ورزانه قائلا اذا كنتم تريدون الظهور ارفع واعظم من النصارى فاركبوا الجمال (فتكونوا اعلى منهم مقاماً)

وبين الكثيرين من الزائرين الاوروباويين لبلاد مصر التي كانت اكثر امناً واكثر باعثاً لسرورهم مما كانت لاهلها انفسهم كما لم تزل للآن هو ؟؟ المستر لاند التلميذ الطائر الشهرة . هذا الف كتاباً دعاه (المصريون الحديثون) على ان عنوانه الحقيقي يصح ان يكون (سكان القاهرة الحديثون) وهو لذيذ جدا يستحق أن يقرأه كل واحد . واهميته تنحصر في وصف المسلمين القاهريين الذين عرفهم المؤلف واقام بين ظهرانيهم في سنة ١٨٢٥ م . وفي فترة اخرى من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٣٥ م وتعرف بهم تمام المعرفة . اما الاقباط فكانوا ينظرون اليه بعين الظن والريب . ما عدا واحد منهم فقط اجتهد كثيراً أن يتعرف به ويكتسب صداقته بالرغم عن مخالفة ابناء جنسه ومع ذلك لم يتمكن المستر لاند من المحادثة معه . ومن الغريب ان جل قصد هذا الزائر كان الحصول على بعض معلومات عند الاقباط يثبتها في كتابه وبكل تعب تحصل على بعض مواضيع طفيفة وبالاسف كانت كلها غير صحيحة

ومن سنة ١٨٣٨ الى ٣٩ زار محمد علي باشا بنفسه بلاد السودان ليتأكد حقيقة من وجود مناجم الذهب التى قالوا لهما عنها وترك القاهرة تحت عناية حفيده عباس باشا وفي أثناء غيابه انتهز السلطان الفرصة لاثارة الحرب عليه بمصر فلما عاد محمد على باشا الى مصر ذعر من استعدادات الباب العالي فكتب الى ابنه ابراهيم باشا يستحثه للاستعداد للدفاع فحشد ابراهيم باشا جنوده لدفع الجنود العثمانية القادمه براً

وكان الفيكونت بونسونبى سفير انكلترا في الاستانة قد نصح للسلطان بالعدول عن ذلك المشروع المهلك فجاء نصحه عبثا وتهجم السلطان على خراب نفسه . فسار الجند العثماني والتقى بالجيوش المصرية وحصلت مواقع شديدة بين الجيشين في نزيب انتهت بانهزام العثمانيين انهزاماً تاماً وتقهقرهم الى مرعش . واتفق في اثناء ذلك وفاة ساكن الجنان السلطان محمود خان الذي لم يسمع نصيحة سفير انكلترا في ٢٦ ربيع اخر سنة ١٢٥٤ هـ « ٣٠ يونيو سنة ١٨٣٩ م » قبل بلاغه خبر انهزام جيشه . فتولى الخلافة بعده ابنه السلطان عبد المجيد وفي ذات اليوم الذى نودي به سلطاناً في القسطنطنية سار الاسطول العثماني الذى كان جهزه ابوه بقيادة فوزي باشا بعد اطلاق مدافع التحية والتعظيم للسلطان الجديد وزين المراكب وحول دفة وجهته الى الاسكندرية حيث تماهد هذا الاميرال الخائن بتسليم الاسطول ليد محمد علي باشا وكانت هذه التصرفات سرية لم يطلع عليها مطلقا الكبتن ووكر القائد البحري الانكليزي الذي كان مرافقا الاسطول العثماني . فعند وصول الجميع للاسكندرية استقبلهم محمد علي باشا كاصدقاء فلما ادرك الكابتن الانكليزي الامر الذي كان مخيما على مخيلته كالظلام أبى العوده على اسطول العثمانيين وعزم على الرجوع وحده ثانياً الى القسطنطينية .

والتزم محمد علي باشا من ذلك الحين أن يعمل حسابا لوجود مانع جديد قوي اكثر تعرضاً للوقوف في سبيل مشروعه ونوال قيمة ما

تطمح اليه نفسه وهذا الحاجز الجديد الذي يعترضه هو اقوى من كل ما تقدم من الموانع التي اعترضته في سبيله — ونعني بهذا المانع — معارضة كل الدول العظمى له وعرقلة مسيره وعلى الخصوص دولة انكلترا

وان جئنا هنا بالحقائق التي اثرت على الدول الاوروباوية العظمى وجعلتها تنوي على ايقاف محمد على عند حده لاحتاج الحال لشرح طويل مملّ . فنقول الآن هنا ان محمد علي باشا لم يقتصر على ما اكتسبه من امتلاك مصر والسودان بل من الواضح ان نفسه كانت تطمح الى اعمال أحسن من ذلك فكان يحلم بالفتح العام ويخضع مملكة بعد مملكة بجيشه الذي وان كان صغيراً لكنه احسن من جنود الجيوش التركية المتوحشة التي لا تعمل شيئاً في الحرب الا الضرر .

فلما انست الدول الاوروباوية المتحدة عزم محمد علي باشا على هذا المشروع اجتهدت في وضع حد لمشروعاته ومطامعه في الفتح واتحدت على تنفيذ ذلك الحد فاوفدت الحكومة البريطانية الكولونيل هودج ليبلغ قرار الدول الى محمد علي باشا .

وحوالي اخر سنة ١٨٣٩ م نزل الكولونيل هودج في الاسكندرية واستعمل كل لطف ورقة في مخاطبته مع محمد علي سياسيا ليوصله الى الامر المراد اخباره به بالتدريج فلم تأت هذه السياسة بفائدة والتزم الكولونيل بتبليغ محمد على باشا رسميا في يناير سنة ١٨٤٠ م انه جاء نائبا عن انكلترا ليخبره بان دولته وباقي الدول الاوروباوية العظمى لا توافقه

على اتمام مشروعاته وطمعه في الفتوحات ولا تسمح له القيام بها . وقال له السفير ان شاء فليحصر فتوحاته في قارة افريقيا كلها فقط وينهي له في تلك القارة مملكة عظيمة تشرح خاطره وتسد مطامعه فلا تعارضه الدولة في ذلك أما في اوربا واسيا وكل ما يختص بهما فلا تسمح له الدول بذلك مطلقا

وكان محمد على باشا مثل كثير من الحكام والقواد الشرقيين فانه لم يعترف باهمية الامر الذي بلغ اليه تحت ستار لطيف ورقيق المخابرة وكان ممتازاً بقوته لانه كان لديه اذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ الفاً تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وجزيرة كندي ومصر عدا تلامذة المدارس الحربية الذين في مصر

ولم يصدق محمد على باشا ان انكلترا كانت تخابره في ذلك جدياً فتخابر مع السفير عن « حقوقه » فجلبت نتيجة هذه المخابرة مذكرة شديدة من حكومة انكلترا انه ليس له « حقوق » الا التي يعطيها له السلطان ورضيت الدولة بها شرطا انه يمكن سحبها في أي وقت . فبعد ان اطلعه السفير الانكليزي الكولونيل هوردج على كل تلك الاقتراحات رأى منه رفضاباتاً بعد طول المخابرات فالتزم بقطع المخابرات مع مصر في شهر مارس سنة ١٨٤٠ م

وفي ١٥ يوليو سنه ١٨٤٠ م (٢٤ جماد اول سنة ١٢٥٥ هـ) عقدت

معاهدة في لندن وامضيت من كل دول انكلترا والنمسا وروسيا والمانيا والدولة العلية مقتضاها ان مصر تعتبر جزءا من أملاك الدولة العلية وان محمد علي باشا يكون من الولاة التابعين لهذه الدولة وان يعطيه جلالة السلطان ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالته الحق المطلق في ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها وان تضمن له الدول المذكورة هذا الامتياز وعلاوة على ذلك يستمر مالكاً طول حياته ولاية عكا وجنوب سوريا وفي هذه المعاهدة انه ان لم يقبل محمد علي بنودها وشروطها في بحر عشرة ايام من تاريخ وصولها الى مسامعه تسحب منه ولاية عكا وجنوب سوريا وبعد عشرين يوما تعتبر كل حقوقه ساقطة ايضا في مصر وسوريا.

وفي اغسطس سنة ١٨٤٠ قام رفعت باشا سفير الدولة العلية حاملا هذه المعاهدة وعقد مجلسا في مصر مع محمد علي باشا وابلغه كل بنودها ومعانيها. وجاء ثاني يوم قناصل الدول الكبرى المذكورة وانتظروا التصديق على شروط وبنود معاهدتهم. فاتكل محمد علي باشا على مساعدة فرنسا له ولو انه لم يعارض ويرفض كثيراً من بنود تلك المعاهدة ولكنه استعمل المحاولة والمراوغة والتمهل وغرضه من ذلك وجود وقت يتبصر فيه. وبعد انتهاء العشرين يوما اله قناصل الدول لاعطاً اخر قرار فطالب التاجيل لوقت اخر ولم يكن يظن ان الدول تقدر ان تنفذ ما قالته في معاهدتها من التهديد. ولكنه عرف حالا ان الامر حقيقة

وان الشروط لاغش فيها اذ رأى قبل انتهأ السنة كل سوريا في يد الجيوش العثمانية والقائد العام عليهم السير تشارلس سميث الانكليزي. ورأى أيضا الاساطيل الانكليزية والنمساوية والعثمانية حاصرت كل الشواطيء السورية والمصرية وهرب ابنه ابراهيم باشا الذي في سورية الى الجبل. وتحت فرنسا عن التداخل الذي كان ينتظره محمد علي باشا منها. وفي ٢١ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وصل الاسكندرية الكومندور نابير وبعد قليل ارسل عدة خطابات رسمية لمحمد علي باشا أوضح له فيها صريحا ان الدول تسمح للباشا ببقائه في مصر اذا أسرع بالخضوع وقبول شروط المعاهدة بلا امهال. ففهم محمد علي جيداً معنى تلك الملحوظات التي تعرضها عليه انكلترا. وامضى بسرور على اتفاقية مبدئية عقدت بينه وبين نابير وقنصل انكلترا في ٢٧ نوفمبر مضمونها ارجاع الاسطول العثماني الذي أخذه بالغش من الاميرال فيرزي باشا العثماني واخلاء سوريا على شرط ان الدولة الانكليزية تضمن بقاءه في مصر. فلم يسر الباب العالى ولا الاميرال الانكليزي ولا السير تشارلس سميث من هذه الاتفاقية واتبعوا باب العدل وقالوا ان نابير تعدي العدل في شروطه. ولكن انكلترا رضيت بها وتنفذت. وفي ٤ فبراير سنة ١٨٤١ م سحب محمد علي باشا جنوده من سوريا وبلاد العرب وخانيه. وفي ١٣ منه الموافق ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٥٦ هـ ارسل له جلالة السلطان خطاً شريفاً بتثبيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابه. ثم صدر ايضاً فرمان اخر يثبت ولايته على نوبيا

ودارفور وكردفان وسنار واصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . فقنع محمد على باشا بما قسم له من البلدان وعكف الى اصلاحها داخليا وعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ اليه ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية . وبعد ذلك الحين مرت على مصر ست وخمسون سنة يحكمها امراء من سلالة ذلك النادر المقدام والفاتح [1] الهمام محمد على باشا المقدوني

وظل محمد على متكدرا من تلك الحوادث اثني عشر سنة . حتى قبل موته باثنى عشر شهراً اصبح غير قادر على الاحكام . ويظهر ان نجمه السعيد وحظه العظيم ابتدأ ان يهجره بعد سنة ١٨٤٠م

وفي سنة ١٨٤٣ م زار مصر طاعون المواشي بدرجة مرعبة واصبح من المتعذر جداً الحصول على البهايم لعمليه حرث الارض فالتزم محمد على باشا باستخدام خيول الجيش في الزراعة . وكان يرى بعض الاحيان الجمل والحمار مربوطان معاً في المحراث وفي كثير من القرى كان الفلاحون يعلقون انفسهم في المحراث ويجرونه بدل البهايم . وفي تلك السنة دام

(١) واثناء كل الحوادث المتقدمة اجتهد محمد على في فتح وتسهيل الطريق الموصل للهند من داخل البلاد المصرية كما كان قبلا . وكان هذا الصنيع الذي يشف عن بعد نظره في السياسة باعثا لايجاد علائق المحبة العظيمة بينه وبين انكلترا وصك تجار بومباي مدالية شرف له باسمه مكتوب عليها ايات التكريم والمدح والثناء

فيضان النيل طويلا على الارض وبتأخير نزول المياه ضاعت الفرصة على الفلاحين لتجهيز ارضهم للزراعة . وقيل انه هلك بهذا الطاعون مائتان الف ثور . وفي السنة التالية خربت مصر أيضاً بطاعون الجراد وانتشرت الكوليرا أيضاً في فصلي الشتاء والربيع واصبح في مصر اربعة اعداء اشداء هم طاعون المواشي والجراد والكوليرا وزيادة الفيضان

اما السودان فلم يكن قد ضم بعد الى مملكة مصر الا ان احمد باشا الذي ولاه محمد علي باشا على السودان وهو من المماليك لم يكن الا تاجراً عظيماً في الرقيق بدرجة هائلة وكان يعضده جيش منظم لجلب الرقيق والاتجار به فضلا عن استخدام نفوذه الرسمي في ذلك

وكان محمد علي باشا غير عالم بشيء من ذلك لان رجال حكومته لم يطلعوه على حقيقة الامر خوفاً من تأثير الكدر عليه حيث كان قد طعن في السن وأثرت على صحته نتائج الحوادث المتقدمة ولا سيما ضغط الدول عليه التي اهبطت مساعيه حتى مل من مباشرة الاحكام ولذلك كانت ترفع اليه التقارير الخاصة باحوال البلاد منقحة وملطفة ومحذوفا منها كلما يحدث الكدر

وكان حاكم السودان يفتح جميع المراسلات التي ترد على الخرطوم ويحرقها بما فيها مراسلات الاوربيين والتجار وكان اهل السودان في ضيق شديد من استمرار تعدي الحكام والعساكر على خفف أطفالهم

منهم وتصديرهم للمتاجرة بهم كالاغنام والسلع ولم يكن من يرثى لشكواهم ويغيثهم من هذا الكرب غير السائحين الاوروباويين الذين لا يعرفون المحاباه ولا تحزب لجانب من الطرفين .

وقد نشأ عن هذه الاحوال وعن تسخير عدد عظيم من الفلاحين البؤساء في الاشغال العمومية ان سكان القطر المصري كلهم اصبحوا يئنون تحت انياب الفقر سنة اكثر من سنة وايضاً وصلت البلاد المصرية الى حالة تعاسة هائله واصبحت مديونة بينما كانت الاموال تبذر تبذيراً بلا فائدة على المعامل الصناعية والقصور والمنازل التى يبنيها الاوروباويون في اكبر المدن المصرية فتضايقت البلاد حتى كثرت مهاجرة الناس سنة ١٢٥٩ هـ (سنة ١٨٤٤ م) لتعذر دفع الرسوم المطلوبة منهم والحاح الحكومة في طلبها بكل واسطة واذا خلت قرية من اهلها اضافت الحكومة رسوما على القرية الاخرى بجانبها فكثر اللغط في البلاد كل ذلك من سوء تصرف العمال . فرأى ابراهيم باشا ان اخفاء تلك الاحوال عن ابيه ربما يؤول الى خراب البلاد فأخذ على نفسه تبليغه ذلك فكلف شقيقته في ٢٥ يونيه سنة ١٨٤٤ م ان تبلغ الامر اباها بطريقة لطيفة وغير رسمية (خوفاً على صحته) ما وصلت اليه البلاد من العسر واشتداد الازمة الماليه اشتداداً هائلا وقتئذ فلما ان بلغته اشتعل محمد علي غيظاً فخاف وزراؤه المسيحيون والتزموا تبليغه نتيجة الحال رسميا يائسين . ولكن محمد علي في ذلك الوقت لم يكن كما كان في اول نشأته وذلك

بسبب كبر سنه وتوالي المصائب عليه بعد ان افل نجم فتوحاته فان عقله ضعف فحمل هذا البلاغ على مكيدة اعدوها له فبرح سرايه في الاسكندرية واقام عند صهره محرم بك بجانب الترعة المحمودية وصار يقسم مصرحا بانه محاط بقوم خائنين ولذلك فهو مستعد للتخلي عن الحكومة والذهاب الى مكة فحاول ابناه سعيد باشا وابراهيم باشا مخاطبته واقناعه بالحقيقة فلم يصغ فجاءه سامي باشا اعز اصدقائه فلم يقتنع الا بما سبق اليه فهمه وقال ان مصائب بلادي ما نتجت الا من خائنين دسوا السم في الدسم فاستنتج من اعماله انه اصيب بنقص في عقله ثم سافر محمد علي باشا مع طبيبه الى القاهرة فعرض الناس الولاية على ابنه ابراهيم فأجابه انه لا يقبلها طالما كان ابوه حيا . ولما وصل محمد علي باشا القاهرة عاد الى صوابه وروعه وفطن لنفسه فجمع رجال حكومته ووبخهم على اخفاء تظلمات الاهالي عنه ثم تداخل ابراهيم باشا في الامر وصرف المشكل

وفي سنة ١٨٤٦ م وصلت محمد علي باشا دعوة رسميه للذهاب لتقديم فروض العبودية لجلالة السلطان الاعظم في الاستانة فعرف محمد علي باشا ان هذه الدعوة معناها طلب تقديم رشاو وهدايا هائلة للسلطان ورجاله .

فوصل الاستانة في ١٩ يوليو سنة ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا وتشرف بالمثول بين يدي امير المؤمنين فرحب به ولما اراد تقبيل لاعتاب الشاهانيه امسكه واجلسه بجانبه ومكث معه ساعة يتحادثان ثم

انصرف شاكر آوزار عدوه القديم خسرو باشا وتصافيا وفي ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٦ م برح الاستانة الى قوله مسقط راسه فأنشأ فيها المدارس لتعليم الفقراء وملاجىء للضعفاء والمساكين ثم برحها قاصداً الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون افواجاً وكان يقابلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلالأ كالشمس. وكان ابنه ابراهيم باشا قد اصيب ايضاً بانحراف في صحته فسار الى اوربا ترويحا للنفس فصادف ترحاباعظيما في سائر الممالك الاوربا ويه ولاسيما فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف سنة ١٨٤٦ وتقابل مع ابيه وهنأ بعضهما بسلامة الوصول الى الوطن بعد سياحتهما.

وكانت آخر مشروعات محمد علي باشا الاصلاحية الخطيرة في آخر حياته هي القناطر الخيرية التي وان يكن اصل فكرة تشيدها ينسب الى قريحة وذكاء احد المهندسين الفرنساويين لكن هذه الفكرة ظلت في عالم الخيال ولم تجد طريقا لظهورها في عالم الوجود الا بعد خمسين سنة بواسطه ذكاء احد المهندسين الانكليز الذي عرض مشروعه على محمد علي وابان له عظيم فائدته للري فاقر محمد علي باشا على مباشرة العمل وقام بوضع الحجر الاول منها سنه ١٨٤٧ م باحتفال عظيم جدلي وحوالى آخر هذه السنه اصيبت صحته وابنه في انحطاط. وفي يونيه سنة ١٨٤٨ م زاد ضعفه كثيرا وازدادت فيه ظواهر التخريف والبله فلم يكن بد من انتقال عنان الاحكام الى ابنه ابرهيم الذى بعد

تثبيته في الولاية بفرمان سلطاني راجعه المرض واشتد عليه بغتة فقارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن بجوار الامام الشافعي (مدفن العائلة الخديوية) جنوبي القاهرة كل ذلك وابوه محمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منه المرض مأخذا عظيما وما زال يهزل جسدا وعقلا حتي توفى في ٢ اغسطس سنة ١٨٤٩ م. ولم يستغرب الناس موته لانه ظل ينازع طويلا. وفي ٣ منه تقاطر الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا به في قاعه الاستقبال موضوعا في نعش تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن وعلى رأسه طربوشه الجهادي الاحمر التونسي وحوله ٢٢ من العلماء بالملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة فعزى الناس سعيد باشا اكبر عائلته الذى نقله الى القاهرة ودفنه في جامع القلعة.

وهكذا مات محمد علي بعد ان وضع الاساسات المتينة الكافلة لضمان اعضاء عائلته من غوائل الموت المعتاد حصولها في الاقطار الشرقية.

وكان عباس باشا حفيد محمد علي غائبا في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر سنة ١٨٤٩ م بعد ان قضى فروض الحج واخلف عمه ابرهيم باشا على الاريكة المصرية بدون حدوث اي صوت معارض لانه اكبر ابناء العائلة وجاءه الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذنا بذلك.

الفصل الثالث والسبعون

الاحتلال الانكليزي

سنة ١٨٥٤ مسيحية و١٥٧٠ للشهداء و١٢٧٠ للهجرة

ان تاريخ الديار المصرية في الخمسين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر حسن جدا ولذا فاننا نثبت حوادثه هنا بفصل قصير ونسرد الحوادث حتى نصل بالقارىء الى الاحتلال الانكليزي للبلاد فنقول

ارتقى عباس باشا الاريكة المصرية وهو ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا . ولحسن حظ مصر لم تطل مدة حكمه عليها الا ست سنوات . وكانت أخلاقه الخصوصية وصفاته رديئة فتقهقر نفوذه في البلاد وتوفي في وسط عائلته[1] في شوال سنة ١٢٧٠ هـ الموافق يوليو سنة ١٨٥٤ م .

واخلفه على الولاية سعيد باشا ابن محمد علي باشا وكان يشبه عباس من أكثر الوجوه . وابتدأت البلاد تتنازل بالتتابع الى درجات الفقر المدقع تحت أحكام سعيد باشا وخلفه الاكثر عظمه والذي لايقف في وجه اغراضه علة الا وهو اسماعيل باشا لانهما سارا بحسب الغريزة الشرقية

(١) كانت قساوة واستبداد عباس باشا شديدة على نسائه خصوصاً . فانه خاط بيده فم احدى جواريه عندما رآها تشرب الدخان وتركها مخيطة الفم تتخبط من الالم والجوع حتى ماتت ببطء .

الحقيقية بان ابتدأت أعمالهما من الطرف المخالف ولم يكن لاي منهما ميل للاختلاط بالرعايا المصريين والعطف عليهم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ولم يكن لهما أي ميل لصالح الفقراء من الرعايا الذين كانوا يساقون للاعمال الشاقه تسخيراً في انجاز الاشغال والاعمال العظيمة التى أثارت تعجب الاوروباويين ووصلت نتيجة الضرائب الفادحه على الاهالي الى درجة هائلة جداً جعلت الفلاحين المصريين جميعاً مديونين لجماعة اليونان الذين يقرضونهم أموالهم بفوايظ فاحشة وكان يقترضها الفلاحون لتسديد طلبات ومطامع الحكومة التي كانت تعد كأنها بلا خديوي

الا انه الى سعيد باشا تنسب كل شؤون التمدن الحديث الذي انتشر في القطر المصري بعد ان كان متخرباً . وينسب الى سعيد باشا الذي قام بنشر ذلك التمدن بارشاد الفرنساويين كأبيه هدم المبا كل القديمة ليبني بانقاضها في المعامل الصناعية فأوجد دار الآثار المصرية (الانيكخانة) ودور الحفر والبحث على الآثار في تانيس وسايس وطميس وكينوبوليس وبوباستيس (تل بسطه بالزقازيق) واتريبيس وهليوبولس (عين شمس) وممفيس وسقاره وأبيدوس وندره وطيبه وادفو . وفي أيامه أيضاً أنشئت السكة الحديدية بين مصر والاسكندرية وبين الاولى والسويس وكان فساد الاحكام في السودان مستمراً وتجارة الرقيق منتشرة في مصر باوسع معانيها وفي ايام سعيد واسماعيل هرع كثير من الاوروباويين الى البلاد المصرية وخصوصاً اليونان والتليان والفرنساويين وتوطنوا فيها .

وهم الذين تمتعوا حقيقة بالادارة المصرية التي لم يستفد منها المصريون الا القليل . أما الاقباط فكان مصرح لهم التمتع بالحرية والتساهل وهي المزايا التي منحهم اياها محمد علي وتساووا بالمسلمين من بعض الوجوه حيث من منذ الفتح العربي الديار المصرية سنة ٦٤٢ مسيحية لم يكن مصرحاً لاي مسيحي مصري من الحاكم المسلم ان يحمل سلاحاً وذلك عقب انتهاء الثورة القبطية العظيمة التي حدثت في القرن التاسع عشر وجعلت من المستحيل على أي قبطي التمكن من حمل السلاح . وكانت الضرائب الخصوصية التي يدفعونها علاوة على الاضطهادات والاختلاسات الغير القانونية التي تقع عليهم سبباً شدد عضلات جماعات الجنود الاجنبية للحرب لانهم منعوا من الاندماج في سلك العسكرية في جيوش الاحتلال المختلفة التي حلت بمصر وكانوا ميالين لهذا المنع ليعيشوا بهدوء وسكينة وان خالفوا روح اجدادهم الحربية التي كانت غريزية منهم بالرغم عن هذا المنع وميلهم اليه وقد ظهرت تلك الروح باجلى مظاهرها في القائد يعقوب القبطي الذي تولى قسما كبيراً من الجيش في عهد الفرنساويين . الا ان مع ذلك كله نقول بكل اسف ان الاقباط كانوا على مثال الانكليز في عهدهم القديم من حيث هروبهم من الخدمة العسكرية طالما وجدوا تحت قيادة معلمين من المسلمين حتى لا يحاربوا ضد امتهم القبطية . لان الجيوش الاسلامية في مصر كثيراً ما كانت تساق لتعذيب الاقباط الغير المسلحين اكثر مما كانت تساق في حرب

عليه قانونيه ضد عدو اعتيادي . ولكن لما اصدر سعيد باشا امره ان كل المصريين بدون تمييز في الدين يكونوا تحت طلبات العسكرية فاستعمل المسلمون هذا القانون آلة لاضطهاد المسيحيين فقبضوا في اسيوط على كل الذكور في اغلب البيوت القبطية وساقوهم للعسكريه ولم يتركوا ولا واحدا منهم لاعالة النساء والاطفال ولما انتظم الاقباط في سلك العسكرية اتخذ المسلمون منهم خطه عموميه لاضطهادهم وتعذيبهم ليجبروهم على تغيير دينهم . ولم يكن لهم رجاء ولا في الارتقاء في وظائف الجيش على عهد شعبه كما هم فاقدين ايضاً هذا الرجاء في الجيش المصري الجديد هذه الايام (١) ولذلك فان ذلك القانون الذي اصدره سعيد باشا جاء ضربة هائلة وسبب التعاسة والشقاء على الاقباط — حتى التزم بطريركهم كيرلس الرابع الملقب (بابي الاصلاح القبطي) رفع تظلمات شعبه الى الانكليز (٢) فاجبر سعيد باشا برفع تلك المظالم عن الاقباط ليس بواسطة حكومة انكلترا بل بتأثير بعض رجال الانكليز الذين كان يحترمهم ويخشى بأسهم ويحافظ على عدم تكديرهم .

(١) ولو ان الضباط الانكليز لا يعلمون هذه الحقيقة الا انه يظهر انها معلومه جيدا عند كل المصريين وانه مهما كانت ضرورة استخدام القبطي في الجيش فانه امر ترقبته فيه لا يتعدى درجة معلومه

(٢) ان قنصل جنرال فرنسا المسيو ساباتييه عرض على البطريرك استخدام نفوذه الفرنساوي في مساعدة الاقباط على شرط ان البطريرك يصدر امرا لامبراطور الحبشة بدخول اليسوعيين واقامتهم في تلك البلاد

وبذلك التزم سعيد باشا باعفاء الاقباط من الخدمة العسكرية ولكن لم يترك هذا الصنيع هباً للبطريرك بل كتم غيظه منه واتخذ الوسائط اللازمة لسمه بامر الحكومة ومات البطريرك المسكين مسموما نظير جهاده في سبيل راحة شعبه . وبعد موته صارت الحكومة تطرد مئات من الاقباط الموظفين في مصالحها .

وكان عباس باشا الغى المدارس الحربية التي انشأها محمد علي باشا فاخذ سعيد باشا تلاميذها الباقين منها واستخدمهم في جيشه وخرب الكتبخانة التي كان ابتدأ محمد على بجمع الكتب فيها وابادها

وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فاخمدها وبنى قلعة عند القناطر الخيرية سماها القلعة السعيدية سنة ١٢٧١ هـ وأدى فريضة الحج. وولى البرنس حليم باشا حكمداراً على السودان وزار سوريا سنة ١٨٥٩ م (١٢٧١ هـ) وكان اثناء مروره في شوارع بيروت ينثر الذهب على الناس

وفي سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولي الخلافة بعده السلطان عبد العزيز وفي يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هـ أو ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ م توفى سعيد باشا في الاسكندرية ونقل الى مدفن العائلة في القاهرة واخلفه اسماعيل باشا وهو ثاني أبناء المرحوم ابراهيم باشا بن محمد على باشا وكان اسماعيل باشا بارعاً في العلوم متقنا

فن الهندسة والرسم . واليه ينسب خصوصا ذلك الحمل الثقيل من الديون الباطلة التي تخرب أعظم مملكة تكون أقل ثروة طبيعية مثل القطر المصري ومع ذلك فان تلك الديون الهائلة انزلت بمصر الى حضيض الافلاس المدقع بالرغم عن ثروتها الطبيعية .

وكان اسماعيل باشا فيه روح الميل الى تعظيم نفسه ورفع مقامه الى مصاف السلاطين والملوك كاميال جدّه الاكبر محمد على ان هذا كان قليل الاشتغال والتلاعب بوساوس ووشايات الاعداء بسائر أنواعها عن ذلك . ان حبه للشهرة والعظمة كان سبباً لتحسين مصر الاقتصادية والادبية فانه مدد سكة حديد أخرى في انحاء الدلتا وحفر كثيراً من الترع وأنشأ مصلحة البوسطة وأنشأ السلوك التلغرافية والمدارس وأوجد الامن والضمان على الارواح والممتلكات ما عدا حوادث القتل والنهب التي كانت تحدث في سبيل صوالحه الشخصية . وكان معظم مصروفاته الخصوصية تقريباً على الحريم الذين بلغ عددهن نحو الف امرأة اسكنهن [1] في قصور مختلفة صرف على بنائها من الاموال التي كان يقترضها

وكانت الحرب الاميركية في تلك الايام سبباً في جلب السعادة والرخاء العظيم على مصر عدة سنوات . فكثرت الطلبات على القطن

(١) معظم هؤلاء النسوة البائسات هلكن جوعا عند ما عزل اسماعيل عن الاريكة المصرية لولم يتداركهن نجله توفيق باحساناته .

المصري في تلك السنين بلا حد وكان المزارعون المصريون يقبضون عنها أثماناً عظيمة توهموا انها ستدوم الى الابد ولكن حصل رد فعل لتلك المطالب وكانت النتيجة خراب كثير من المزارعين وكثير منهم سقطوا بلا رجاء في قوة أيدي المدانين اليونان الذين أقرضوهم الاموال بالربا الفاحش

وأحسن شيء جميل ونافع وثمين (للمصريين) وآخر صنيع نافع في أيام حكم اسماعيل هو قناة السويس. فكانت تلك القناة نصراً عظيما للفرنساويين وأعظم عمل موافق لصالح الانكليز. ولكن فائدتها للمصريين يداخلها الريب والشك واشترى اسماعيل هذه القناة من عالم الوجود بحياة الالوف من رعاياه المصريين لانه لم يصرف عليها فقط آخر فلس جمعه من الفلاحين التعساء بل اقترض على اتمامها أموالا طائلة من كل قطر يقبل اقراضه. ولما أصبح من الواضح انه ان لم يتخذ لحاملي سندات دين اسماعيل الوسائط القوية لصيانة أموالهم لما ردّت اليهم الاموال ولا أرباحها فعكفوا على دول أوروبا العظمى بالتداخل في شؤون اسماعيل المالية. فجاءت وفود مالية مختلفة للمراقبة والتفتيش على نظارة المالية فاظهر اسماعيل باشا المقاومة والعند لاولئك المراقبين الماليين

وشرع للمالي الالماني العظيم بمفاتحته رسميا وله الفضل الاول في

ابتداء المخابرة وعقد المجالس القضائية وأخيراً أصدرت المحاكم الاهلية (١) قراراتها لصالح الحكومة الالمانية التي كانت تطالب مصر بمبالغ عظيمة من ديونها. فانكر اسماعيل باشا هذه الاحكام ورفض دفع الاموال المطلوبة. فاتخذ البرنس بسمارك السياسي الداهية الالماني العظيم عند اسماعيل هذا سببا لاقالته من الاريكة الخديوية. اما فرنسا وانكلترا رفضتا التداخل والدولة العلية كانت أضعف من ان تفعل ما فعلته المانيا ولا تقوى على عزله. وفي ١٩ يوليو سنة ١٨٧٩ م وصله تنبيه رسمي بالاستقالة وبعد ان كظم اسماعيل غيظه وحنقه خمسة أيام كان في اثنائها الاوروباويون القاطنين في القاهرة يترددون في حقيقة الخبر واذا به قد انتشر في القاهرة خبراً مفاده ان اسماعيل باشا سلم عرشه المصري واعتزل الملك ويوم ٢٦ يونيو نزل هذا الحاكم المعزول من القلعة وولى مكانه ابنه محمد توفيق باشا

وكان توفيق باشا الوحيد في حسن الاخلاق من بين حكام الدول الاسلامية المختلفة الذين حكموا مصر وكان الناس لا يفهمون اخلاقه مدة حياته حتى مماته ولم ينل من انصافهم له الا القليل. وكان يصعب على الاوروباويين وشعبه الاعتقاد بوجود اي واحد مخالف لتعاليمه

(١) كانت هذه المحاكم في الحقيقة احسن ما نفحت به مصر من النفع العظيم ايام حكم اسماعيل والمصريون مدينون بالشكر والثناء لمؤسسها ناظر النظار المسيحي المعروف لهم وهو نوبار باشا

ومبادئه. وكان من طبعه الاقتصاد والاعتكاف عن مخالطة الغير فاعتبر الناس ذلك منه بلادة او غباوة وتمهله بالضرب بصرامة للدفاع عن صوالحه الشخصيه او ضمان نفسه اعتبروه كذلك ضعفا فيه وليس تأنى منه ورزانة وسعيه واجتهاده المخلص لاشتغاله جيداً مع العناصر المتضادة والمتناقضة حوله لصالح بلاده في غالب الاحيان كما نسبوه لعدم الاخلاص . وكان توفيق مسلما تقيا. ولكن قلبه كان خاليا من كل عوامل التعصب والحماس الديني وهذه العوامل اصبحت جزءا عظيما من دستور الاسلام. وخاطر بنفسه بين ابناء دينه لمحو (الدوسة) وبعض مفاسد وبدع اخرى لا تليق من الدين الاسلامي . وكان مقتصراً على زوجة واحدة التي كانت له خير رفيق ومعين . ولكنه كان يظهر العطف والشفقة على مئات النساء البؤساء اللواتي تركهن ابيه وكان يبذل ما في وسعه لراحتهن

ولما ارسل اسماعيل يستدعيه امامه في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ ظن مع كل من في القصر انه سيسمه كما هي العادة ليتخلص منه حيث كانت الدول واضعة نظرها عليه . وكان طيب القلب . حسن السريرة . فكانت زوجته تتضرع اليه بدموع غزيرة منسكبة ليهرب حيث كانت توجد الفرصة ولا يقدم نفسه للموت وقيل انها ركضت وراءه علابسها المنزلية

(١) طبقا للشريعة الاسلامية القديمة القاضية بان الذكر الارشد في العائلة هو الذي يرث الولاية المصرية فتوفيق باشا لم يكن الوارث طبقا للشريعة. وقد رشى اسماعيل الباب العالى لأخذ امتياز حصر الخديوية المصرية في اكبر ابنائه الذي لم تكن علاقاته معه على ما يرام .

لتمنعه عن الخروج فلم تتمكن من ذلك لان توفيق خرج مسرعا بدون تمهل لاعتقاده بلا شك انه يؤدي الواجب عليه. وبعد ذلك ببضع سنوات رفض بتاتا دعوة الادميرال الانكليزي له ليسرع ويلتجيء في باخرته الحربية (سنة ١٨٨٢) مع انه يعرف جيداً انه لا يوجد فرد واحد من رجاله يثق ويعتمد عليه. وكان ينتظر في ذلك اليوم ان رجال جيشه العصاه الثائرون سيقتلونه . واثناء أيام الثورة المفزعة المرعبة التي أعقبت ضرب الاسكندرية بالمدافع كان توفيق يخرج تقريبا بمفرده لاعادة الطمأنينة والامانة بين الاهالي الثائرين والمضروبين. ولم ينج بحياته من خطر الهلاك الا لحسن حظه في تعرفه بأحد الشبان الانكليز الذى كان أبيه موظفا في الحكومة المصرية واسرع هذا الشاب في الحال وأوقف طلق المدفع الذي كان سيذهب بحياة توفيق .

وموته الذي جاء بغير أوانه سنة ١٨٩٢ جعل ترك الانكليز لبلاده أدبيا من المستحيل . وبالكد لم يكن يوجد فرق عظيم بين جنازتين رسميتين مثل الفرق الذي بين جنازة توفيق وجنازة أبيه اسماعيل التي اتبعته بعد زمن يسير . ذلك لان جنازة توفيق لم تكن منتظرة بالمرة كما كان يعتقد الكل . فلما توفي فجأة لم يكن وقت كاف يمكن الحكومة من القيام بالاجرآت اللازمة للاحتفال بتشييعه . ولكن لما ذاع خبر موته فزع وهرع كل الشعب المصري على اختلاف أجناسه وأديانه وعليه علائم الحزن والاسف وازدحم الخلق في كل الشوارع واصطفوا فيها

صفوفا متواصلة بكثرة هائلة وهم ساكتون صامتون واذا أطلق ولداً صوته كانوا يسكتونه كان الجميع على رؤوسهم الطير حتى اقترب المشهد فسرى صوت حزن عام كسريان التيار الكهربائي بين جميع القوم المحتشدين . ولم يبق ولا واحد في القاهرة الا وخرج لرؤية المشهد والموظفون والتجار تركوا حوانيتهم والملاحون تركوا مراكبهم ليشاهدوا تلك الجنازة الوطنية . وبعض الانكليز الذين شاهدوا النعش بحزن مغطيا غطاء بسيطا ومحمولا بين ذلك الشعب المتكاثف كانهم رأوا كل ما كانوا يحبوا ان يروه من المشاهد الرسمية الدينية التي كانت تقام من زمن مديد في مصر . وكانوا يظنون انه لا يوجد شيء يوقظ سكان القاهرة المختلفي الاجناس الذين ليس لديهم الا شقشقة اللسان . فلما أنسوا الحزن على هؤلاء القوم عرفوا خطأهم فيما كان يظنون .

ولما مات اسماعيل وانتشرت الاخبار في القاهرة انه سيرجع اليها ثانيا ليدفن في مدافن العائلة الخديوية فالدهشة والرعب اللذان ساد بين معظم السكان الوطنيين كانت مما توجب الضحك والسخرية . وأول ما ابتدأوا يمجونهم هو انهم أبوا ألا يعتقدوا بان اسماعيل ليس ميتا بل حيا وصاروا يتوحون ويقولون ان الانكليز يعملون حيلة في ارجاعه ثم صاروا يقولون للانكليز (قد وعدتم ان اسماعيل لا يرجع مصر طول ايام حياته — ثم بالطبع هو مات — ليرجع ثانية بجنازته) هل اتخذتم الوسائط اللازمة ؟ هل ارسلتم الاطباء لانكلترا لفتح النعش قبل نزوله

على البركة وتأكدتم أن اسماعيل فيه ؟ كلا لم تفعلوا ذلك — سوف ترون . أن اسماعيل راجع بجنازته بصفته ميتا ولكنه لما يرى نفسه انه في وسط البلاد فانه يكشف الخدعه ويقوم في الحال ويقبض على البلاد بيد من حديد — فماذا نعمل اذاً ؟ واصبح كل واحد يعرف ما الذي سيحدث قبيل ذلك وكل الذي كان يعتقد هذا الاعتقاد كان يترك مشاهدة الجناز الرسمي وحتى الذين أجبروا على حضوره انسحبوا من المشهد بحيل في نقط مختلفه على طول الطريق . فما وصل المشهد شارع محمد علي حتى كنت ترى الذين يتبعونه ليس الا جماعة الاوباش يعملون غاغة بلا فائدة الذين كانوا يظهر اما انهم غير مكترثين به أو اعداء له . ثم اسرعوا بدفنه في جامع الرفاعي الغير متمم البناء . ففرح كل المصريين لما صدقوا أن جثته حقيقية دفنت وان الخوف من قوة ضرره انتهى

ونرجع لتاريخ توفيق فنقول أن فضائله التي كان متحليا بها هي التي جلبت الخطر على عرشه . فعرابي العاصي كان قد سقط مع اصحابه في ذلك الحين الى درجات الذل والهوان باسباب نبذ طاعته وفساد سلوكه وانحرافه عن جادة الحق ايام اسماعيل . ولكن عاد اسماعيل فاحبه في اواخر حكمه ورقاه الى رتبة امير الاي في الجيش واقسم يمينا مغلظا بين يدي اسماعيل انه سيكون في جانبه وتحت امره حتى الممات . وبعد ذلك القسم بثمانية واربعين ساعة توجه عرابي ليقدم فروض العبودية الى توفيق خديوي مصر الجديد الذي لما ارتقى على الاريكة الخديوية المصرية بذل جهده في

تفهيم الناس انه يعفو عن كل واحد له ذنب في الماضي . وبعد العفو يكون له حظا وافراً في المستقبل اذا احسن السلوك . فربما كان عرابي يقنع بذلك العفو وتلك الترقية ولا ينزع الى الثوره . ولكن ابت الظروف الا أن تجعل البكوات والبشوات الاتراك الذين تعودوا دائما الاذراء بالاخطار ووضع اساسات التحمس للقتال والضغط على الطبقات الواطيه من الاهالي وهم خلوا من القصاص هالهم أن يروا توفيق قد عزم باخلاص على التعاون والاتحاد بمستشارية الاوروباويين على تجديد البلاد المصرية في الفلاح والنظام كانها مولدة ثانيه فعزموا على اتخاذ عرابي آله لقلب العرش الخديوي والدولة حتى يتخلصوا كما يعتقدون من المراقبة الاوروباوية . وساعدهم على غرضهم هذا مساعدة عظيمة بمساعي ذات معنى مهمه لبعض السراحين الانكليز الذين كانوا يعتقدون حقيقة أن عرابي هو زعيم وقائد حزب وطني مهم فاظهروا في الحال علنا ما ينوونه . ولكن بالنسبة لقلة فطنتهم وفقد رويتهم وسلوكهم ببصيرة قاصرة جعلوا الثوار يعتقدوا أن انكلترا وفرنسا لا تتداخلان في الامر كما وان الحكومة لا تقوى على تشتيت وتبديد ذلك التأثير

ففي شتاء سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ اصبح المركز حرجا وتزايد حراجه يوما بعد الاخر حتى اصبحت الجنود الوطنية في حالة غطرسة ووقاحة وتهديد متزايد وايام عدم الامن على الارواح والاموال قد عادت كما كانت قديما وتعرضوا للسيدات الانكليزيات فصار لا تسلم واحدة منهن من

سبها علنيا . واضحت حكايات القيام بمذبحة عامة في النصارى منتشره في البلاد وبعد بضعة اسابيع جاءتنا تعليمات من الوكالة البريطانية بان كل واحدة وواحد منا يحبس نفسه في صندوق صغير ويأخذ معه ضروريات وان يستعد الجميع معا للدفاع عن انفسهم ساعة الخطر في أي لحظة .

ولكن في شهري ابريل ومايو لم يقم العصاة بامر مضر علنيا كما كانوا يشيعون وابتدأ الناس يفتكرون في أن الثورة ستكون قاصرة على الخطب التهديدية والاقوال عوضا عن الافعال ورجع اغلب السكان الى بيوتهم في فصل الصيف كالمعتاد .

اما الذين بقوا على الثورة ولم يفشوا بتلك الاقوال وقاموا بتلك الثورة والمذابح الهائلة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ التي لم تمثل بابشع معانيها في ذاكرة كل واحد للآن فلا لزوم لتكرار سرد تفاصيلها المؤلمة والمحزنة . اما توفيق باشا فسافر من القاهرة الى الاسكندرية ولو انه لم يتاخر للتعرض في قمع تلك الثورة والضرب على ايدي القائمين بها لكن لم يقدر ان يفعل شيئاً لانه لم يجد احداً من رجال حكومته في حزبه بل رأى الجميع من حزب الثائرين وكان تقريباً منفرداً . وقد كان عنده سبباً جيدا في الاعتقاد بان انكلترا وفرنسا سيتركانه للاقدار ونصيبه في نتائج تلك الثورة . فمال الى التصديق بانكار اشتراك عرابي في جريمة المذبحة وصار يعتقد فيه انه الشخص الوحيد الذي فيه القوة الكافية لحسم الثورة واعادة النظام وكان يعرف من جهة اخرى أن السلطان كان بعضد

عرابي والثوار وحقيقة ذلك فانه في ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ انهم السلطان على عرابي بالنيشان المجيدي الاكبر . وفي اثناء ذلك كان الاورباويون يهرون هاجرين البلاد المصرية بالالوف وكانت المراكب البحرية تقلع مسرعة من اقرب الموانى المصرية مملوءة بالمهاجرين بدرجة الازدحام الهائل الذي لا يوصف . وكانت قطارات سكة الحديد تقوم من داخلية البلاد الى الاسكندرية وبورسعيد مملوءة بالناس الموضوعين فوق بعضهم حتى سقوف العربيات. ووصل الاسكندرية في يوم ١٥ يونيو فقط اربعة الاف مهاجر. اما التجارة فكسدت بالكلية وبدأت البنوك بترحيل اشغالها وموظفيها الى المراكب الحربية التي كانت تقلع وعليها امم عظيمة من كل الاجناس الاورباوية وصار رفت ٣٠٫٠٠٠ من الاهالي من خدامهم الاهلية والاميرية وتركوا بائسين بلامعين يتضورون جوعا في الاسكندرية . وما الاهالي فقط الذين يهربون من وجه العساه بل ايضا كان كبار العرب والعائلات التركية يسرعون بمبارحة البلاد ويتعدون عن الثائرين. فاذعر عرابي من تلك الاحوال وادرك بعد فوات الوقت الغلط الذي وقع منه واجتهد في جعل الاسكندرية في مركز ضرر عظيم ضد البواخر الحربية الاورباوية . فعرض رجال الاسطول الانكليزي على الخديوي أن ينزل ويلتجىء في احدى بواخر الاسطول فابى بقوله انه لا يقدر أن يترك الباقين معه على الاخلاص له (ولو أن الجيش المصري كان كله ضده) كما وانه لا يود أن يهرب وينجو بنفسه ويترك مصر تهاجمها

قوة اجنبيه فتركه للقتل في أي لحظة يد رجال جيشه الثائرين ولكن عطف عليه الانكليز ورجع اليه ثانيا السير وكلاند كولفين يوم ١٠ يوليو ورجاه أن يجيب طلبه وينزل معه الى البحر .

وبعد محاولة الحصول على مساعدة فرنسا بلا فائدة تداخلت انكلترا وحدها في الامر في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وظلت طول ذلك اليوم تطلق مدافعها على طوابي الاسكندرية وما عتم المساء حتى خمدت تلك الطوابي وصارت غير قادرة على المقاومة . ولسوء الحظ لم تنزل الجنود الانكليزية الى البر بعد ذلك لامتلاك المدينة ونتج من هذا التأخير انه بعد يومين قابت تلك المدينة التعيسة الى ديوان أبالسه أو مجمع شياطين بواسطة الجنود المتمردين الذين أبوا اطاعة أمر الانسحاب من الطوابي وبواسطة السفلة والرعاع من الاهالي . وغصت الشوارع من هؤلاء الاوباش الهائجين وهم يصرخون قائلين (نذبح النصارى ! نذبح النصارى !) وصاروا ينهبون كل شيء يصل تحت أيديهم واحتلوا النيران في المنازل فعم أجيج واشتعال النار في جميع انحاء المدينة . واحترقت نقطة المنشية الكبرى وتخربت عن آخرها ما عدا الكنيسة الانكليزية وأغلب البيوت التي في الشوارع الاورباوية الكبرى . ولما التزمت القوات البريطانية للنزول الى البر يومي ١٣ و١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ — كانت مدنية الاسكندرية في حاله مرعبة ومذعرة مما

ولكن من بعد نزول الجنود البريطانية اليها لم تعد تتدهور الى حالة

أشنع مما كانت فيها بل أخذت في التحسين . وفي أغسطس من تلك السنة احتل الاسطول الانكليزي قناة السويس لئلا يردمها الثائرين ويسدونها ووصلت في الحال نجدة بريه مسرعة من انكلترا للمساعدة على الهجوم . وبعد عدة مناوشات بين العرابيين والانكليز كان عرابي يرسل الى القاهرة أحسن أخبارها السارة . وأخر معركة فاصلة بين الانكليز والثائرين كانت في التل الكبير في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اذ بدد الانكليز شمل كل المصريين المحاربين وهرب عرابي الى بلبيس حيث ركب قطاراً وسافر به الى القاهرة في مساء تلك الليلة ولما وصلها أخذ يدبر وينظم طريقة في تخريب وقتل وسلب كل المدينة ولكن قبل ان يبتدىء العمل الفظيع في ١٥ ستمبر سنة ١٨٨٢ خيب الانكليز تدابيره ورحموا المدينة وأهاليها بسرعة الحاقهم به لانه بعد ان انقضت المعركة في يوم ١٣ ستمبر وفر عرابي أسرع القائد الانكليزي بتجهيز فرقه خيالة صغيره تحت قيادة الجنرال دراري لو وأرسلها في ذات اليوم بعد المعركة لمتابعة عرابي فقطع رجالها خمسة وستين ميلا على ظهور الخيل ودخلوا القاهرة الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي أي يوم ١٤ منه وفي الحال طلب الجنرال دراري من حامية العباسية التسليم وهي حامية قوية مؤلفه من ٦٠٠٠ مقاتل فسلمت للانكليز بدون شرط عند أول اشارة . ولكن كانت حامية مصرية أخرى في القلعة يربو عددها نحو أربعة آلاف رجل فارسل الجنرال دراري الكولونيل واطسون

في كتيبتين من فرقة فرسان الحرس الرابعة ليأخذ القلعة حالا . ولكن عندما أوقف رجال الكتيبتين الانكليزيتين الجمة الخيول كان قد حان الغروب وأظلمت الطريق امامهم فلم تثن عزيمتهم لاهمية ماعهد اليهم انجازه فتشجعوا وقاموا في الحال لانجاز الامر وساروا حتى وصلوا بوابات القلعة وأرسلوا الى القائد المصرى الذي فيها يطلبون منه اخلاها من جنوده حالا بعد ان يسلموا سلاحهم للجنود الانكليزية فاصطف كل الجنود البياده المصرية في صفوف وألقوا سلاحهم وساروا يمرون خارجين من بوابات القلعة امام قبضة من الجنود الانكليزية وحالما خرج آخر واحد من المصريين وتفرقوا جميعا أسرع الانكليز ودخلوا القلعة وأغلقوا بوابتها عليهم. وقد علمت من جواب كتبه لي أحد أصحابي الذي كان مرافقاً لذلك الركب الانكليزي الشهير (قال فيه انه ما كان على الانكليز ان يفعلوا الا ان يظلوا منتصبين على خيولهم صامتين حتى مر آخر عسكري مصري امامهم وبعدئذ ترجلوا وضجعوا على الارض مثل أكوام الحطب) . ولكن كان باقيا على الانكليز ان يأخذوا جبل المقطم وهو المتسلط على القلعة

ولما اختبر الكولونيل واطسون حالة الجنود المصرية تشجع ولم يعد يخشى بأسهم فأرسل أحد الضباط المصريين الذي كان يرشد الانكليز عن كل شيء وكلفه ان يتوجه لحامية المقطم ويكلف قائدها ليسير بجنوده الى قصر النيل ويسلموا سلاحهم هناك فذهب الضابط المصري وعاد

بعد ساعتين ومعه مفاتيح الحصن وأخبر الكولونيل واطسن ان أوامره تنفذت

وكان عرابي اثناء هذين اليومين مشغولا في ارسال الرسائل البرقية الى محمود سامي والقاريء يجد ترجمة تلك الرسائل في تأليف المستر رويل عن غزوة الانكليز لمصر فهي كتابة تلذ قرأتها جداً خصوصاً سؤالاته عن وجود جيشه الذي تركه في التل الكبير لانه اختفى بالمرّه . وفي الحقيقة ذلك لأن جيش التل الكبير لم يكن الا مجموع فلاحين بؤساء أجبروا على ترك مزارعهم وحمل السلاح في خلق قادمين ليس لهم معهم فائدة ولاهم من تابعي دينهم فبعد كسرتهم في المعركة تفرقوا أيدي سبا وبعد قليل رجع الفلاح الى بيته في قريته وكانوا يرصعون الطريق بملابسهم ومهماتهم الحربية التي كانوا يتزيون كي لا يعرفهم أحدانهم جنود . أما الجنود الذين كانوا في كفر الدوار رأو قير ورشيد فسلموا أيضاً بدون حرب . وعبد العال الذي كان متحصناً في دمياط امتنع في باديء الامر عن التسليم ولكنه لما سمع ان الانكليز قادمين لضربه سلم في الحال

وفي ١٧ ستمبر سنة ١٨٨٢ أمضى الخديوي علي أمر عال يقضي بانحلال الجيش وتفريقه لان أغلبه كان قد رجع ثانياً لساحات القتال . واحتل الانكليز كل المراكز العسكرية التي هجرها المصريون وقبضوا على زمام البلاد وظلوا فيها حتي اليوم.

ولا يمكننا ان نتكلم في هذا الكتاب عن كل الاسباب التي حملت

انكلترا ان تحتل الديار المصرية أو تبقى فيها لانه خارج عن موضوعنا وانما نقول بوجه الاجمال ان المعروف عند كل الناس ان اسراع الانكليز في دخول مصر ليس فقط انقذ القاهرة من الخراب والاوروباويين من الخطر الهائل الذى كان محدقاً بهم بل أيضاً جاء سداً حصيناً لمنع وقوع اضطهاد عام ضد الاقباط الذين كان أغلبهم يعرفون حرج موقفهم امام المسلمين وكان يستعد كثيرون منهم للاستشهاد الاكيد الذي كان سيحل بهم لو نجح عرابي في مساعيه قبل ان يدركه الانكليز حتى انه بعد الحوادث العرابية بزمن زار أحد السياح الانكليز الكنائس القبطيه التي في وادي النطرون فوجد فيها صورة صلاة شكر لله باللغة العربية كان الاقباط يتلونها في الكنائس تذكاراً لله على مجيء الانكليز .

وتقريباً كل طبقات المصريين الذين يتحدثون عنا يكرهوننا ويودون التخلص منا لاسباب لا يمكن لنا ايضاحها . ولكن تلك الاسباب لا تخجل أي انكليزي على الاطلاق مع علمهم ايضاً ان كثيراً من جماعات المصريين الذين كانوا يشتغلون أشغالا شاقه وهم ساكتون لا يتجاسرون على تقديم الشكر للانكليز سواء كانوا مسلمين أو اقباطا — وان تجاسروا للشكر لا يشكرون — ومثلهم في ذلك مثل الخوف الخرافي الذي يقود كثيراً من الاوروباويين ان يتجنبوا كل شعور مؤثر ويهيج لغيرتهم الوطنية

ومع ذلك فالحقائق واضحة تنطق شاهده لنفسها لان من يقلب الكتب يجد فيها مايدل على ذلك كله . ذلك لان الشرقيين ذوي ذاكره

قاصره. والجيل الذي تخرج هذه الايام من المدارس الحديثة النمط لا يعرفون شيئاً عن الايام الماضية في بلادهم — كقوة الضرائب الفادحة التي كان الحكام المستبدون يفرضونها على الفلاح المسكين الذي كان يجد ويتعب طول السنة ويصرف ثمرة اتعابه لدفع ضرائب كعدمها . لا يعرف أبناء هذا الجيل الاشغال الجبرية بلا أجرة التي كان يسخر فيها أجدادهم — لا يعرفون الضرب بالكرباج يميناً وشمالاً الذي كان يستعمله الحكام في الناس حتى من باب مجرد المزاح والهزل — لا يعرفون ان المحصولات كانت تخزن وتلقى على الارض حتى تتلف عن آخرها من نفسها لعدم وجود المال اللازم عند الفلاح ليقدم منه رشوة لمعاون الحكومه ليأتي ويجري شؤون وظيفته لتسميها — لا يعرفون ان حتى ماء الحياة كان لا يعطى الا للغني والفقير يترك حتى يموت عطشاً كما كان في سنة ١٨٧٩ . لا يعرفون ان كل هذه المظالم القديمة قد خيم عليها العدل في هذه الايام . ولكن لا يقدر المصريون أهمية تلك المزايا والاصلاحات العظيمة التي أتاها الانكليز في بلادهم قبل الاوان حيث ان المثل الانكليزي يقول اذا كان يلزم ثلاثة أجيال لايجاد رجل حقيقي فلاشك انه لا يلزم اقل من ذلك لايجاد أمه حقيقية

الفصل الرابع والسبعون

الكنيسة القبطية في القرن التاسع عشر

سنة ١٨٠٩ مسيحية و١٥٢٥ للشهداء و١٢٢٤ للهجرة

كانت حالة الكنيسة القبطية في بدء القرن التاسع عشر في اسفل درجات الانحطاط سواء أن كان في عدد شعبها أو في الظروف والمصائب التي حلت بها . ومن اول فتوحات مصر المتتابعة بواسطة كثير من الحكام المسلمين لغاية فتح الفرنساويين لها والاقباط البؤساء مسيحيو الكنيسة الوطنية المصرية هم اول من يقع على رؤوسهم مساوىء الفاتحين والمصائب التي ترافق وتعقب كل فتح . وعلاوه على الفقر المتزايد في الممالك العثمانية فان الاضطهاد الديني المزمن يزيد الرعايا العثمانيين تعاسة على تعاسة وعلى الخصوص اقباط مصر الذين ولو انهم كانوا طول حياتهم على أيام السلاطين المماليك عائشين عرضة للسلب والنهب والاضطهاد يومياً طبقاً لامزجه واميال مضطهديهم المسلمين فانهم على الاقل كانوا يستخدمون في التمرينات الفنيه العظيمة الفائدة التي كانوا يمارسونها . فكان المسلمون يستخدمونهم في بناء الجوامع الجميلة التي تعتبر اعظم مثال لصناعة النقش الحجري الشرقيه وفي كثير من الاحيان كانوا يستخدمونهم في تصوير خطوط اليد التي يوجد منها الآن مجموعات كثيرة معروضة في الكتبخانة

الخديوية ولا ننكر بلا شك أن المسلمين كانوا يميزون القبطي المسلم دائما عندما توجد ظروف التميز والتفضيل عن القبطي المسيحي لان الاول اعتنق الاسلام والثاني باق مصر على اعتقاده فالمسلمون كانوا يستخدمون الاقباط المسيحيين اكثر من الاقباط المسلمين . ولكن اغلب الاقباط الذين أضاعوا دينهم المسيحي يظهر انهم ايضاً أضاعوا معه المعارف الصناعية والفنيه التي ينبذها دينهم الاسلامي الجديد وينهي عن ممارستها ويحرمها . الا أن صناعة الاويمه (النقش على الخشب) والنقش على النحاس والترصيع كانت لم تزل تستخدم بنسبة قليلة في المنازل الخصوصية . لكن صناعة النقش والرسم (التصوير) ماتت بالكلية وبعد فتح العثمانيين لمصر ما كان يوجد الا قليل من المباني العمومية المهمة ذات النقوش الثمينة كما ولا يوجد أيضاً أي كتابة يدوية على الحجارة مثل تلك الكتابات الجميلة التي كان يكتبها الصناع المصريون من القرن الثاني عشر الى الخامس عشر مذ كان يدفع لهم أجور عظيمة توازى قيمة اتعابهم . ومنظر منزل أو اثنين من المنازل الخصوصية في القرن السادس والسابع عشر يدل على ان ذلك الاثر الذي عاش زمنا طويلا من أجل صناعة بني الانسان التي كانت في الاجيال الغابرة كثيرة الوجود أو هي من العادات في الديار المصرية . وحتى لما أصبحت دولة محمد علي المقدوني هي الحاكمة للبلاد الآن لم تلاحظ صد طيار عوامل تحقير ومحو الاثار المعمارية العظيمة بل أيضا عجلت في اخلا السبيل لذلك الطيار حتى يسرع

في ازالتها . والذوق الفرنساوي بازدأ معانيه ساد الآن في البلاد وأصبحت مبانيها وصنايعها على النسق الحديث . وقلت الرغبة والاميال عن ذي قبل لطلب الحرف والصنايع اليدوية الفنية التي برع فيها الاقباط براعة عظيمة . وأصبح الناس لا ينظرون بعين العظمة والوقار الا لمهارة صناعة أسلاف الاقباط وهم المصريون القدماء ولذا صار الاقباط يتدهورون في درجات الهبوط حتى أفقدوا تلك المزية العظيمة من أيديهم بالمرة وأصبحوا لا يصلحون الا كتبه في مصالح الحكومة . وفي زمن ارتقا محمد علي على الاريكة المصرية كان تعداد الاقباط المصريين قليل جداً اذ لما أراد محمد علي ان يحصر تعدادهم وجدهم ١٥٠٠٠٠ نفس فقط لكن عمال التعداد نسوا حاره من القاهرة لم يحصروها وهذا أقل عدد وصل اليه الاقباط بعد ان كانوا يعدون بعشرات الملايين في مصر والسودان . ولم يوصلهم لدرجة التلاشي من الوجود تقريبا الا تلك الاضطهادات الدينية العظيمة التي أتاها معهم الاسلام منذ الفتح الاسلامي . الا انه في سنة ١٨٥٥ قد أحصاهم البطريرك فوجد عددهم لا يقل ولا يزيد عن مايتان وسبعة عشر الف نفس (٢١٧٠٠٠) بينما كان كل تعداد سكان القطر المصري في ذلك الحين خمسة ملايين من النفوس . وقد تلاحظ انهم تحسنوا تحسينا بينا من ابتداء أيام محمد علي باشا فصاعداً . وبالرغم عن غبنهم وخسارتهم وشبوب وانفجار الاضطهادات التي كانت تقع عليهم كل آونه وأخرى فانهم كانوا ثابتين في خطة التحسين المضطرده .

وبينما كانت الكنيسة القبطية الوطنية في احط درجات الموت اوائل القرن التاسع عشر فاذ الكنيسة اليونانية (الملكية) كانت اردأ منها بكثير . وقد كانت على وشك الفناء في القرن الثامن عشر . ويوجد كثير من اسماء البطاركة الذين تعاقبوا رئاستها ولكن لم يشتهر من سلسلة تلك الاسماء الا واحداً فقط وهو البطريرك فموئيل الذي ترأس سنة ١٧١٠ مسيحية اما الباقون فكانوا كلهم من الاجانب ولم يقم منهم في مصر الا القليل جداً ولم يكن لهم اساقفة بل عدد قليل من الكهنة ولكن بعد جلوس محمد علي على العرش المصري ابتدأت روح الحياة تتحرك في عروقهم كالاقباط . لان بطريركهم هيروثيوس الذي قام بين ظهرانيهم على خلاف عادة اسلافه كان على جانب عظيم من التقوى والجهاد في خدمة امته التي كان عددها نحو خمسة الاف نسمة وكانت ميالة اليه ومحبة له . كان وقد تولى هذا البطريرك رئاسة الكنيسة اليونانية عام ١٨٢٥ فاحسن الصلات مع الكنيسة القبطية حتى انه لما توفي عام ١٨٤٦ وشيعت جنازته باحتفال عظيم جدا كان رجال الاكليروس القبطي جميعا من ضمن مشيعيه . وعلى اثر وفاته حدث شقاق ونزاع عظيمين بين هيئات الاكليروس في القسطنطينية الذين كان يعضدهم حزب قوي في الديار المصرية وحزب اخر من الملكيين المصريين (المصريين الذين يتبعون الكنيسة اليونانية) الذي وان كان قليلا لكنه كان عظيما ومحترماً ولم يكن منشأ هذا النزاع الا الاختلاف على من يجب تعيينه بطريركا في مصر بدل المتوفي . الا

أن ذلك النزاع اوقع الطائفة اليونانية في حالة الارتباك والاختبال وكان الجالس على عرش ماري مرقس الانجيلي طول مدة النصف الاول من القرن التاسع عشر هو البطريرك بطرس السابع الذي أخلف البطريرك مرقس سنة ١٨٠٩ ولم يمت بطرس الا في سنة ١٨٥٤ مسيحية وكانت مدة جلوسه أطول من كل مدد البطاركة الذين تقدموه في التاريخ . وقد كان ذلك الرجل سامي الاخلاق واسع العقل كثير الانشراح والسرور من التحسين العظيم الجديد الذي تم على أيامه . كثير الرغبة باخلاص ليرفع كنيسته وشعبه من وهدة الانحطاط . ولكن مشروعات المرسلين الكاثوليك الذين قاموا في القرن الثامن عشر أخيراً التدبير طريقة لتأسيس كنيسة متحدة حقيقية في مصر كانت تحتوي بالاخص على المسيحيين الملكيين . لكنها تجرأت أيضا على سحب واغراء كثير من شعب الكنيسة القبطية الى حظيرتها فدعى ذلك الى ايجاد سوء الظنة عند انبا بطرس بطريرك الاقباط في النفوذ والتيار الغربي

ولكن حصل اثناء ذلك ان شعباً غريباً قام لتعضيد الكنيسة القبطية [1] المصرية حتى تتقدم وتنموا بدلا من ان يزداد ضعفها بواسطة المساعي التي قام بها الكاثوليك لتبديد أعضائها واغرائهم على الدخول في المذهب الكاثوليكي وقد بدأ تلك المساعي العظيمة جناب المحترم المستر

(١) قام الانكليز قبل هذه المرة ببذل المساعي لمساعدة الكنيسة اليونانية (الملكية) ولم يلتفتوا للكنيسة القبطية الوطنية بالمرة

هنري تاتام الانكليزي الذي وجه اتفانه خصوصا في اثناء بحثه على الكتابات اليدوية القديمة التي كانت كلها من صنعهم فكتب الى المحتشم المستر هولي رئيس الاساقفة بانكلترا يحضه على القيام بواجب الكنيسة الانكليزية نحو الكنيسة القبطية القديمة التعيسة وابتدأت المخابرات بينهما سنة ١٨٣٦ مسيحية ودامت متواصلة بضع سنوات. وكانت شركة التوراة قبل ذلك قد طبعت أربعة أناجيل باللغتين العربية والقبطية قامت شركة طبع الكتب المقدسة بطبع ترجمات عربية من التفاسير المصرية القديمة.

ولم يكن المستر تاتام أول من هام ولذ له البحث في الكتابة اليدويه المصرية القديمة ولو انه أول رجل انكليزي حض الكنيسة الوطنية الانكليزية للمجيء وأخذ بيد الكنيسة الوطنية القبطية المصرية المداسة تحت الاقدام ومساعدتها. وفي سنة ١٨٣٣ م جاء أيضاً المستر كرزون الى الشرق للبحث على الكتابات اليدوية القديمة وزار أكثر وادي الصوامع والاديره المصرية (١). ولسوء الحظ فانه كان مجبوراً مثل باقي

(١) وجد المستر كرزون في دير وادي النطرون تلك المصابيح الزجاجية الجميلة لم تزل معلقة في الكنائس وهي المعروفة عند العموم انها من صناعة العرب وقاصرة على تزيين الجوامع فقط الآن مع ان العرب نقلوا تلك الرسوم البديعة عن اشكال ورسوم القناديل التي كان يصنعها الاقباط وخصوصاً أجمل أشكالها ما كان يستعمل عندهم للكنائس واللوازم الدينية ولكن المستر كرزون رأى ان كل المعامل القديمة التي كانت تصنع فيها تلك القناديل في وادي النطرون قد اندثرت بالكلية من زمن طويل وتلاشت الانموذجات التي نقل منها العرب شكل قناديلهم.

السواحين الذين تقدموا ان يأخذ كل معلوماته بواسطة مترجمين من المسلمين اكثروا من اجتماعهم بالسواحين حتى صار الاقباط يسيئون فيهم الظن. ولكن ملحوظاته الشخصية عما رآه والاتفاقات الغريبة التي صادفها والمملوءة بكثير من الفائدة واللذة وعلى الخصوص بعد عدة اكتشافات كان المستر تاتام قادراً على الحصول على كثير من الكتابات اليدوية الثمينة من الاديرة القبطية. وكانت زيارة المستر تاتام الديار المصرية من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٣٩ م وصادفته مشاق واتعاب عظيمة جداً حتى تمكن من معرفة ودرس بعض الشيء عن الكنيسة القبطية وايجاد أصحاب له واصدقاء من أبنائها. وقد جاء مصر أيضا عام ١٨٣٠ المستر ليدر موندا من قبل جمعية التبشير فأوجد الصلات الحميدة بينه وبين الاقباط وتمكن بذلك من ان يعضد ويفيد المستر تاتام وجناب رئيس الاساقفة بانكلترا فوائد آجمة وقد زار المستر تاتام أديرة وادي النطرون وتحصل على تصريح بأخذ كثير من الكتابات اليدوية الثمينة منها. ومن ضمن ما أخذه كتابة الثالوث الاقدس بخط البطريرك كيرلس الاكبر الذي نسخها في سنة ٦١١ م فيكون مضى عليها الآن (سنة ١٨٩٧ م) ١٢٨٦ سنة فهي من الآثار القبطية العظيمة وأيضاً وجد أكثر من ثلاثة قطعة من الخطوط اليدويه السورية القديمة غاية في الجمال ومكتوبة على رقوق الغزال بخلاف عدد عظيم من الكتب المهمة المهملة والمفقود منها أوراق كثيرة. وهذه الآثار التي لا تقدر قيمتها هي

الاثر الباقي للمكتبة القبطية القديمة التي كانت بدير السوريان ثم حملت بعدئذ الى دار الاثار البريطانية

وبعد ان وصل المستر تاتام الى انكلترا في مارس سنة ١٨٤٠ م قدم الى سيادة رئيس الاساقفة مذكرة عظيمة ومهمة للغاية مبينا فيها حال الكنيسة القبطية المصرية بالاختصار وذيل تلك المذكرة بالالحاح بحرارة على الكنيسة البريطانية طالبا منها مساعدة تلك الكنيسة التعيسة وأسهب في أقواله حتى أبان ان هذه المساعدة يمكن اتخاذها فرصة سانحة للتأثير على المصريين الاقباط

وزار مصر أيضا قسيس انكليزي آخر يدعى ت . جرعشو في شتاء سنة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ تصادق مع كثيرين من أعضاء الكنيسة القبطية المصرية. وكانت نتيجة هذه الصداقة انه كتب الى رئيس أساقفة انكلترا يحضه على مساعدة هذه الكنيسة المصرية. وفعلا عرض عليه رسما عن ايجاد كلية لشبان الاقباط الذين يرغبون تعليم اللاهوت الاندماج في سلك الاكليروس ويصبحون قسوسا متعلمين ينفعون كنيستهم القبطيه . وقد أنشئت فعلا تلك الكلية وظلت فاتحة أبوابها للطلاب عدة سنوات بادارة المستر ليدر لكن بعدئذ هدمت عزيمته ووهنت شجاعته لما آنس الضعف في هذا المشروع وكان نجاحه قليلا ولسوء الحظ أبطل الكلية وغلقها سنة ١٨٤٨ م . مع ان البذور التي بذرها المستر ليدر في بضع سنوات قد أثمرت حتى في نسل الذين يتعلمون فيها . ولو كان يعلم المستر ليدر

له لو لم يتم رسامة قسيس واحد من تلاميذ مدرسته لكنها أخرجت فقط بعد تمادي الوقت البطريرك العظيم المعروف كيرلس (بأبي الاصلاح) الذي كان من تلاميذها لربما كان تشجع وواظب على عمله ولم يعطل المدرسة .

ومما يحسن ذكره ان الكنيسة القبطية مع ما مرّ عليها من الايام المظلمة السوداء على أشدها لم تهمل أبداً تعليم أبنائها . فقد كان لها في كل ارشيه مدرسة يتعلم فيها أبناؤها الكتابة والقراءة ولكنها أهملت البنات من عدة أجيال وتركتهن يلتقطن حسب رغبتهن من ثمرات التعليم كل ما يعثرن عليه كالعصفور الذي يلتقط الحبوب التي تصادفه عفواً حيما يسعى طالباً غذاءه لان الكنيسة لم تضع لهن طريقة تعليم منتظمة في المنازل أو في المدارس . ولكن قد لاحظ البطريرك المشهور كيراس أبو الاصلاح الذي أخلف البطريرك بطرس سنة ١٨٥٤ رداءة هذه الحالة وعرف ما ينتج من المساوىء فأسس مدرستين منتظمتين الاولى للبنات والاخرى للبنين وقد كان التعليم فيهما عظيما والعلوم التي تدرس من أرقى ما يدرس من نوعها في المدارس العالية والراقية

وقد كان الانبا كيرلس المعروف بأبي الاصلاح قبل ان يتولى السدة البطريركية رئيساً منذ سنوات لدير أنبا انطونيوس الشهير وعند دعوته من الدير ليشغل العرش البابوي ابتهج به الشعب القبطي لدرجة فوق التصديق ولما علم أقرانه الذين كانوا يدرسون معه ان له رغبة في

اصلاح الكنيسة صاروا يلغطون بتعيينه حتى لما اجتمع مجمع الاساقفة في القاهرة لانتخاب بطريرك وقد نقص عدده ١٢ عضواً عن المعتاد لم يسمعوا الا اسم كيراس في فم كل قبطي لانتخابه بطريركا . نعم ان هؤلاء الاساقفة بالنسبة لكبر سنهم وجبنهم غالبا قد ترددوا في تزكية وتسليم قوة عظمى ليد شاب غيور مثل كيراس الذي تربى تربية أجنبية وقد أشيع وتأكد الناس انهم كانوا على عزم لانتخاب راهب أبله جاهل راح اسمه عن ذاكرتي الآن . فثار عليهم الشعب ثورة حقيقية واستصحب معه جماعة من الاجناد المتسلحين وأسرعوا جميعا الى الكنيسة الكاتدرائية حيث كان الاساقفة مجتمعين بها لاجراء الانتخاب فهجموا عليهم وأبطلوا الانتخاب بالقوة الجبرية فما كان من هؤلاء الاساقفة الشيوخ المساكين العقول الا انهم هربوا من الكنيسة ثم التزموا ان يرضخوا ويقبلوا صوت نواب الشعب وبعده تم الاتفاق بين الطرفين (الاساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غريبة :— وهي انه يصير تأجيل انتخاب البطريرك ويصير تمشين كيراس مطران لبابيلون (القاهرة) على شرط انه اذا أظهر كفاءة تامة في وظيفة الاسقفية ينتخب بطريركا . ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير أصولية بالمرة لانه طبقا لمواد القوانين الكنائسية القبطية لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد التي منها عدم جواز انتخاب أسقف لوظيفة البطريركية ولكن بالرغم عن ذلك فقد قام الاساقفة بعهدتهم مع الشعب بكل أمانة وانتخبوا كيراس على العرش البابوي الخالي حتى قبل ان ينتهي

وقت التجربة .

غير انه من الاسف لم تدم رئاسة كيراس الكهنوتية الا سبع سنوات صرف اثنين منها في الحبشة والباقية في مصر الا انه مع هذا الزمن القصير قد افتتح حركة الاصلاح العظيمة بنفسه ولم تقف هذه الحركة بعدئذ بل تقوت وانتشرت بقوة حية حتى استلمها أبناء الجيل الحاضر ذلك عدا عن المدارس التي شيدها بجوار الكنيسة الكاتدرائية التي أعاد بناءها كلها مرة ثانية لانها كانت بلا قباب تستحق الذكر بالنسبة لسرعة تشييدها في بادىء الامر لتخريب وتهديم حي الاقباط القديم أيام عودة الترك للبلاد ثانياً سنة ١٨٠٢ مسيحية وخصوصاً وانه تم بناؤها على نفقة أحد الاعيان الاقباط الكرماء على عهد البطريرك

مرقس الثامن .

وقد كان كيراس أبو الاصلاح عالماً بأصول دينه فلما ان ارتقى العرش البابوي رأى شعبه واقعاً في خطية عبادة الاصنام وذلك لسجودهم الايقونات التي يعتبرونها مقدسة ومرصوصة على جدران الكاتدرائية القديمة فعند ماشيد الكاتدرائية الجديدة لم يسمح بنقل تلك الايقونات اليها بل جمعها كلها ووضعها على بعضها وحرقها باحتفال كبير امام جمع عظيم من الناس . ووقف في وسط الجمع المحتشد من رعيته وخطب فيهم مبينا سبب هذا الحريق . ولما أن انتهى من وعظه أشار بيده الى كوم الحريق وقال (انظروا لهذه الصور الخشبية التي تعودتم احترامها لدرجة العبادة ـ

ها هي صارت رماداً لا تنفعكم ولا تضركم ! فالله وحده هو الذي يستحق العبادة والسجود) ولا يسعنا اظهار الاسف الشديد على عمل كيرلس هذا لانه قد اندثر شيئا عظيما من الاثار الفنية الجميلة العظيمة الصنع في سبيل حرسه (١) العظيم الذي ألقاه على شعبه ولكن فن التصوير أصبح تقريبا معدوما بالكلية في مصر من عهد الفتح العثماني حتى ان الصور التي رسمت لكاتدرائية البطريرك مرقس الثامن التي حرقها كيرلس كما تقدم كانت تدل على غشم المصور وأردأ صنعا من الصور التي كانت موضوعه على جدران الكاتدرائية التي جدد بناءها كيرلس المصلح . والدليل على ذلك انها لو كانت صور جميلة الصنع حقيقة لما سمح كيرلس مطلقا بحرقها ونقول بالاجمال عن هذا الموضوع ان الاقباط في ذلك العصر لم يكونوا قد فقدوا شعور جمالهم حتى في أيام جهلهم ليحرموا تقريبا من شعورهم التاريخي بالكلية والبرهان الحسي لذلك والذي يستحق الذكر البناء العظيم

(١) والامر الغريب الذي نستنتجه من هذه الحادثه ان الاقباط الذين كانوا في عهد البطريرك كيرلس كانوا مداومين على تأدية ذات الاحترام الزائد لصورهم المقدسه كابناء الكنيسة اليونانية . مع ان الاقباط في كل العصور الماضيه لم يظهروا أي دليل أو برهان لاعتقادهم باية فائدة من عبادة الايقونات . وابناء الكنيسة القبطية هذه الايام لا يلتفتون للصور المعلقة على جدران كنائسهم اكثر مما نلتفت نحن للصور التي في الزجاج الملون على شبابيك منازلنا الانكليزية مع ان صور العباده في المنازل القبطية اندر منها في منازلنا

الذي شيده نخله بك البارائي في الحصن الروماني (قصر الشمع) وهذا النبيل هو علماني تقي من أبناء الكنيسة الوطنية (القبطية) تعهد بتجديد كاتدرائية بابيلونه القديمة المشهورة باسم كنيسة المعلقة وتخومها (١) أيضاً على نفقته الخصوصية . وكان يتحفظ جيداً على كل قطعة قديمة الصنع جميلة المنظر وبقي حارسا عليها حتى انه بعد اتمام البناء صار ينقلها بكل حذر ويوضعها في المحل المعد لها . وبعد ان تم البناء والترتيب صار يتعذر جداً على الناظر بعد امعان النظر والتفحص الدقيق ان يميز بين الكنيسة الجديدة والقديمة . غير اننا لما نتذكر أعمال التخريب والتوحش الذي كنا مخطئين فيه بانكلترا عند ابتداء تجديد الكنائس ونعتقد ان كنيسة المعلقة هي أول مثال من نوعه في التجديد لا نقدر ان نعجب بانفسنا ومع ذلك فان علماء الاثار الانكليز بالكد يشهدون شهادة حسنة لنخله بك الذي صرف ٦٠٠٠ ستة آلاف جنيه من ماله الخاص على ذلك التجديد

(٢) أغلب الكنائس القبطية تجددت منذ دخول الانكليز في البلاد الا ان ابتدأ العمل في التجديد كان قبل دخولهم أي من ابتدا سنة ١٨٨٩ م . ومما يحسن ذكره بالاسف أن أعظم خسارة حلت بالاقباط كانت بسبب أحد السياح الانكليز . اذ قدم مائة جنيه انكليزي بصفة رشوه لاحد الرهبان الادنياء ليسمح له أن يسرق بعض أبواب الكنائس الجميلة المقدسة المشغولة بالاوعمة من خشب أرزلبنان ويأخذها معه الى باريس وقد تم ذلك . وبعدئذ صار بيعها الى المتحف البريطاني وموجودة فيه الى الآن

وهو مبلغ عظيم لم يوقعه فيه الاضعف معارفه في التاريخ .

وكان السبب في كل هذه النفقات الباهظة أيضا انه أتم ترميم طابية حصن تراجان التي تخرب نصفها تقريباً وقد كانت هذه الطابية أهم حصن يحمي الاقباط وراءه أثمن شيء لديهم حتى يحفظوه في مأمن من الاعداء . ولم يكن للكنيسة مدخل مناسب لها بل كان الانسان يصل اليها من داخل برباء ذات ممرات ضيقة تنفذ من البوابة الصغيرة الموجود على مقربة من الزاوية الشمالية الشرقية من الحصن . والتزم نخله بك ان يهدم كل ما في طريق السلالم الجديدة وكل ما في أقرب نقطة من السور القديم وفتح له مدخلاً جديداً من البناء الروماني الصلد الذي يبلغ عرضه نحو ثمانية أقدام ولم يكن هذا فقط أردأ ما فعل . فان أحد البرجين العظيمين المتاخين لمدخل الحصن الجنوبي القديم قد هدمه حتى لا يعترض اقامة حائط جديد كما ان البرج الثاني كاد يلاقي نصيبه لولم يكن حظه سعيداً وتحولت انظار نخله بك عنه . ولما سمع اللورد كرومر بما هو جار في حصن الرومانيين أصدر أمره الذي لا يجلم أحد في مصر بنقضه أو المجادلة فيه . فلم يقدر أحد بعدئذ ان يمس حجراً واحداً من بقايا ذلك الحصن الروماني .

ومن ذلك الحين أصبحت الاثار القبطية تحت عناية لجنة حفظ الاثار العربية مما سر غالب الاقباط من حيثية حماية كنائسهم وحفظها من تطرق الخلل أو يد السالبين اليها . وفوق ذلك فقد صادق البطريرك أيضاً على عدم التصريح لاجراء اصلاحات أو ترميمات أو اعادة أبنية

قديمة دون موافقة اثنين من أعضاء لجنة حفظ الاثار تنتخبهما اللجنة لهذا الغرض . وحقيقي ان البطريرك التمس من اللورد كرومر ان يوجه عنايته لهذا الامر وان يصدر منشوراً ينهي فيه السياح ان لا يغيروا أو يرشوا خفراء وحراس الكنائس كي يسهلوا لهم السبيل في سلب بعض الذخائر الفنيه القديمة التي لم يزل موجود بعضها في الكنائس فالتزم اللورد ان يعترف للبطريرك الحالي ان سلطته لا تسري على السياح الذين يعتبرون الآن أساس الخطر الحقيقي الذي يحدق بأثار الكنائس القبطية .

وقررت جمعية التبشير الانكليزية ان العمل الذي أسسته الكنيسة البريطانية في مصر في سنة ١٨٤٨ م قد هجرته في السنة التالية لتوليه البطريرك كيرلس الرابع على العرش البطريركي وحلت محلها في ذلك العمل الكنيسة الامريكية بواسطة جمعية التبشير المشيخية التي كانت مثابرة على عملها قبل ذلك الوقت بزمن طويل ولكن هذه الجمعية الاخيرة قد حذت حذو جمعية التبشير الانكليزية ومع ان مبدأ عمل الجمعيتين في هذه البلاد هو لبث روح الديانة المسيحية بين المسلمين وليس للتبشير بين الاقباط فانهما كانتا كباقي الارساليات الدينية التي لهذه البلاد فلا تجد الا صعوبة وبطئا شديداً في نجاحها مع المسلمين فلم تيأس وتترك عملها بل كانت تجتهد في تلمذة تلاميذها من أبناء الكنيسة القبطية والحقيقة التي لا ريب فيها ان هذه الكنيسة تستفيح جداً وتنكر على تلك الارساليات عملها .

وكنيسة المبشرين الانكليز الحديثة التي أنشأت في مصر سنة ١٨٨٤ مسيحية لا يستقبحها الاقباط لان الكنيسة القبطيه تعترف ان كنيسة انكلترا هي كنيسة أسقفية حقيقية ورسلها لا يقودون أبناء الكنيسة القبطيه الى المرطقه ولا يعلمونهم الاعتراف بعظمة بابا رومه الذي تحتج عليه الكنيسة القبطيه بعزعة راسخه من منذ اكثر من أربعة عشر جيلا ولكن مع ممنونية الاقباط وشكرهم الزائد الى المشيخيين الاميركان لانعطافهم نحوهم والمساعدة المرضيه التي يلاقونها منهم — فانهم أي الاقباط يحزنون حزنا شديداً من أعماق قلوبهم لانتشار مذهب المشيخيين بين الخائفين والمنشقين من الاقباط

ولا بد ان يكون دائما منبع أسف شديد عند أعضاء الكنيسة الانكليزية الذين عهد اليهم العمل في أول الامر وبتقصيرهم وانحرافهم عن جادة الصواب قد أنجز العمل عن يد أعضاء كنيسة أخرى التي يقضي عليها دستورها بان نجاحها يتوقف على ضرر الكنيسة الوطنية المصرية بمقدار الضرر الذي يصيبها فيما اذا خزلت في اتمام مأموريتها — فنحن الذين وضعنا يدنا على المحراث ونظرنا الى الوراء أصبحنا آخر الشعوب ذوي الحقوق في انتقاد طرق الغيورين من الرجال والسيدات الذين قاسوا عبء الحمل الثقيل وحرارة شمس النهار في وسط كروم الرب

واجتهد البطريرك كيرلس بتقريب الاعتراف بالثلاث كنائس في مصر بين شعبه وهي الكنيسة القبطية والكنيسة اليونانية

والانكليزية . ولكن مساعيه هذه قد الفت سوء الظنه به عند الحكام المسلمين في مصر فاعتبروا ذلك المشروع خيانة منه وخروجاً عليهم فدبروا طريقه لاعدامه فتوفي مسموماً . وبعد وفاته أصيبت مصر بحركة اصلاح لم اتصل اليه حتى الآن

وخلفه الابناء دمتريوس على السده البطريركيه الذي كان رجلا صالحا وعادلاً ولكنه لم يكن كفؤاً للقيام باعمال ومشروعات سلفه حتى انضم في عهده كثيرون من الاقباط الذين كانوا يرغبون في زيادة التعبد والجنوح الى الحياة السياسية الراقيه الى الكنيسة المشيخيه الاميركيه اما باقي ابناء الكنيسه القبطيه الوطنيه الذين تربوا على معرفة زهاء ومجد كنيستهم الاصليه وطقوسها الاسقفية فوقعوا في يأس عظيم . وهذا العمل حدا البطريرك ان يحرم الكنيسة المرطوقيه (الاميركيه المشيخيه) التي كانت قد أسست لها دعائم ثابتة في الديار المصرية وعلى الخصوص في الوجه القبلي . ولكن ذلك لم يرق في عيني الطبقة المتعلمه من الاقباط العلمانيين لان الحرم في نظرهم لا يعتبر عمل ديني عظيم جادت به كنيستهم ولا هو من النجاح والفائدة على شيء البته (١)

(١) وفي سنة ١٨٦١ مسيحية التي ارتقى فيها الانبا دمتريوس على العرش البطريركي انشأت مس هواتلي مدارسها المشهورة في القاهرة بالفجاله . وكان قصدها من فتح هذه المدارس هو جذب ابناء المسلمين الى الديانة المسيحية ولم تكن تقصد ذلك مع الاقباط ولو انها تصدت كثيراً في ذلك للسوريين المسيحيين

ولما توفي الانباء ديمتريوس تشاور الشعب القبطي فيما بينه واقر قبل ان ينتخب بطريركا جديداً ان يطلب منه اعتماد مشروع سنه لاصلاح الكنيسة . وقد اجتهد كردينالات رومه ليقيدوا بايام المقبل بمثل ما فعل الاقباط وبذات النتيجة التي توصلوا اليها هؤلاء

وقد بني الشعب القبطى عمله هذا مع البطريرك على أساس مادة في القانون الكنائسي الذي تمشى عليه الكنيسة القبطيه كما روي ذلك ابن العسال الذي عاش في القرن الثالث عشر ، ونص هذه المادة في القانون المذكور هى : —

يجب على البطريرك ان يشاور علماء واتقياء رجال شعبه من الاكليروس والعلمانيين (وعلى الخصوص الاشخاص الملتفين حول الملك الحاكم) جمعاً وانفراديا في كل الشؤون الهامه المختصه بالشعب والكنيسة وما يقرون عليه يجب تدوينه)

فاعتماداً على ما ذكر قد وضع نخبة الاقباط مشروعا المقصود منه تأسيس مجلس ملي في ابرشيه مكون من فرعين اكليريكي والثاني علماني ويكون هذا المجلس تحت رئاسة أسقف الابرشيه وينتخب أعضاؤه كل خمس سنوات من الحائزين على حقوق الانتخاب واعتمدوا هذا المشروع بامضاء وموافقة مطران الاسكندرية ووكيل الكرازه المرقسيه والقائم مقام البطريرك وقتئذ نخلو الكرسي البطريركي .

وقد صادق جميع الاساقفه على هذا المشروع ولكن الشعب لم يره

الدواء الشافي للاصلاح المنشود فتفاوض أحد الاعيان مع سعادة بطرس باشا غالي وهذا استصدر دكريتو خديوي بتأسيس هذا المجلس بصفه قانونية رسميه . وبعد جدال واختبارات كثيرة مدة سنتين في شؤون الاصلاح انتخبوا انبا كيرلس الخامس البطريرك الحالي سنة ١٨٧٥ مسيحيه الذي تعهد عند تبوئه العرش المرقسي ان يوافق ويؤيد كل القرارات التى أقرها الشعب قبل انتخابه .

وفعلا ظل البطريرك والمجلس الملي يعملان بيد واحدة واتفاق تام في اصلاح الكنيسة والشؤون المليه الى درجه كانت من نتائجها انشاء المدرسة الاكليريكيه في القاهرة ووضعها تحت رئاسة المتنيح الايغومانوس فيلوثاؤوس رئيس الكنيسة الكاتدرائية المرقسيه بالقاهرة لانه كان رجلا نادر المثال في كفاءته العلمية والشخصية . ثم تصادف عقب هذا الوفاق بين الشعب والبطريرك حصول نفور بين الطرفين الجأ البطريرك الى عدم الصبر والتأفف من احتمال قوة سلطة أخرى تعمل بجانبه لم يخضع لها أو يحتملها أحدا من أسلافه . فلما رأي نفسه غير مقتنع بنتائج أعمال وتعاليم المجلس أصدر أمره بغلق المدرسة الاكليريكية وكان من وراء ذلك اهمال الكهنة والقسوس بدون تعليم لاهوتي يؤهلهم لحفظ مراكزهم الكهنوتية ويعظم شأنهم في نظر الشعب الذي أصبح متنوراً عن ذي قبل بعد فوات أزمنة الاضطهادات . ولما لاحظ أعضاء المجلس الملي ان نصائحهم لا يلتفت اليها وغير مرغوب انقطعوا عن

الاجتماع — وتركوا الحبل على غاربه لابنا كيرلس فحكم الكنيسة والشعب بالطريقة القديمة لغاية سنة ١٨٨٣ م حيث ظهرت عثرات وفضائح ادارية ممتزجة بشطط في امتيازات الكنيسة أدت الى هياج الشعور العام عند الاقباط . وفي ذلك كان قد تخرج جيل من الشبان الذين تعلم أغلبهم في مدارس الاميركان أو الكاثوليك (اليسوعيين والفرير) ولو انه كان أيضا عدد عظيم من شبان الاقباط المتعلمين ثابتا في ايمانه بكنيسته الاصلية التي تربى آباؤهم في احضانها الا انه تنافيهم أيضا الروح بعدم الميل لحالتها العامة . فصخب كل شبان الطائفة عليها وصاحوا طالبين اعادة انتخاب اعضاء المجلس الملي فسلم البطريرك مطالبهم وأعيدت الانتخابات وفتحت الجلسات وأقرت جملة قرارات . ولكن أبى البطريرك الا انكارها فظلت حبراً على ورق .

وفي سنة ١٨٩٠ اسس بعض صغار الشبان جمعية سموها غرضها اصلاح حال الكنيسة وسموها (جمعية التوفيق القبطية الخيرية) ولفظة توفيق ليس قصدهم تيمنا فقط باسم الخديوي توفيق الذي كان محبه المسلمون والمسيحيون على السواء بل هي كلمة عربية معناها تمهيد الطريق . وابتدأت هذه الجمعية عملها بنشر نبذات ونشرات باللغة العربية الغرض منها استنهاض الرأي العام بين جميع الاقباط الذين يدرفون القرأة والكتابة — وقد ترجم مؤلفو هذه النشرات بعضها الى اللغة الانكليزية فكانت جميعها تستحق المطالعة والامعان . فكبرت الجمعية وكبر عملها

بسرعة عظيمة واثرت تأثيراً حسنا في الشعب حتى خافها البطريرك وبطانته من طائفة الاكليروس الذين كانوا يرتعدون خوفاً من تغيير الحالة التي هم عليها فنبذوا والبطريرك اقصى جهدهم لحل تلك الجمعية . ولما كان اعضاؤها كباقي الشبان والرجال المتوقدين حرارة وغيرة على ملتهم تحصر قواهم هذه في حدود اختباراتهم العلمية والعالمية قد صدرت منهم بعض غلطات بطريق الاتفاق اتخذها رجال الاكليروس فرصة سانحة فكبروها وهللوا بها واولوها الى مقاصد سيئة . فوشى بهم البطريرك عند الحكومة بتأويل اغراضهم الى خيانة الوطن والخروج على الحكومة . وغرض البطريرك من تلك الوشاية هو غالباً تبرئة نفسه من عمل رجال الجمعية خوفاً على حياته وخوفا من أن يصادفه ما صادف البطريرك الاسبق كيرلس ابي الاصلاح كما تقدم . لانه ولو أن الاحتلال الانكليزي في هذه الديار قد يحول دون حصول ثورة عامة أو اضطهاد ديني ولكن لا يمكنه الضرب على ايدي من يهيجون الشعب المضطرب بوسائط سرية . واسس البطريرك ايضاً جمعية اخرى ضد جمعية التوفيق وسماها جمعية الحق (الارثوذكس) ومن ثم ابتدأت العلاقات في التوتر بين البطريرك وجمعية التوفيق .

وفي ربيع سنة ١٨٩١ قام الاقباط بمظاهرة عظيمة في القاهرة حضرها مندوبون من جميع طوائف الاقباط الساكنين ببلاد القطر المصري . وقام الخطباء يخطبون في جموعهم المحتشدة واخيراً اقروا على

انتداب وفد يقابل البطريرك ويطلب منه بالحاح ضرورة اجتماع المجلس الملي وايجاد الاصلاح المطلوب والالتفات لصوت الشعب

والبطريرك كيراس الخامس يشبه في طباعه بابا روميه اذ يعتقد الاثنان بعدم ضرورة المجالس الملية . فلما مثل وفد الشعب امام ذلك الشيخ ذرفت عيناه بالدموع وكر خارجاً من الغرفة . فاقر الشعب على عقد اجتماع عام في ساحة البطريكخانة . فكتب البطريرك لسعادة محافظ القاهرة يخطره بما كان وطلب قوة من البوليس للمحافظة عليه وحفظ النظام . وبعدئذ عقد مجمعاً مقدساً من تلقاء نفسه (مجمع اساقفة) حضره جميع اساقفة البلاد ورؤساء الاديرة ورؤساء الكنائس الكبرى . ولما تم اجتماعهم قدم لهم ورقة ليوقعوا عليها ولم يمكننا معرفة موضوعها ولكننا نظن انه طلب فيها منهم مساعدته ضد طالبي الاصلاح . ولو أن اغلب الاساقفة اصلهم رهبان ويجهلون القراءة والكتابة فان بعضهم قد ختم تلك الورقة المقدمة لهم بدون قراءة ما بها الا أن بعض القسوس المتعلمين وذوي الدراية قد رفضوا المصادقة عليها . وفي مقدمة اولئك القسوس كان ابونا فيلوثاؤوس رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى المشهورين الاقباط بسعة علمه ودرايته . وابونا بطرس ابغومانوس [1] كنيسة الفجالة . وابونا يوسف ابغومانوس

(١) ويدعون الاقباط ايضاً القمص. وتقريباً كلاتهم واسماؤهم اليونانية محرفة وبالكد يعرف الانسان معنى كلة منها . ولفظة قص معناها بالانكليزية يضاهي قسيس اكبر أو رئيس ولكن لفظة قص ويغومانوس عند الاقباط تستعمل ايضاً كرئيس الدير

بابيلون وأبونا بشوي أيغومانوس كنيسة حارة الزويله وابونا عبد الملاك ايغومانوس كنيسة ابو سيفين . وقد اصدر البطريرك التعليمات اللازمة للقسوس ورؤساء الكنائس لقراءة تلك الورقة أو المنشور بصوت جهوري على الشعب بعد الصلاة في جميع الكنائس . وبعدئذ استصحب البطريرك لفيفاً من الاساقفة وتوجه لمفاوضة الخديوي توفيق باشا في امره الذي حقق المسألة القبطية بكل حذافيرها ونصح البطريرك بكل احترام بان يسلم لارادة ومطالب الشعب وبين له انه هو نفسه واقع في مثل هذه التجربه . وقيل أن الجناب الخديوي قال له (قبل احتلال الانجليز لهذه الديار حكمت شعبي بمجرد ارادتي واميالي ولم يكن لواحد ان يسألني أو يحاسبني على ما اعمل . لانى كنت اعد من الظلم أن يقاد الحاكم لسلطة تراقبه . اما اليوم فقد تيقنت أن طريقة الاحكام الجديدة وهي طريقة الشورى صالحة لامتي وعليه تراني لا اقاوم هذه الطريقة مطلقاً بل اجتهدت في تعليمها وخضعت للذين يريدون مساعدتي لحكم امتي بطريقة توافقها فاذهب انت اذاً وافعل مثلي ولسوء الحظ توفى توفيق باشا بعد ذلك بقليل جداً . فاستأنف زعماء الاصلاح قضيتهم ضد بطريركهم في عهد سمو الخديوي المعظم عباس باشا حلمي الثاني وطلبوا من الحكومة اصدار قرار وزاري لاعادة انتخاب المجلس الملي . فكان لهم ما تمنوا ولكن لم يحضر البطريرك وقت الانتخاب بل تم تحت رئاسة محافظ القاهرة غير أن الاحوال ازدادت اشكالا وتعقيداً وصارت في حالة معيبه ومشينة للطرفين لان الغرض الاصلي من

الاصلاح اصبح قائما مظلما وقت الجهاد مع اليد العليا أي البطريرك وما وجه الابهام الا التجاء الحزبين الاكليركي والملي الى سلطة الحكومة الاسلامية وهو الامر المخالف تمام المخالفة لنص شريعة العهد الجديد (الانجيل) وكان من الذين يميلون الى حزب الاصلاح من رجال الاكليروس انبا اثناسيوس اسقف صنبو فحرمه البطريرك فنزل الى القاهرة يستسمحه فوجد باب البطريركخانة مغلوقا في وجهه بامر البطريرك الذي بعد ما امر بذلك سافر الى الاسكندرية . واخيراً تغلب حزب الاصلاح ونجح رجاله في نفي البطريرك الى دير وادي النطرون ونفي انبا يوحنا مطران اسكندرية الى دير ماري بولص في البرية . ولكن بعد ذلك عاد في الحال زعماء الاصلاح وتاكدوا أن تصرفهم هذا حرك العواطف الدينية في الشعب وتحولت اميالة عن حزبهم

اما انبا اثناسيوس مطران اسكندرية المحروم الذي كان من حزب الاصلاح وليس من الذين استحقوا النفي مع البطريرك فقد استدعاه الحزب المذكور ليكون نائب البطريرك مدة نفيه . ومع فساد وبطلان حكم الحروم الذي اوقعه عليه البطريرك ومخالفته للاصول الكنائسية فانه تحمله على نية التخلص والتبرىء منه بالطريقة القانونية . وبحكمته واعتداله تمكن بارجاع حزب الاصلاح الى الصراط المستقيم . وقسم رجال أمجلس الملي انفسهم الى اربعة لجان . الاولى للنظر في شؤون المدارس وما يؤدي الى تقدمها والثانية لحصر ايرادات الاوقاف والنظر في ما يرقي حالة الكنائس

ونظامها . والثالثة لفحص حالة الكنائس واستئصال عيوبها الشائنه . والرابعة للنظر في حال رجال الاكليروس وترقية احوالهم الدينية والعلمية والادبية — ولكن تصرفهم نحو البطريرك والخوف من حرومه قد ازعج مجموع الشعب حتى تنحى مبتعدا عن حزب الاصلاح وحتى عن الكنائس فاصبحت لا يدخلها الا نفر قليل للصلاة . واجتهد انبا اثناسيوس وبذل كل الوسائط الممكنة لحل البطريرك لرفع الحروم عنه فلم يفلح فعزم على عدم الاعتراف بذلك الحروم . وساعدته فضائله الشخصية لاسترجاع ثقة الشعب به ونجح في ذلك نجاحا باهراً ولكن بعد ذلك بقليل كان رياض باشا قد انتخب رئيساً للوزارة المصرية . فكان ينظر لكل علامات النهوض الحيوي بين الاقباط بعين ملؤها النفور التام . فبذل جهده في تأسيس مناعب كثيرة لهم واخيراً تمكن حزب الكنيسة القديمة من الاتحاد مع حزب الاصلاح بان اقوم طريق الواجب سلوكه هو الخضوع لبطريركهم بارجاعه ثانياً من منفاه . فتنازل انبا اثناسيوس بكل هدوء عن وكالته للبطريركية . وعاد البطريرك من منفاه ودخل القاهرة في احتفال باهر عظيم جداً كدخول القادة الفاتحين . اذ تهافت المسلمون والاقباط من جميع انحاء البلاد لاستقباله والترحيب به بالموسيقى وهم يهللون ويكبرون وحل الاقباط جياد المركبة التي نقلته الى الديار البطريركيه وجروها بانفسهم تعظيما له اما الازدحام فكان شديداً جداً في الطريق والمنازل والاشجار وعلى اعمدة مصابيح الشارع الموصل للدار

البطريركية حتى وقفت حركة الانتقال العمومية بالكلية في ذلك الشارع .

وبالجملة قد كانت المظاهرة مؤثرة جدا وتدل على الاخلاص التام المتأصل في قلب الشعب القبطي نحو بطريركه . ولكن بقدر ذلك الشعور نتأسف لعدم اتخاذ كيرلس فرصة انتصاره هذا في استعمال الحكمة مع شعبه . لان اول ماظهر منه بعد رجوعه عدم اتخاذه عادة الشريفي النفوس في مسامحة المخطئين اليهم ومصالحة من يعملون معهم لاصلاح شؤون الامة . لانه لم يتمكن رجال السلام بحمله على مصالحة ومسامحة انبا اثناسيوس وباقي رجال الاكليروس الذين كانوا في حزب الاصلاح الا بكل صعوبة شديدة جداً . وبعد ذلك أبى الاعتراف بالمجلس الملي كما ولم يسمح له بتكملة اعماله الاصلاحية التى كان قد ابتدأ فيها بان أقر ان تكوينه غير قانوني وحقيقة كان ذلك ثم جدد رابطة مع رجال الحكومة الامر المخالف لنص الانجيل . وقد قبل النيشان المجيدى الاكبر من سلطان تركيا الذي أنعم به عليه بعد رجوعه نظير مساعيه التى اتخذها في اهباط وهدم مساعي حزب الاصلاح وقتل روح النهضة الحيوية في شعبه قبل نموها في مهدها . ثم حل المجلس الملي . وانتخب أربعة من رجال هذا المجلس دعاهم اللجنة الملية تنظر معه في شؤون الطائفة لحين تجديد انتخاب مجلس اكليريكي بدلها . وأعاد افتتاح المدرسة الاكليريكيه الا انه وضعها تحت ادارة قوم لايليقون بالمره لادارتها فعادت الفضائح والغلطات

الاكليريكية القديمة على مثل ما كانت قبلا بدون ان يستطيع احد التعرض لها

ويسرنا القول انه بعد عودة كيرلس من النفي ببضع سنوات تغيرت أحوال الكنيسة المصريه الى أحسن من ذي قبل . فان البطريرك وحزب الاصلاح لاحظلا ان كنيسة المسيح لا يمكن المحافظة عليها ولا اصلاحها بدون اشراك روح المسيح في ذلك وظهرت رغبة كل من الطرفين الى السلام . وكان نتيجة ذلك الفكر ان مدرسي المدرسة الاكليريكية الغير اللائقين للتعليم فيها تغيروا بآخرين من ذوي الكفاءة والعقول الراجحة القابلة للنور الجديد نور الاصلاح والارتقاء الديني والادبي ثم صرح البطريرك لنفر قليل من طلاب هذه المدرسة للتبشير والوعظ في الكنائس . وبذلك أمل الشعب ان يخلق من هؤلاء الواعظين فريقا جديداً ينشيء من طبقة قسوس أكثر تنوراً في مهنتهم من الجيل السابق وبالطبع لايمكن اجراء أو حصول اصلاحات اكثر مما تقدم في عصر ذلك البطريرك الشيخ الهلوع . لانه يخاف من جهة من اتهامه بمواطئته مع الانجليز ومن جهة أخرى من الأميال الهرطوقية التى نمت في عقول الجيل المرتقى الذي تعلم في مدارس الامريكان وانحرف بجهل لاحتقار كنيسته الاصليه .

ومما يجب ذكره قليلا في هذا المقام المساعي الانجليزية التى بذلت في مساعدة الكنيسة القبطية فنقول .

بعد احتلال الجنرد الانكليزيه لمصر تأسست حالا جمعية (زيادة انتشار المسيحية في مصر). ولكن تعقدت أعمالها منذ أول افتتاحها لانها رفضت الاعتراف بان الكنيسة القبطية هى الكنيسة المصرية الرسمية . ومن الغريب انها سعت لدى بطريرك الاقباط لمعاونتها بينما كانت تنكر عليه حقوقه الرسمية وارثوذكسيته التى هي عقيدته حتى ان أحد كبار خطبائها اتخذ في أول اجتماعاتها فرصة القائه خطبه دينيه ليعلن من ان الجمعية ترفض كل هرطقه تؤدى الى هلاك النفس عند الاقباط ومع كل فقد تمكنت هذه الجمعية في بدء أمرها من التأثير بعملها في البلاد قليلا ولو أن كلا الحزبين في الكنيسة القبطية المصرية كانا ينظران اليها بعين المقت والكراهة . (١) وأخيراً يمكني القول انه يوجد في مصر حقل

(١) نوضح هنا تعاليم الكنيسة القبطية الحقيقية في هذا الموضوع مأخوذة من كتابهم التعليم المسيحي : —

سؤال — هل هو (المخلص في تجسده) ينفصل عن الاب والروح القدس ؟

جواب — معاذ الله أنه ينسب اليه اي انفصال أو انتقال لانه (اي المخلص) كلمة الله الازلية الغير محدودة الذي لا يقدر بانصاف ان يصير منفصلا عن الله وروحه . وبتنازله اي قبوله ولو انه ازلي ان يظهر على الارض في شكل بشري كي يخلص الانسان خليقته وبنيله بتجسده مركز النعيم العظيم في مملكته السماوية . ومع ذلك لم ينفصل ابداً عن الاب والروح القدس

سؤال — ما معنى قولك هو وحد نفسه ؟

جواب — معناه. ان ابن الله اخذ ناسوته (اي الجسد والروح) وجعلها ؛ه

متسع الا رجاء للعمل وحياة في شديد الحاجة للمساعدة ولكن لا تمكن من السير فى ذلك العمل الا اذا عمدت الى اظهار الحقائق كما هي مع أطراحك ظهرياً لكل تحامل حتي تحكم على الاشياء قبل فحصها وينتقد انها مازلت من عوائد القرن الخامس النافذة على القرن العشرين

ويتبع البطريركية القبطيه ثلاثة عشر ابرشيه ستة منها في رتبة المطرانيه . ويوجد بها ٨٣٧ قسيساً أو كاهنا و٣٧٥ كنيسه الآن وباضافة كنائس القاهرة والكندريه اليها يصير المجموع ٤١٨ كنيسه قبطيه في الديار

واحداً — شخصي واتحاد مادتي . بلا او فوق الامتزاج . والاختلال او التعقيد ولا استحالة (اي بلا تحول لجوهر اخر) ولا انفصال وبهذا الاتحاد الحقيقي للمادة صار شخصاً واحداً . ومادة ممتازة بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وعمل واحد : — وهو الابن الوحيد المتجسد

سؤال — ما هو المثال التقريبي لهذا الاتحاد المقدس؟

جواب — هو اتحاد النفس المتكلمة مع الجسد البشري لان النفس هي مادة روحية طاهرة اما الجسد فمادة ترابية محسوسة . وبهذا الاتحاد المتبادل. بدون امتزاج (اختلاط) او استحالة صاروا شخصا واحداً ومادة واحدة وطبيعة واحدة واتحاد النفس والجسد في كل انسان هو اعظم مثال وبرهان حسي لاتحاد اللاهوت الازلي مع الناسوت في شخص المسيح الاله وفي وحدة المادة.

المصريه وبخلاف هذه ايضا الصوامع والاديرة المهمه وثلاثه اديرة للراهبات (١)

﴿ انتهى الفصل ويليه الفصل الخامس والسبعون وهو آخر الكتاب ﴾

(١) عنوان بطريرك الكنيسة المصرية التام هو:— البابا الكلي القداسة بطريرك الاسكندرية وجميع الديار المصرية وبلاد النوبة والحبشة والخمس مدن الغربية وجمع الكرازة المرقسية

الكنيسة المصرية يقال لها عند الاقباط (الكنيسة) والاجانب يسمونها الكنيسة القبطية. ويسمى الاقباط الكنيسة اليونانية (كنيسة الاروام) والكنيسة الرومانية يسمونها (كنيسة الكاثوليك) اي الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية. والكنيسة البريطانية يسمونها (الكنيسة الانجليزية او الانجليكانية). واما الكنيسة المشيخية وكل المنشقين منها او الشيعيين فمعروفة عند الاقباط بالاصطلاح العام (كنيسة البرتستانت).

الفصل الخامس والسبعون

العوائد والمعيشة الاجتماعية

سنة ١٨٩٧ مسيحية وسنه ١٦١٣ للشهداء و ١٣١٥ للهجرة

تمتع الاقباط بانتشار الحرية والتعليم في السنين الاخيرة فكان ذلك سبباً لنسخ كثير من عوائدهم الدخيله عليهم التي اقتبسوها من أبناء الشعوب الغربية التي تقلبت على بلادهم في أزمنة الاضطهادات الدينية وحلت عليهم من احتلال المسلمين بينهم ولقد كنت ترى القبطي منذ عشرين سنة مضت يخجل كالمسلم ان يراه أحد الناس سائراً في الطريق مع زوجته أو احدى قريباته اما اليوم فترى شبان الاقباط قد عادوا الى سابق عاداتهم وعرفوا ان المرأة المصرية يجب ان تتمتع بحريتها كما كانت في عصر الفراعنة والعصر المسيحي الاول وانه يجب ان تعامل وتحترم على مثيل أختها الغربيه ولذا أصبحوا ميالين لنبذ تلك العوائد الرديئة التي اقتبسوها من المسلمين ظهراً ومن سوء الحظ ان تلك الحركة الاصلاحية قد نجحت بين الاقباط كثيراً وسيستمرون مثابرين عليها على مهل وحكمة حتى تتوصل المرأة المصرية الى بلوغ مركزها الاصلي والحقيقي في الهيئة الاجتماعية. وجل ما توجه اليه المرأة القبطية اهتماما اليوم هو تقليد أختها الانكليزية في الطريق المستقيم وفي حرية الفكر

وفي ضبط مركزها الادبي واقتفاء أثرها في الازياء والملابس المعتدلة اللطيفة البعيدة عن كل ضروب الزينة والفخفخة . على انه كان ينتظران ان تخرج عن الحد في حريتها فلا تسير مع زوجها أو أخيها أو أي حارس لها ولا تتقيد بأي قيد من قيود زوجها بل ولا تسلط عليه نفوذها تقليداً النساء بعض الطوائف المحيطين بها لانها لحسن الحظ أظهرت الحكمة والرزانه فلم تجنح الى الخروج عن الحد المطلوب للحريه. وهو عكس ما حصل لرجلها من حيثية تصوره انه يحبس جسده داخل الزي الاوروبي الغير الصحي والغير اللائق قطعيا لطقس بلاده وتطرفه في الحرية وبذلك يكون قداقتبس التمدن الاوربي بأكمله

وهناك عوائد كثيرة بين الاقباط ولكنها قديمة اتصلت بهم مع الزمان من مصر الوثنية وماتبقى منها فقد أوجدوها بأنفسهم ومنها تلك العادة المعقوتة الموجودة غالباً عند كل الشعوب وهي عادة الحزن على الاموات تلك العادة الوثنيه التي تأخر درجها في كفنها الى هذا الحين . ذلك انه ما تكاد الروح تفارق جسد الانسان حتى يهرع أهله لاستئجار النادبات اللواتي يلبين الطلب في الحال ويحضرن الى منزل المتوفي بالطارت ويحتلن مخادع النساء ويبتدئن بتمثيل منظر من أفظع وأرعب المناظر ويرثين بألفاظ مثيرة ومهيجة للحواس والعواطف . ويجلس في الطريق امام منزل المتوفي أقاربه الحزانى من الرجال أو يجلسون في زاويه احدى غرف الطبقة الارضية من المنزل مكتئبين ساكنين صامتين كأن على

رؤوسهم الطير يستقبلون وفود المعزين الذين عند دخولهم يضعون يدهم في ايدي اصحاب المتوفي فقط بدون كلام ثم يجلسون باحترام صامتين والعادة الوحيدة التي يختلفون فيها عن عادة اسلافهم انهم يصرفون الوقت كله في التدخين . اما في الحريم فتكون جثة المتوفي مطروحة على الارض ومغطاة بشال ومزدحمة حولها نساء عائلته لابسات اخر ما عندهن من الملبوسات [1] ويهيجن بعضهن بالتصويت والولولة لدرجة الجنون والاختبال العقلي . ويحللن جدايل شعورهن ويقطعنها ويلطمن خدودهن بشدة بايديهن المصبوغة بالنيلة ويصوتن باعلى قوة في حنجرتهن مع الندابات اللواتي يضمن عنصراً اخراً من الاصوات بصوت طاراتهن [2] فيتكون ضجة مفزعة مختلفة بين اصوات النساء وضرب الطارات .

واحياناً تسقط احدى المولولات مغشيا عليها من شدة خوار قوتها . وبالرغم عن ذلك يستمر هذا المنظر المرعب المفزع حتى تحمل الجثة الى المدفن . ونساء الطبقة الاخيرة يخرجن وراء الجثة في صوات وعويل

---

(١) نساء عائلة المتوفي يلبسن اخر الملابس الغالية القيمه المفتوحة الالوان مدة الثلاثة الايام الاولى من تاريخ الوفاة وفي اليوم الرابع يلبسن ثياب الحداد الاعتيادية ويداومن على لبسها مدة سنة وتلبس ارملة المتوفي الثياب السوداء مدة سبع سنوات حداداً على زوجها

(٢) الطار هو طبلة هندية تستعمل في الهند والممالك الشرقية وتعرف باللغة الهندية باسم (تام تام)

هائل الى أن تصل القبر وفي غالب الاحيان يتحمسون بنوع من الرقص المحزن الوحشي حول الجثة عند القبر بينما يكون الرجال جالسين متأثرين يتصبر حول حجارة القبر . ولكن هذه العادة نادر حدوثها الآن وينتظر درجها في خبر كان بالكلية . لان الكنيسة وحتى الحكومة طالما اجتهدتا بالتداخل في منع وابطال هذه المناظر المعيبة من الجنازات ولكن بالاسف ليس عندهما القوة الكافية للتأثير على أي اصلاح حقيقي دون أن ينضج الرأي العام في الاصلاح ويساعد الكنيسه والحكومة في ابطال هذه العيوب الرديئه

اما الاحتفال بالجناز في الطريق فعلى العموم يكون بالترتيب الاتي :—

في مقدم الاحتفال يمشي القندلفت (خادم الكنيسة) حاملاً صليباً (١) كبيراً من الفضة ثم الشمامسة المرتلين حاملين الاعلام ثم الكهنة ثم النعش وخلفه عائلة الفقيد في وسط جمع كثير من المعزيين .

وموتى الاقباط يدفنون دائماً في اكفان . ولكن هذه الاكفان تصنع الان على شكل (٢) الاكفان الاوروباوية الاعتيادية . وتقرأ صلاة

(١) لم يسمح المسلمون للاقباط باستعمال صلبانهم في الطريق لمثل هذه الظروف الا من مدة ثلاثين سنة فقط

(٢) ما زال سكان الوجه القبلي يدفنون موتاهم بملابسهم واغلب حلاهم وادوات زينتهم . وقد ابطلت هذه العادة في القاهرة الا انهم غالباً لا ينزعون حلي او ادات الزينة من المتوفي قبل دفنه .

الموتى على الجثة في الكنيسة قبل حملها الى المقبرة للدفن . واهل المتوفي يصومون طول الوقت ما بين الوفاة والدفن . وبعد ذلك يعدهم اصحابهم حالاً بالطعام ويستمرون على ذلك الى اليوم الثاني . ويستمر النساء في الدور الاعلى من المنزل والرجال في الدور الارضي يستقبلون المعزين من اصحابهم ولكن عند النساء يستمر البكاء والنحيب مدة الثلاثة ايام والمغنيات المأجورات (المعددات) ينشدن نشيدا مؤلما في مدح الرجال ويسمى عندهن (تعديدا)

وفي اليوم الثالث يأتي الكاهن ليعزي العائلة فتتحد معه في الصلاة ثم يرش كل الغرف بالمياه المقدسة التي صلى عليها والنساء يسمين هذا الاحتفال (الذي هو في الغالب تقاليد قديمة) احتفال صرف روح الفقيد من المنزل على اعتقاد انها تكون هائمة فيه حتى ذلك الحين وفوق ذلك كله فلا يزال كثير من الاقباط يعتقدون كاجدادهم ان الروح تبقى هائمة مدة أربعين يوما قبل القرار بالحكم على مقرها الاخير . وانها توزن في ميزان بمعرفة الملاك ميخائيل الذي ينوب في هذه الأمورية عن السيد المسيح وما بقاء الروح مدة أربعين يوما في انتظار المقاضاة الا شكل المطهر الذي يعتقد فيه الاقباط اعتقاد الكاثوليك . ثم هناك فريق من الاقباط يعتقد ان الارواح تخرج من عالم الغيب (مقر الاموات أو مساكن الارواح في السماء) وتظل هائمة مدة أربعين يوما في انتظار حكم الدنيا النهائي بعد الصيام الكبير . وتوجد خرافة قبطية قديمة أيضا تدل

على اعتقاد بعضهم في مطهر ليس من نوع مطهر الكنيسة الكاثوليكية ومؤداها ان الملاك ميخائيل تكون له السلطه التامة في يوم واحد من أيام السنة يفتح فيه أبواب المطهر ويخرج منه كثير من الارواح المتألمة ويحمل منها على قدر استطاعته ويطير بها على أجنحته بسلام .

انتهينا من سرد عوائد المآتم والاحزان ونبتدىء الآن بسرد عوائد الزواج والافراح فنقول :—

احتفالات الزيجة عند الاقباط تعتبر في الحقيقة من اعظم واجمل الافراح المستعارة من الشعوب الاخرى . ولسوء الحظ نقول ان تأثير العوائد الاسلامية حتى في مثل هذه الشعائر قد أخذت عند الاقباط مأخذها فكانوا الى وقت قريب يعتقدون ان من الخطأ الفاضح السماح لشاب بمشاهدة خطيبته التى سيعقد زواجه عليها حتى ولا يسمحون بوجود تعارف شخصي بينهما بالمرة كما ولم يكن لاحدهما صوت أو راي أو ابدأ اي فكر بالمرة في امر زواجهما بل وفي غالب الاحيان كانت تعقد صيغة الزيجة قبل بلوغ الزوج والزوجة سن الزواج لانهم كانوا يعتقدون ان الولد يليق للزواج في سن الخامسة عشر والبنت في سن الثانية عشر . ثم تحول رأي الاقباط العام عن هذه العادة بتأثير نواهي الكنيسة ونصائحها فاقلعوا عنها وصاروا لا يسمحون اليوم بالزواج الا عند بلوغ الشاب السنة العشرين من عمره والفتاة السادسة عشرة . ولا يعقد الكاهن صيغة الزيجة الا بعد حصوله على رخصة من البطريرك أو من أحد الاساقفة

وفي سنة ١٨٩٥ اصدر البطريرك منشوراً عموميا لكل رجال اكليروسه يذكرهم فيه بالقوانين الكنائسية المحتمة بعدم قبول عقد الزيجة قبل أن يرى الخطيبان بعضهما بعضاً ويتعاشرا زمناً ما يقف فيه كل منهما على اخلاق وصفات الاخر ثم قبل البدء في عقد الاكليل يجب على الكاهن ان يدعو اهالي العروسين ليتحقق ويتاكد أن كان الخطيبان قد عرفا بعضهما معرفة تامة ويسأل كلا من العريس والعروس على انفراد أن كانوا راضيين بالاقتران من عدمه . وعند تمهيد طريق الزيجة يرسل الفتى للفتاة بواسطة الكاهن خاتما من الذهب أو الماس بصفة هدية يقال لها (الشبكه) . ثم يعين الكاهن يوم الاحتفال بالخطوبة ويقال له عندهم (جابنيوت) ففي عصر ذلك اليوم (نهار جابنيوت) يذهب الخطيب مصحوبا بعدد من اقاربه واصحابه واحد القسوس الى بيت العروس حيث يكون اقاربها ايضاً مجتمعين في منزلها لاستقبال العريس وآله وبعد أن يتكامل عدد المدعوين يقفوا جميعاً مع الكاهن ويتلون الصلاة الربانية . ثم يلقي القس خطبة أو موعظة حسب ما يناسب المقام ينوه فيها عادة الى خطوبة رفقه لاسحق

ثم يجلس الجميع ويتناقشون في تدوين الشروط المدنية (محضر الزيجه) ثم يدفع العريس مهر العروس ثم يتفقون فيدونون في المحضر اليوم الذي يعين لعقد الزيجة . ويختلف المهر بحسب مقدرة العريس المالية انما المهر يكون عادة متراوحا ما بين العشرين والمايه جنيه ووالد العروسة

عادة يدفع ضعف المهر ويصرف كل هذا المبلغ في شراء حلي وملبوسات واجر خياطات . وبعد أن يقدم آل العروس المرطبات والحلوى للحاضرين يهنئون العريس على الاقتران القادم المبارك وينصرفون .

واذا كان اليوم الذي يتعين لعقد الزيجة بعد زمن طويل من تاريخ الخطوبة يلتزم العريس أن يرسل لعروسه المنتخبه من وقت لاخر الهدايا (نفقة) من زهور وفواكه . واذا تصادف قبل تاريخ عقد الزيجة عيد الميلاد أو الفصح مثلا يرسل لها العريس فستانا وكمية كبيرة من الكعك والحلويات ولكنه لا يزورها بشخصه ولا يراسلها الا ماندر

وأكليل الزواج يعقد في ليالي السبت والاحد ولكن محرم في الصيام الكبير وفي كل صيامات الكنيسة اللهم ان لم تقض بذلك ظروف استثنائية في غاية الاهمية — فأول ليالي الفرح ليلة السبت ويقال لها ليلة العروسة (ليلة الحناء) وفي بحر ذلك اليوم تخرج العروسه الى الحمام مع بعض صاحباتها وأهلها . وفي المساء يلبسونها أفخر الملابس وتجلس لاستقبال المهنئين والمهنئات من جميع أهلها وأقاربها وصاحباتها ثم يخضبون يديها ورجليها بالحناء مثل المسلمين . ثم يجلس الجميع الى وليمة العشاء وبعده يصرفون الليل في سماع المغنيات أو المغنين الذين يؤجرونهم لغرض الانشراح وتسلية النفس . لان العاده عند الشرقيين انه تكون المظاهر فوق الطاقة والكرم فوق المجهود أي ان تعمل كل ما في وسعك لتسلية ضيوفك بنفسك فوق الهمة التي تبذلها النزيهين بيتك بالزهورات والبارق

والاعلام ولا نارته ليلا بالثريات التي تصف على شكل جميل . غير ان النساء يكن منفصلات عن الرجال مثل المسلمين . وفي الغالب لا يدخل المدعوون الى البيت بالمرة بل يقام لهم سرادق عظيم في حديقة المنزل لاستقبالهم وهذه السرادقات وما يتبعها من أدوات الاطعمة والمقاعد والخيم تجهز بواسطة مقاولين يسمونهم (بالفراشين) اما العشاء فيقدم على الطريقة الشرقيه الاعتيادية توضع الاطعمة على صينيه من المعدن مستديرة وكبيرة ليجلس حولها عشرة رجال بالراحة يعطى لكل منهم فوطه وملعقه ورغيف من الخبز — ولكن لا تعطي سكاكين ولا شوك غالبا كما انه محتم على الجميع ان يغسلوا أيديهم قبل تناول الطعام كعادة المسلمين ثم يأكلون باصابعهم بعد ان يمد أعظمهم مقلماً يده أولا واذا حضر قس على المائدة فله الافضلية في مد يده للطعام أولا دون جميع الجالسين مهما كان بينهم من كبير المقام . ويبتدىء بالفاظ البركة والنعمة ثم يأخذ رغيفاً من الخبز ويباركه ويقطعه الى قطع صغيرة يوزعها على الحاضرين معه . ثم يحضر الفراشون موائداً اخرى بقدر ما يسع المكان يجلس عليها عشرة ضيوف كما تقدم . وهكذا يتعشى كل الضيوف بتجديد هذه الموائد . وفي أول ليالي الفرح (ليلة العروس) يختفي فيها العريس بعد ان يرسل اثنين أو ثلاثة من أقرب الناس اليه يحملون باقة من الزهور وشمعة كبيرة بشرط ان تكون طول العروسة . وتوقد هذه الشمعة في غرفة نوم العروسة طول الليل حتى الصباح

وفي ليلة الاحد يقال لها (ليلة العريس) يذهب الشبين (أصدق صديق للعريس) مصحوباً باثنين أوثلاثة من أقرب أهل العريس ليحضر العروسه بالحرس اللازم في احتفال كبير الى بيت زوجها . ومن بضع سنين مضت كان الاقباط لايتجاسرون على السير في الطرق بمثل هـذا الاحتفال الا ليـلا فكان أكثر تأثيراً للابتهـاج من السـير بهنهاراً . اذ كان يتقدم الاحتفال جوقة الموسيقي ثم جمع كبير من حاملي المشاعل فكثير من الشبان يحمل كل منهم شمعه في وسط باقه من الزهور ثم صفوف أخرى تحمل المباخر الموقـدة التي يتصاعد منها البخور ثم حملة القمائم المملوءة بالروائح العطرية سائرين باتجاه نحو العروس السائرة على قدميها والمتكئة على ذراعي اثنين من أقرب المقربين اليها ومحتشد حولها جمع كثير من السيدات وخلفهن الخادمات

أما الآن فتنقل العروس ومن معها من السيدات في عربات مقفلة (كوبيل) ويحرسها الشبين وأعوانه ويتقدم العربات جوقة الموسيقى اما حركة العرس فتغطى بشال من الـكشمير أو بسجاده غالية الثمن

وبوصول هذا الموكب لبيت العريس يذبحون خروفا أو عجلا على عتبـة البيت ويفرقون لحمـه على الفقراء وقـد ورثوا هذه العادة من المصريين القدماء — ثم يحمل الشبين العروس ويطلع الى مخدع الحريم وعندما يبارح الموكب منزل العروس وعند دخولها بيت العريس يرشها النساء بالملح وأحيانا بالورد اعتقاداً منهن بطرد تأثير العين الشريره

(الحسد) عنها . وبعد الانتهاء من الاكليل يرتاح القوم قليلا من ن الزمن يأخذون في اثنائه شيئا من المرطبات والملبس والحلوى .

وقد كانت العادة أن يعقد الاكليل في الـكنائس . ولـكن في ايام الاضطهاد وهجوم المتعصبين على الاقباط اصبحت مثل هذه الاحتفالات خطره فصارت العادة الآن من زمن طويل أن تقام هذه الشعائر في منزل العريس . فيجهزون التجهيزات اللازمة ويتممون احتفال الاكليل بكل احترام حيث يضع الـكاهن المعين طاوله في وسط اكبر غرفة في البيت ويضع عليها الانجيل المقدس مقفول مختوم [1] في علبة من الفضه ويرص حوله ستة صلبان من الفضه الملصوق في كل منها ثلاث شمعات ليكون نورها رمزاً عن الثالوث المقدس . ثم يضع مقعدين امام المـائدة لجـلوس العريس والعروس عليها براحـة وما عـداهما من الحاضرين يظل واقفاً على قدميه طول وقت الاكليل . ثم يلبس العريس في غرفة اخرى حلة عرسه (برنس الاكليل) وهو عبارة عن قفسوه

(١) بعض هذه الـكتب المقدسة لم تفتح من ار مائة سنة ومن المؤكد ان هذه العلب الفضية تحتوي على نسخ من الانجيل المقدس ذات قيمة اثرية عظيمة مختوم عليها لعدم امكان استعمالها . وهي طريقة لطيفة جدا في وضع الانجيل المقدس في علب من الفضة التي يمكن تنظيفها لهذا الغرض ويحسن بنا اذا اقتفينا اثر الاقباط في هذا الامر ونضع الانجيل المقدس الخاص بمحا كمنا العدلية داخل علب فضية

أو عبايه من حرير ابيض غالية الثمن كثيرة التطريز تغطي جسمه كله حتى راسه وهذه البرانس هي ملك الكنيسة ويعيرها الكاهن للعريس في مثل هذه الظروف كالتيجان .وبعد ان يلبس العريس هذا البرنس من الرأس الى القدم مع أن عادة عدم كشف الراس محتقره عند جميع الشعوب المسيحية . فانه يشوه أيضا منظر هذه الحلة البيضاء بسبب لبس الطربوش الاحمر الغير اللائق على راسه تحت طرف البرنس . اما العروس فتتزين بلبس حلة حريرية بيضاء ويقنع وجهها بنقاب حرير رفيع جداً على مثال العروس الانكليزية الا اني في بعض الاحيان نظرت عروس قبطية لابسة فستان عرسها من حرير احمر على مثال المسلمين .

وكان من الواجب أن تجلس العروس على يمين العريس قبل كل شيء الا أن الافكار والمعتقدات الاسلامية قد اثرت جداً في العوائد المصرية حيث يتفق كثيراً أن يقام عقد الزيجة لعروس قبطية وعرشها امام مائدة الاكليل خاليا منها أي أن يجلس العريس على كرسيه فقط اما العروس الصغيرة المسكينة فتطل من وراء باب غرفة اخرى وتتفرج على كيفية عقد زواجها . ولا يخرجونها من سجنها الا لما تحل جمل القول ورسوم الطقوس التي لا يمكن للقسيس اجراؤها بدون حضورها — فعند خروجها لغرفة الاكليل لا يصحبها أحد مطلقا من السيدات القبطيات وفي بعض الاحيان يكون الزوج متنوراً متثقفا يحجز زوجته بجانبه بعد الاكليل ويقدمها لاصحابه من الانكليز الذين يتصادف حضورهم .

وطقوس الاكليل عند الاقباط مثل طقوسنا ولكن عادة تتويج العروس والعريس (أي اللذان لم يسبق لهما زواج) وتغطية رؤوسهما بوشاح مطرز رمزاً عن اتحادهما في خيمة واحدة كرفقه واسحق لم تزل متبعه عن اقباط مصر وينتظر استمرار اتباعها (١) وبعد الانتهاء من حفلة الاكليل ينتظر الضيوف حتى طعام العشاء ثم يصرفون بقية الليل في سماع المغنين والالحان اما صاحب المنزل فيفتح ابوابه لمناسبة فرحه الى المدعوين وغيرهم أي انه لا يرفض ضيافة أي فرد سواء كان غريبا أو قريبا حيث يعد ذلك من آيات الشرف . وكثيراً من المسلمين الذين يشتغلون تراجمة للسواحين يرتكنون على هذه العادة ويدعون كثيرين من السواحين الى ليلة عرس بدون انتظار دعوة من صاحب الفرح لتقتهم التامة انه مهما كانت احساسات صاحب الفرح الداخلية لا بد وان يستقبل ضيوفه السواحين الغير المدعوين بكل تجله واكرام . والقاعدة المضطردة عند كل السواحين الذين يلبون دعوة ترجمانه المتطفل يكونون على جهل تام من معرفة ما اذا كان صاحب الفرح مسلما أو مسيحيا فتصرفهم هذا مما يدعو صاحب الفرح للشك في الاعتقاد بسمو تربية وتمدن الاوربايين

(١) الطلاق نادراً جداً عند الاقباط وغير مسموح به الا لعلة الزنا ففي هذه الحالة يسمح الاسقف او البطريرك لمن لم يظهر عليه الخطية من احدهما ان يتزوج ثانياً ولكن الطقوس الدينية تختلف قليلاً في الزواج الثاني الذي لا يحزف منه التتويج ويكون كزواج رمل او ارمله

الذين يزورون مصر .فيدخل اولئك السواحين الى سرادقات الافراح او صالونات المنزل في وسط الحضور بذات ملابسهم الحقيرة المملوءة بالاتربة من شدة جولانهم في المدينة طول النهار ثم يجولون هنا وهناك وسط المنزل كانهم يتفرجون على معرض صور شمعية ويبدون ملاحظات وانتقادات بصوت عال يدل على سوء التربيه دون ملاحظة ان اغلب المحترمين من الرجال الوطنيين الحاضرين يفهمون اللغات الانكليزية والفرنساوية وغيرها ولانهم لسوء الحظ لا يمكنهم دائماً التميز بين (الانكليزي والامريكاني) وبالاختصار فانهم بذلك يسببون كسوفا واشمئزازاً عند الانكليز الذين يتصادف وجودهم في الاحتفال من اوله بدعوة من اهل الفرح وحتى ان السواحين الذين لا يذهبون الى الافراح الا بعد طلب دعوة حضور اليهم فانهم يأتون امورا مكدرة لا تليق بهم ولا يجب ان يسلكوها عند وجودهم في اية حفلة وطنية كانت لان اعمالهم هذه يتسبب عنها ان ابناء البيوت العالية من المسلمين قرروا فيما بينهم عدم دعوة السواحين الاوروباويين قطعيا في احتفالاتهم

لنرجع بعد ذلك الى يوم الاثنين وهو ثالث ايام العرس عند الاقباط ويعرف عندهم (بنهار الصباحية) يحضر فيه اقرب المقربين للعروسين ويصرفون معظم اليوم في بيت العريس حيث تقابل العروس كل منهم شخصيا ليعطيها هدية بقدر مقامه وتختلف قيمة الهدية من خاتم الماس الى نقود وغالباً تكون قيمة الهدية من النقود من جنيه انكليزي الى

عشرة جنيهات وتعرف هذه الهدية عنهم (بالنقطة) وكل من يمنح العروس هذه النقطة تقدم له بدلها منديل حرير مطرز من شغل يدها كما ان اصحاب العائلة ايضا يقدمون لها هدايا تستعمل في وليمة الفرح

على ان الاقباط ميالون الى الذريه جداً وتظهر علامات البشر عليهم والفرح حينما يولد لهم ابن او ابنة ويزداد سرورهم على الاخص اذا كان المولود ذكراً ولقد تبقى الوالدة والمولود في غرفتهما مدة اسبوع بعد الولادة مهما كانت العائلة في حالة الفقر حيث تتطوع لخدمتها كثيرات من صاحباتها وقريباتها ثم في اليوم السابع (السبوع) يقرون على الاسم الذي اختاروه للطفل بواسطه اجتماع جلسة من افراد العائلة . واذا كان المولود هو البكر قدم اهل الوالدة مائدة الغذاء لجميع صاحباتها. ثم يبتدأون بوضع الطفل التعيس في جملة تجارب واختبارات . فاول عذابه ومضايقته ان يدقوا هونا من نحاس اصفر قرب اذانه الى ان تكاد تشق .ثم يهزونه في غربال ولقد يستحب الانسان اطفال الاقباط للطفهم ودقتهم ومنتهى الجاذبية التي تكون فيهم واحسن الاطفال طبعا وجمالا طفلا قبطيا رأيته في الشهر الخامس من عمره له شعر كثيف لطيف وعينان لامعتان زرقاويتان ويهدر ويقرقر ويبقبق (يناغي) بانشراح طول النهار مع انه يتنقل من يد بنت الى اخرى بطريقة يعجبها الطفل الانكليزي امام ذلك الطفل فتاة مسكينة لا يتجاوز عمرها الخامسة عشرة ولكني افرح بان اقول انها المتزوجة الوحيدة في وسط اربع او خمس من صاحباتها واقرانها اللواتي من

سنها او اكبر منها قليلا .

وبعد ان يتم ازعاج الطفل المسكين في اليوم السابع من عمره بتلك الوسائط الخرافية . تلبس امه ثوبا ابيض وتأخذه على ذراعيها وتدور به في كل غرف المنزل في شكل موكب . ويؤلف هذا الموكب من اولاد المدعوين بان يمسك هؤلاء الاولاد الشمع في ايديهم واحياناً المباخر ويمشون صفين امام الوالدة ويرتلون غناء الولادة وحولهم جميع المدعوين . اما والد ووالدة الام الصغيرة فيعملان كعكا يقال له (كماجه) ويوزع جزء من هذا الكعك مع بعض حلويات وفواكه ناشفة الى كل العائلات التي لها صلة تعارف بالعروسة والعريس . ثم بعد هذا يحضرون في مساء اليوم المذكور قارورة ماء فارغة ويكسونها بالحرير ويزينونها بالحلي والجواهر وتوضع في طشت من النحاس مسطح وتلصق ثلاث شمعات في حافته على ابعاد متساوية وتسمى كل شمعة باسم ينتخبه احد اعضاء العائلة ثم يوقد هذا الشمع والشمعة التي لا تذوب الا في النهاية بعد الشمعتين الاخيرتين يسمون الطفل باسمها . ثم يضع كل من الضيوف الحاضرين شيئاً من النقود في الطشت ومجموع هذه النقود تعطى للوالدة علاوة على ما يعطيه لها والدها .

وطبقاً لقوانين الكنيسة المصرية القبطية يجب تعميد الولد حينما يبلغ اليوم الاربعين من عمره والفتاة حينما تبلغ اليوم الثلاثين ولكن لسوء الحظ فان المنفذين لهذا القانون قليلون جدا حيث كثيراً ما يترك الاطفال

بلا عماد حتى الشهر الخامس أو السادس . وتمارس رسوم التعميد في الكنائس ان لم يكن الطفل على وشك الموت فيعمد في البيت . ويتم هذا التعميد بواسطة تغطيس الطفل ثلاث مرات في حوض مملوء بالماء البارد الرائق المرشوش بقليل من الزيت الذي يقال له زيت المعمودية ولا يشدون الطفل الان بالزنار أو الحزام الذي كان يستعمل بصفة علامة يميز بها المسيحي المصري (القبطي) من سواه .

ويتخذ في الكنيسة المصرية مثل كنيسة روما الاشينية (الكفالة) واسطة لتأسيس علاقة مادية وروحية بين الكفيل وعائلة المولود ولذا خطر على الاقباط أن لا يتزوجوا ابنات اشينه أو اشينته طالما يعتبرون كاخوة لهم واخوات

وبعد تغطيس الطفل ثلاث مرات في المعمودية يمسح بالزيت المقدس (الميرون) ويقدم لتناول السر الالهي . ومن عوائد الاقباط أن يسموا الطفل وقت المعمودية باسم آخر خلاف الاسم الذي اختير له في اسبوع الميلاد وانتخاب الاسم الجديد يكون على العموم على اسم قديس يكون عيده في ذلك اليوم الذي يعمد فيه أن لم يفضل والديه تسميته باسم قديس محبوب عندهم . وفي الغالب اسم جرجس ومريم عام عند كل الاقباط

على ان كثيرا من الاقباط المستخدمين في دوائر الحكومة يتخذون اسماً ثالثاً خلاف الاسم المسيحي ويستعملونه لقباً اعتياديا وفي الغالب هذا الاسم الثالث لا يكون مسيحياً فيصبح الشخص غير معروف بين الناس

لا بهذا الاسم الاخير اما اسماؤه المسيحية فتستعمل فقط في الاحتفالات والرسوم الكنائسية ولذا فان الطفل الذي يعمد باسم مرقس يصير معروفا عند كل الناس باسم (اسكندر) . أو الصبي الذي يعمد باسم باسيلي يرسل للمدرسة باسم (زكي) الخ . وبعض الاسماء اليونانية القديمة قد تحرفت وتغيرت تغييراً غريباً من عهد ما ابتدأ الاقباط يفقدون استعمال لغتهم الاصلية فاسم فيلوثاؤوس تحرف الى العربية باسم عبد المسيح . واسم فيكتور اصبح الآن بقطر . واسم تيودوروس اصبح تادرس الخ

والختان متبع على العموم عند الاقباط خصوصاً في الارياف . ولكن لا يوجد شيء يميز الاقباط من المسلمين عند مظاهرتهم المعقودة بالاختتان — كما ولا يوجد عند الاقباط ما يثبت أن اتباع الختان هو تنفيذ لطقس ديني . بل هو فقط احتياط صحي يتبع وقت ما يجب اتباعه . ويتبع ايضاً الاقباط العادة القديمة المتعلقة بتضحية خروف او كبش عند ما يريدون وضع حجر الاساس الاول في بناء عمارة عظيمة وهكذا يفعلون أيضاً على عتبة البيت الجديد بعد تمام بنائه

واكثر الاقباط مواظبة على حضور الصلاة في الكنائس رجالهم اما النساء اذا ذهبن فانهن يقضين الوقت في محادثة بعضهن بعضاً بغوغاء وضوضاء بدلا من الانتباه للصلاة . ولا شك انه لا يوجد علاج شافي لهذا المبادىء المعيبة الا اذا سمحوا للسيدات بالجلوس في وسط الكنيسة عوضاً عن تعيينهن في اروقة مقامة في اعلى الكنيسة

وعالية علواً يستحيل عليهن أن ينظرن منه أو يسمعن ماذا يحصل أو ماذا يقال في دار الكنيسة ومن الواضح أنه قبل اشتداد خوف الاقباط من المسلمين كان النساء يجلسن منفصلات عن الرجال كما هو جار الآن في كثير من الكنائس الانكليزية وان كان الانكليز وسيداتهن يجلسون في ساحة واحدة بلا ادنى حجاب ولا حاجز بين الفريقين . على اني وجدت في كنيسة قبطية قديمة اربعة حواجز يقف خلف الاول المترشحون للتعميد ثم تقف النساء وبين هؤلاء واولئك يجلس الرجال ثم القسوس فصدر الهيكل وخلفه معابد يحتوي كل منها على مذبح لا يستعمل الا بعضه الآن

والقاعدة المتبعة في الكنيسة المصرية هي نفس المتبع في الكنيسة البريطانية من ضرورة تناول النوعين من الاسرار المقدسة وان تناولهما الاقباط ثلاث مرات في السنة منها مرة في عيد الفصح . ويتناولهما الانكليز مرات عديدة غير أن عدم الاعتناء والاهمال الشديدين هما اللذان يمنعان غالبا ابناء الكنيسة من تناول الاسرار المقدسة في المواعيد المقررة لها حتى اصبح اعضاء الكنيسة المصرية على الغالب لا يتناولون الاسرار الا في كل سنة مرة . ومن الغريب انهم يقولون أن مرة واحدة تكفي في الصيام الكبير . ويستعمل الاقباط في الاسرار المقدسة خمرا خصوصيا معتقا يقال له (اباركه) ويصنعونه لهذا الغرض داخل الكنائس . اما كيفية استخراجه فهي انهم ينقعون الزبيب في الماء ثم يرسبونه هرسا ثم يكررون عصيره حتى يصير رائقاً وبعد ذلك يتركونه في اوعيته حتى

يختمر . وقد اصبحت هذه المادة ضرورية جداً بالنسبة لكثرة الاضطهادات المريعة . وفي القرن التاسع والقرن الحادي عشر (انظر الفصل الحادي والاربعين من الجزء الثاني والفصل السابع والاربعين من الجزء الثالث) قد خربت كروم العنب واصبح استخراج الخمر أو جلبه من الخارج من الامور المحرمة قطعياً على الاقباط . وقد كان غرض المسلمين من ذلك التضييق هو انهم يعطلون على الاقباط ممارسة اسرارهم المقدسة . وقد نجح المسلمون تدريجا في استئصال زراعة الكرم بالكلية من البلاد ومنع جلب العنب من الخارج . فصار الاقباط يلتزمون في جلب الزبيب من الخارج ويعملون منه الخمر الذي يرغبونه داخل الكنيسة بطريقة سرية . اما الآن فقد الغيت بالطبع هذه التحذيرات التي تستوجب عمل الاباركه من الزبيب . غير ان الاقباط استمروا في اتباع عادة استعملت في اول ابتدائهن بواسطة بعض رجال الاكليروس المتحمسين لكي يفسدوا الاسرار المقدسة . اما عن ملبوسات وترتيبات الكنيسة القبطية فانا لا نكتب عنها شيئاً لان المستر بتلر كتب عنها في كتابه (الكنائس القبطية) بغاية الاعتناء والتفصيل . وضمنها بعض التعبيرات التي يعير بها الاقباط جماعة من الغربيين الجهلاء الذين يحكمون على الامور قبل فحصها ويجب على الاقباط ان يحتجوا عليها احتجاجا شديدا ليوقفوهم عند حدهم وعند اسناد الوساخة والفوضى اليهم

في بيوتهم وفي كنائسهم[1] نعم ان كنائسهم على الغالب غير نظيفة وناقصة كثيرا من النظام بوجه عام مع وجود خادم خصوصي مؤجر لتنظيفها وترتيبها وقد لا انسى في هذا المقام ان من مائة سنة تقريبا كانت كنائسنا في انكلترا على حاله كنائس الاقباط الان . وامامي الان تأليف عجوز انكليزية تصف فيه الوساخة والقذورات وعدم النظام في الكنائس الانكليزية مما ينطبق وصفها على حالة الكنائس القبطية في هذه الايام غير اني اتمنى كثيرا ان لا اسمع عن الكنائس القبطية شكاوي من قبيل ما سمعته من ان النساء يستعملن اوراق كتب الصلاة لتزيين رؤوس اولادهم الذين يجلسون معهم . وقد ابتدأ الاقباط ان يستيقظوا من سباتهم ويقوموا لاصلاح كنائسهم وانا مؤملون كثيراً ان يجيء اليوم القريب الذين يعرفون فيه كيفية المحافظة على كنائسهم وابقائها على الدوام النظيفة

والكنائس القبطية كغيرها تقدم لها الهدايا والنذور من ابنائها حسب طريقة الكنيسة الانكليزية . وتكون التقدمات عموما صغيرة ولكن البطريرك المصري (القبطي) له سلطة وقوة كالسلطة التي يستعملها الحاسرة

---

(١) ان العدل يلزمني ان اذكر شيئا من اعذار الاقباط فاقول ان القاهرة كائنة على شاطئ نهر غزير لا ينقطع ماؤه . ولكن احياء الفقراء فيها يتألمون لقلة المياه . لان من اعمال اسماعيل باشا الخديوية ايام حكمه انه ترك المدينة في قبضة شركة اجنبية واحدة هي شركة المياه التي يتألم منها السكان كثيراً

الاكليريكون في انكلترا . فبارادته ومشيئته يعين ناظراً او امين الخزينة لكل ابرشية . فهذا الموظف يجمع كل الاموال المستحقة للكنيسة وايجارات الوقف الخ ويسلمها للبطريرك الذي يدفع ماهية معينة للكاهن المخصص لهذه الوظيفة ويصرف الزائد من النقود على لوازمات الكنيسة بحسب ما يراه ضرورياً. وقد قامت منازعات وخصومات ما بين البطريرك وحزب الاصلاح بسبب رغبة الاخير في استلام زمام ايرادات الكنيسة وتأييد رغبته بادلة أهمها انه لا يجوز لاي شخص واحد حتى ولا البطريرك نفسه ان يتولى ادارة ايرادات الكنيسة تحت تصرفه الشخصي المحض دون ان يقدم حساباً عن ذلك لعموم الشعب ومنها انتخاب مجلس علماني (مجلس ملي) لاستشارته في توزيع الايرادات بالطرق اللائقة لها بحسب احتياجات الكنيسة والشعب ومنها وجوب صرف أغلب الايرادات في سبيل التعليم . أما البطريرك فانه واقف حجر عثرة في سبيل مطالب هذا الحزب متمسك بحقوقه الشرعية مثل باباوات روميه ويقول ان فكره اكثر عدلا من فكرهم . ولكن قد اتفق الرأي العام القبطي على انه ولو ان البطريرك الحالي غير حكيم ومفرط في ايرادات الكنيسة تحت ايدي رجال الاكليروس فانه امين وغير محب للذات في التصرف لما هو مؤتمن عليه . وينتظر الاقباط انه بمجرد خلو الكرسي البطريركي منه يرجعون حالا الى عوائد المسيحية القديمة بان ينتخبوا لبطريركهم الجديد رجلا يكون كاهنا متعلما متزوجا محنكا في التجارب والاختبار بدلا عن رجل

قديس جاهل من رهبان وادي النطرون يصبح بطريركا عليهم

والحق يقال انه مع وجود فقر كثير عند الاقباط الا انه لا يوجد في الحقيقة نوع الاحتياج او الشحاذة بينهم الا القليل لان ذوي الاحسان منهم لا يجهلون حالة ابنائهم المحتاجين . حتى ان المثريين منهم او اصحاب الرواتب العالية يعتقدون بالبداهة الطبيعية ان من الضروري مساعدة اقربائهم الذين لا يعملون ما عدا تلك الجهة التي يقطنها الاقباط عند الحصن الروماني (بمصر القديمة) حيث علمهم السياح درساً شريراً بكثرة هباتهم عليهم فاتخذوا الشحاذة مهنة في تلك الجهة النيلية اما في سائر البلاد وفي كل مكان يمر فيه السياح الاهالي بهباتهم فقلما تجد قبطيا واحداً لا خرج اليهم اومد يده ليطلب كسرة خبز او درهم من اي كان وانما كثيرا ما رأيت ان بعض الاولاد الاقباط يطلبون كتبا من السياح ولا يطلبون منهم نقودا ولما سحت لاخر مرة عام ١٨٩٤ في اعالي النيل رايت صياح الناس والاولاد علي وعلى باقي السياح طالبين البقشيش ثم احتاطوا بنا بشكل لا يطاق وبالبحث والملاحظة لم اجد بينهم قبطياً ثم لما اتجهت الى الاحياء القبطية في اسنا واصون لاحظت ادبا كثيراً وسكونا عظيما ولم اسمع قبطيا واحداً يطلب بقشيشا على مثال احوال المسلمين البحته التي أصبحت عندهم عادة . وفضلاً عن ذلك فان كل الاقباط تربوا على احتراف بعض الحرف والصنايع اليدوية أو التجارة التي تغني فقراءهم عن عيشة الكسل وعلى الاعتماد عدم الشحاذة وذلك بعد أن يخزلوا من الاستخدام في دوائر

الحكومة . من النادر حينما تجد الاقباط يشتغلون خدمة في المنازل أن لم يقبل عليها واحد منهم ببساطة وسذاجة وليس عند الاقباط الذكاء اللازم لعمل أي شيء اخر خلاف ما تقدم .

ومنذ سنة ١٨٨٤ قد تحرر الاقباط من كل المضعفات القضائية ولم يبق من ظلمهم وشكواهم الحقيقية الا مواظبتهم على موالاتهم للمسلمين علنا بواسطة اغلب كبار الموظفين الانكليز أو الاتراك لانه تقريبا كل الموظفين الكبار الذين يختلط معهم الانكليز من الحزب الذي تسر افئدته كثيراً من الحط على الاقباط . فضلا عن يعلومهم دائما في اظهار الاقباط بمظهر غير محبوب ومقبول ليدفعوا الانكليز الى مديد الاذى ضد الاقباط بكل بساطة وسذاجة — أي أن الانكليزي يقتنع بذلك كقاعدة عمومية — أن لم ير ضرورة امتحان القبطي شخصيا — فيتكلم عنه بحسب اختباره اياه ونادراً لما يتفق للانكليزي أن يخذ براهينه للقبطي على اساس الانجيل وللمسلم على اساس اخر اوطىء كثيراً من البراهين التي يستعملها لنفسه . وقد تكلمت كثيراً على الصعوبات والعثرات الملقاة في طريق ترقية الاقباط في الجيش ومثلها تقريبا في كل دوائر الحكومة . وفي الحقيقة أن انكلترا عظيما التي مصر « نمي به لورد كرومر » على تصميم النية على أن لا يستخدم في المصالح الاميرية الا المسلمين « باعتقادهم ان المسلمين أصحاب الاكثرية من المصريين الحقيقيين » ونفذ غرضه بقدر امكانه ويظهر انه من عهد محمد علي الى الآن لم يتعين قبطي في وظيفة مدير أو

وكيل مديرية ولو انه ارقى من المسلم واذكى واشدد هاء وولاء . ولكن على كل حال هذه مصاعب صغيرة يكابدها شعب عظيم تألم شديد الالم اكثر من الف سنة ومعظم الاقباط ممتنون من الحماية التي يتمتعون بها في عصر جلالة ملكتنا فيكتوريا ؟

﴿ انتهى بحمده تعالى الجزء الرابع وهو خاتمة أجزاء الكتاب ﴾

﴿ في اول نوفمبر سنة ١٩١٠ ميلادية ﴾

خاتمة اضافيه

بقلم صاحب جريدة مصر الذي تولى ترجمة وطبع هذا التاريخ

قد تم ولله الحمد ترجمة وطبع هذا التاريخ النفيس الذي هو تاريخ اقدم الحوادث لاقدم الامم وهو التاريخ الثابت المحقق لجميع حوادث مصر السياسية والاجتماعية والملية ايضا التى وقعت فيها من اول ايامها الى الاحتلال الانكليزي مقترنا ايضا بتواريخ جميع بلاد الشرق في تلك الحقبة الطويلة من الدهر وفيه الايضاح الوافي لاشهر الحوادث التى وقعت ايضا في بلاد الغرب اثناء تلك الاجيال الطويلة وكان لها اتصال او علاقة ببلاد الشرق

فهو من هذا القبيل تاريخ عام لاهم الحوادث التى وقعت في العالم كله في الازمنة القديمة والحديثة وتاريخ خاص لذلك الشعب النشيط العجيب الذي نشأ منذ اول عمران المسكونة بالجنس البشري وقطن هذه

البقعة الشمالية من قارة افريقيا على ضفتي النيل حيث لعب ادواراً مهمة فيها وفي سائر الممالك والبلدان المجاورة له عادت بالرقي العجيب والتقدم الغريب على جميع سكانها كما عادت عليه بالفلاح والنجاح قروناً طويلة بل هو الشعب الذي انار الدجى بمصابيح العلم والهدى في العالم كله كما تدل على ذلك اثار رقية الباقيه الى اليوم تناطح السحاب رغماً عن اعتداء جميع امم وقبائل الارض عليه وعليها حديثاً. ذلك الرقي الذي قال عنه اشهر علماء اوربا في هذا العصر هذه العبارة المأثورة (انا لو افتخرنا مهما افتخرنا بعلوم واختراعات اوربا الحديثة نقف مبهوتين امام ما كان للمصريين القدماء من ذلك مما تظهره اثارهم العجيبة كل يوم)

فهذا الشعب هو الشعب القبطي الذي لبث من عصر الرومانيين الى الان عرضة لاضطهادات ونكبات وويلات لا حد لها ولا نهاية ورغماً عما عملت فيه السيوف والنيران في كل تلك الازمان من الفظائع التي افنت قواه وانقصت عدده الى ما دون العشر بقي الى اليوم وهو شعب قوي امين لله والناس وثابت على مبادئه القويمة الاصلية لا تزعزعه عنها اي كارثة ولا يثني عزيمته اي اضطهاد مهما طال زمانه وتعددت انواعه

ولا شك ان حضرة السيدة الفاضلة والكاتبة المجيدة البارعة المسيو بتشر التي قضت عدة اعوام تعاني المشاق والاوصاب في جمع هذا التاريخ الذي عجز عنه جميع الاقباط انفسهم لجديرة بالشكر الوافر والحمد المتواصل من جمهور مجموعهم وافرادهم بل من المصريين اجمعين على هذه

الخدمة الجليلة التي خلدت لها اعظم ذكر لا يمحى مدى الدهر

هذا ومن الذين لهم الفضل الاكبر على ترجمة هذا الكتاب الجليل الى العربيه سعادة مرقص بك سميكه والمرحوم الطيب الذكر رفله بك جرجس والذين باشروا الترجمة بالذات هما حضرتي الفاضلين اسكندر افندي نادرس من مزارعي السودان الان ونسيم افندي فهمي احد موظفي ادارة سكة الحديد فقد ترجم اولهما الجزئين الاول والثاني وثانيهما الثالث والرابع وتحملا في ذلك اتعابا تذكر لهما بالشكر الوافر والثناء العاطر. ولا يفوتنا هنا ان نشير الى القراء التشجيع العظيم الذي لقيناه اثناء مباشرة ترجمة وطبع هذا الكتاب على نفقتنا الخصوصية من عميد الامة القبطية المرحوم الخالد الذكر بطرس باشا غالي بعد ان علم بما تكبدناه في ذلك من الاتعاب الجمة والنفقات الكثيرة خصوصاً بعد احتراق ما كان ترجم وطبع منه واضطرارنا الى تكرار ذلك بنفقات جديدة فقد كتب الينا من الاسكندرية رحمه الله كتاباً رقيقاً بخط يده الكريمة يتضمن ارق العبارات واجملها يمتدح منا هذا العمل ويثني علينا لاجله اطيب الثناء مما دل على ما كان له من الاهتمام بكليات الامور وجزئياتها طيب الله ثراه

هذا وعسانا ان هذا التاريخ يقف عند بدائة ايام الاحتلال الانكليزي لمصر ولا يشتمل لايام التي تليها ونظراً للحوادث الكثيرة التي وقعت في هذه الفترة وهي ليست بقصيرة قد اخترنا الله في وضع جزء تاريخي مخصوص لها حسب ما لدينا من المعلومات التامة عنها وبالله المستعان وله الحمد على نعمائه في كل حين وكل ان (تادرس شنوده المنقبادي)

فهرست

تاريخ الامة القبطية و كنيستها

المجلد الاول

صحيفة

(ا) مقدمة المؤلفة

(ج) فهرست المجلد الاول

(د) مقدمة صاحب جريدة مصر

(و) جدول بطاركة الكنيسة القبطية

١ الفصل الاول — مجيء قيصر الى مصر

١٤ « الثاني — مجيء المسيح الى مصر

٢٣ « الثالث — كرازة مرقس الانجيلي

٣٣ « الرابع — بطريرك واحد وسبعة قياصرة

٤٣ « الخامس — رواد التيل في القرن الثاني

٥٢ « السادس — المدرسة اللاهوتية الاولى

٦٢ « السابع — اوريجانوس

٩٦ « الثامن — اضطهاد ديشبوس للمسيحيين

١٢٣ « التاسع — اضطهاد فالريان للمسيحيين

١٤٦ « العاشر — مار آمون ومار انطونيوس

صحيفة

١٥٥ الفصل الحادي عشر — الجهاد في سبيل الحرية

١٦٩ « الثاني عشر — تاريخ الشهداء

١٩٦ « الثالث عشر — جدال اريوس

٢٠٨ « الرابع عشر — البدعة والانشقاق

٢٣٣ « الخامس عشر — غريغوريوس وجورجيوس من كبدوكيه

٢٥٨ « السادس عشر — اوبة اثناسيوس ووفاته

٢٧١ « السابع عشر — انتحار الامة المصرية

٢٨٥ « الثامن عشر — اخر اسقف اريوسي في الاسكندرية

٣٠١ « التاسع عشر — سقوط هيكل سيرابيس

٣١٨ « العشرون — الاخوة الطويلو القامة

٣٣٩ « الحادي والعشرون — سينيثوس

المجلد الثاني

٢ الفصل الثاني والعشرون — شنوده الاخميمي وغيره

٢١ « الثالث والعشرون — كيراس الكبير

٣٥ « الرابع والعشرون — منافسة الباباوات

٤٥ « الخامس والعشرون — مجمع خلكيدونية

٥٧ « السادس والعشرون — نتيجة الشقاق بين الكنائس ومراكز الاروام في مصر

صحيفة	
٧٢	الفصل السابع والعشرون — زمن اراحة والسلام
٨٢	« الثامن والعشرون — كل اول وله اخر
٩٩	« التاسع والعشرون — ثورة الثلاثة اخوة
١٠٤	« الثلاثون — الفتح الفارسي
١١٦	« الحادي والثلاثون — مشروع الاتحاد
١٢١	« الثاني والثلاثون — الفتح الاسلامي
١٤٤	« الثالث والثلاثون — المسلمون في مصر
١٥٢	« الرابع والثلاثون — فتح السودان
١٥٨	« الخامس والثلاثون — عبدالعزيز
١٧٢	« السادس والثلاثون ـ ظلم ولاة مصر وجورهم
١٨٣	« السابع والثلاثون ـ عصيان الاقباط وسقوط الدولة الاموية
٢٠٢	« الثامن والثلاثون ـ ظلم الدولة العباسية للاقباط
٢١٦	« التاسع والثلاثون ـ اخر ثورة هائلة للاقباط
٢٢٧	« الاربعون ـ مقابلة ولي عهد السودان للخليفة
٢٣٧	« الحادي والاربعون ـ احمد بن طولون
٢٥١	« الثاني والاربعون ـ العمري واعماله الخطيرة
٢٦١	« الثالث والاربعون ـ مدينة ابن طولون الجديدة وجامعه
٢٧٦	« الرابع والاربعون ـ الدولة الاخشيديه

المجلد الثالث

صحيفة	
٢	الفصل الخامس والاربعون ـ فتح الفاطميين لمصر
١٠	« السادس والاربعون ـ بناء القاهرة
٢٣	« السابع والاربعون ـ اضطهاد الحاكم بامر الله
٣٦	« الثامن والاربعون ـ شنوده وخرستودوس
٥٠	« التاسع والاربعون ـ بدر الجمالي الارمني
٧٦	« الخمسون ـ تأثير مبادىء الحروب الصليبية في مصر
٩٣	« الحادي والخمسون ـ انشقاق مرقس بن قنبر
١٠٣	« الثاني والخمسون ـ حريق بابليون
١١٧	« الثالث والخمسون ـ الفتح الكردى
١٢٩	« الرابع والخمسون ـ سلطنة صلاح الدين يوسف
١٤٧	« الخامس والخمسون ـ النزاع والفتن بين الكنيسة الحبشية وامها الكنيسة المصرية
١٧٢	« السادس والخمسون ـ الصليبيون في مصر
١٩٥	« السابع والخمسون ـ البطريرك المرذول
٢١٨	« الثامن والخمسون ـ القديس لويس في مصر
٢٣٣	« التاسع والخمسون ـ مصير ملكة سلمة
٢٦٢	« الستون ـ فتح السودان مرتين

المجلد الرابع

صحيفة

٣ الفصل الحادي والستون ـ تخريب الكنائس وهدمها
٣٥ « الثاني والستون ـ اطول ازمنة الاضطهاد
٥٦ « الثالث والستون ـ المماليك الشراكسة
٧٣ « الرابع والستون ـ الفتح العثماني
٩٧ « الخامس والستون ـ من ردى الى اردأ
١١٥ « السادس والستون ـ تأثير الاصلاح في مصر
١٢٩ « السابع والستون ـ مصر في القرن السابع عشر
٢٠٧ « الثامن والستون ـ المسيو دي مايه في مصر
١٧٨ « التاسع والستون ـ استبداد البكوات المماليك
٢٣٢ « التاسع والستون ـ استبداد البكوات المماليك
٢٥٥ « السبعون ـ علي بك الكبير
٢٧٨ « الحادي والسبعون ـ دخول الفرنساويين
٣١٣ « الثاني والسبعون ـ محمد علي باشا
٣٥٠ « الثالث والسبعون ـ الاحتلال الانكليزي
٣٧١ « الرابع والسبعون ـ الكنيسة القبطية في القرن الت
٤٠١ « الخامس والسبعون ـ العوائد والمعيشة الاجتماعية
٤٢٥ خاتمة صاحب جريدة مصر
٤٢٨ فهرست الكتاب